



الإعذار

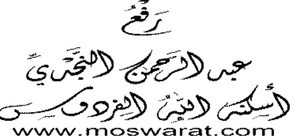
إلى المعتذرين لأهل البدع والصغار

هَل الجَماعاتُ التّكفيريّةُ والدّمويّةُ مُخلصةٌ؟
وهَل نقدُ أَخطائها يَعنِى الوُقوفَ مع العِلمانيِّين؟
وهَل هيَ صادقةٌ في نِدائِها بتَحكيمِ القُرآنِ والسُّنة؟
وهَل هيَ مَعذورةٌ فيما أصابَت مِن أموالِ النَّاس
وأَزهقَت مِن أرواحهم؟

تأليف
عبد المالك بن أحمد رمضاني

مكتبة دار البرازي
دار الإمام مسلم


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



الإعذار

إلى المعتذرين لأهل البدع والصغار

ح عبد المالك بن أحمد رمضاني، ١٤٣٦ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية اثناء النشر

رمضاني، عبد المالك أحمد

الاعذار الى المعتذرين لاهل البدع والصغار. / عبد المالك احمد رمضاني. ـ المدينة المنورة، ١٤٣٦ هـ

١٦٠ ص؛ ..سم

ردمك: ٠-٦٩٤٥-٠١-٦٠٣-٩٧٨

١- الاعذار ٢- العقيدة الإسلامية ٣- البدع في الاسلام أ. العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٣٦/١٠٦٦

رقم الإيداع: ١٤٣٦/١٠٦٦

ردمك: ٠-٦٩٤٥-٠١-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ

مكتبة دار البرازي

سوريا - حمص - مجمع ابن سينا

البريد الإلكتروني: Dar.alktab.alalme@gmail.com

دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - المدينة المنورة

جوال: ٠٥٩٠٩٦٠٠٠٢

الصف والإخراج

دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع

الإعذار

إلى المعتذرين لأهل البدع والصغار

هَل الجَماعاتُ التَّكفيريَّةُ والدَّمويَّةُ مُخلصةٌ؟

وهَل نَقدُ أَخطائِها يَعني الوُقوفَ مع العِلمانيِّين؟

وهَل هيَ صادقةٌ في نِدائِها بتَحكيمِ القُرآنِ والسُّنة؟

وهَل هيَ مَعذورةٌ فيما أَصابَت مِن أَموالِ النَّاس وأَزهقَت مِن أَرواحهم؟

تأليف

عبد المالك بن أحمد رمضاني

مكتبة دار البرازي

دار الإمام مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنَّ الحمدَ لله نحمَدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونَعوذ بالله مِن شُرورِ أَنفُسِنا وسَيِّئاتِ أَعْمالِنا، مَن يَهدِهِ اللهُ فَلَا مُضلَّ له، ومَن يُضلِلْ فلَا هادِيَ له، وأَشْهدُ أن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَه لَا شَريكَ له، وأَشهدُ أنَّ محمَّدًا عَبدُه ورَسولُه.

أمَّا بَعْدُ، فالمقصودُ بالإعذارِ إقامةُ الحجَّةِ على مَن لَا يَعرفُها، وتَذكيرُ مَن يَعرفُها لكن غلبَه الهوَى أو النِّسيانُ حتَّى تركَ بعضَ الحقِّ فيها، مِن بابِ قَولِ الله ﷻ: ﴿قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، وأمَّا ذَوو الأَعذارِ فهُم أولئكَ الَّذينَ لَا يرَونَ في البدَع خُطورةً كَبيرةً ويَتلمَّسون الأَعذارَ لأهلِها كي يُخفِّفوا من قالةِ النَّاس فيهم ويُهوِّنوا من شَأنِهم ويَصرِفوا سُيوفَ أهلِ العِلم عَنهم، مع أنَّ الواجبَ استِذلالُهم واستِصغارُهم؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ حكَم علَيهم بذلكَ فقالَ: «**وجُعِلَ الذِّلَّةُ والصَّغارُ على مَن خالَفَ أَمري**» رواه أحمدُ (٥١١٤) وابنُ أبي شَيبة (٥/ ٣٢٢) وهوَ حسنٌ، وأهلُ البدَع هُم مَن خالفَ أمرَ النَّبيِّ ﷺ؛ كما قالَ ﷺ: «**مَن عمِلَ عملًا ليسَ علَيه أَمرُنا فهوَ ردٌّ**» رواه مسلم (٤٥١٤).

وقد ضُربَ الصَّغارُ والذِّلَّة على كلِّ مُبتدعٍ، ونَظيرُ الحديثِ من القُرآنِ قولُ الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾[الأعراف: ١٥٢]، كما روَى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩٠٠٨) بإسنادٍ صَحيحٍ عن سُفيانَ بن عُيينةَ رَحِمَهُ اللهُ في قَولِ الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ قالَ: «كلُّ صاحبِ بِدعةٍ ذَليلٌ»؛ وذلكَ لأنَّ المبتدِعَ يَفتري على الله دِينًا لم يُنزِّله، قالَ أيُّوبُ السَّختِياني: «كانَ أبو قِلابةَ إذَا قرأَ هَذه الآيَةَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قالَ: فهوَ جَزاءُ كلِّ مُفترٍ إلى يَوم القِيامةِأن يُذلَّه اللهُ» رَواه ابنُ أبي حاتم أيضًا (٩٠٠٤) بإسنادٍ صَحيحٍ.

وهوَ ﷺ كما بُعثَ لتَعليمِ النَّاس الخيرَ فقد بُعثَ لتَحذيرِهم من الشَّرِّ، والشَّرُّ قِسمانِ: قسمٌ شبُهاتٌ، وقِسمٌ شَهواتٌ، وجعَل ﷺ قِسمَ الشُّبهاتِ - الَّذي هوَ قِسمُ البدَع - شرَّ الشَّرَّين فقالَ: «**إنَّ خَيرَ الحديثِ كِتابُ الله، وخَيرَ الهُدَى هُدَى محمَّدٍ، وشرَّ الأُمورِ مُحْدَثاتُها، وكلَّ بِدعةٍ ضَلالةٌ**» رَواه مسلم (١٩٦٠) من حَديثِ جابرٍ رضي الله عنه، فجعَل المُحْدثاتِ - أي البدَع - شرَّ الأُمورِ.

ثمَّ إنَّ مَوضوعَ هَذا الكتابِ - وإن كانَ يَتعلَّق في عُمومِه بعامَّة أهلِ البِدع - فإنَّ الغرَضَ الأكبرَ منه هوَ الكلامُ على فِرقةٍ عَريقةٍ في تاريخ الإسلام عُرفت باجتِهادِها في تكفيرِ أَهلِ القِبلةِ بالذُّنوبِ وإعمالِ السَّيفِ فيها، وهما بابانِ عَظمَت بليَّةُ أهلِ الإسلَام فيهما ممَّن لم يَفقَهْهما: التَّكفيرُ والجِهادُ.

وكلامُ أهلِ العِلم في مَباحثِهِما قَديمٌ، وكلامُ أَكثرِ الطَّوائفِ فيهما غيرُ سَليمٍ، وشرُّها الخوارجُ، وليسَ مِن قَبيل المصادفةِ أن يَنصَّ العُلماءُ على ما ضُربِ علَيهم من الذُّلِّ والصَّغارِ، مِن ذلكَ قولُ وهب بن منبِّه رَحِمَهُ اللَّهُ فيهم: «إنِّي قد أَدركتُ صدرَ الإسلَام، فوَالله! ما كانَت للخَوارجِ جماعةٌ قطُّ إلَّا فرَّقَها اللهُ على شرِّ حالَاتِهم! وما أَظهرَ أحدٌ مِنهم قَولَه إلَّا ضَربَ اللهُ عُنقَه! وما اجتَمعَت الأمَّةُ على رَجلٍ قطُّ مِن الخَوارجِ...»! إلى أن قالَ: «قالَ اللهُ تعَالى في كِتابِه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ إلى ﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ حتَّى بلَغ: ﴿تَهْتَدُونَ﴾[آل عمران: ١٠٣]، وقالَ اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلى ﴿ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، فأينَ هُم مِن هَذه الآيةِ؟! فلَو كانُوا مُؤمنِين لنُصِروا! وقالَ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، فلَو كانُوا جندَ الله غَلَبوا ولَو مرَّةً واحدةً في الإسلَام، وقالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ حتَّى بلَغ: ﴿نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، فلَو كانُوا مُؤمِنين نُصِروا، وقالَ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ حتَّى بلَغَ: ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥]، فأينَ هُم مِن هَذا...»؟! وسيَأتي تَخريجُه.

وتَخليطُ عامَّةِ النَّاس في أَبوابِ الجِهادِ والتَّكفيرِ مَعلومٌ، وانطِلاءُ بِدعةِ الخوارجِ علَيهم في ذلكَ مجرَّبٌ؛ وذلكَ لأنَّ كَثيرًا مِنهم يَنخدِعون بما يُظهرُ لهم أهلُ البدَع من الغَيرةِ على الدِّين لَا سيما وهُم يُتقنونُ الحديثَ عَنهما عاطفيًّا،

فإذَا ضَمُّوا إلى ذلكَ شدَّةَ العِبادةِ قويَ التَّأثيرُ، حتَّى يَحملَهم حسنُ ظنِّهم بهم على تلمُّس الأَعذارِ لهم ولو فيما لَا يُدفعُ من فادحِ أَخطائِهم، كما أنَّ لظاهرِ حَماستِهم المتدفِّقةِ وخِطاباتِهم المتحرِّقةِ على تَضييعِ الشَّرع الأثرَ البالغَ في ذلكَ؛ لأَنَّه أُسلوبٌ أخَّاذٌ يَفعلُ في النُّفوسِ فِعلَ السِّحرِ!

إذَن، فالبحثُ يَتلخَّص في بَيانِ حُكم الدِّفاعِ عن أهلِ البدَع باعتِقادِ أنَّ نيَّاتِهم حسنةٌ وأنَّهم إنَّما أَرادُوا الخيرَ فأَخطأُوا بابَه فقَطْ! ومِن ذلكَ:

هَل الجَماعاتُ التَّكفيريَّةُ والدَّمويَّةُ مُخلصةٌ؟

وهَل نَقدُ أَخطائِها يَعني الوُقوفَ مع العِلمانيِّين؟

وهَل هيَ صادقةٌ في نِدائِها بتَحكيمِ القُرآنِ والسُّنة؟

وهَل هيَ مَعذورةٌ فيما أَصابَت مِن أَموالِ النَّاس وأَزهقَت مِن أَرواحٍ؟

وقد سَمعتُ مَن يَقولُ: «تَسمَعون كثيرًا من الدُّعاةِ:

- هَذا سَبيلُه الرَّصاصُ.
- وهَذا سَبيلُه الدَّعوةُ.
- وهَذا سَبيلُه الجهادُ.
- وهَذا سَبيلُه الانقلابُ العسكريُّ.
- وهَذا سَبيلُه المظاهراتُ.

فلَا اختلافَ بينَنا على أنَّ نيَّاتِهم جميعِهم - إن شاءَ اللهُ - حسنةٌ»!!!

ومَن يَقولُ: «بعضُ الإخوَة - نَحسبُهم على خيرٍ عَظيمٍ وإخلاصٍ كَبيرٍ!- نَهَجوا بعضَ المناهِجِ الاغتِياليَّة»!!!

ومَن يَقولُ: «بل شَهد الرَّسولُ ﷺ بالإخلَاص للخَوارج»!!!

ومَن يَقولُ فيهم أيضًا: «وهُم أنقَى في هذه القضيَّة من كثيرٍ من المسلمِين...»!

ولَا شكَّ أنَّ مِثلَ هَذه التَّزكيةِ يَعيشُ بها جَماعاتٌ كَثيرةٌ ممَّن ضلَّ سعيُهم في الحياةِ الدُّنيَا وهُم يَحسَبون أنَّهم يُحسِنون صُنعًا!

وقريبٌ من هَذا ما قرأتُه في كتاب سيِّد قُطب «العَدالة الاجتِماعيَّة» (ص ١٨٩- ط الخامسَة) وهوَ يَمدحُ الَّذينَ خرَجوا يَقتُلون الخليفةَ الرَّاشدَ ذَا النُّورَين عُثمانَ بنَ عفَّان رضي الله عنه فيَقولُ: «وأَخيرًا ثارَت الثَّائرةُ على عُثمانَ واختلطَ فيها الحقُّ بالباطلِ والخيرُ بالشَّرِّ، ولكن لَا بدَّ لَمن يَنظرُ إلى الأُمورِ بعَين الإسلامِ ويَستشعرُ الأُمورَ برُوح الإسلامِ أن يُقرِّر أنَّ كلَّ الثَّورةِ في عُمومِها كانَت أَقربَ إلى روح الإسلامِ واتِّجاهِه مِن موقفِ عُثمانَ!!! أو بالأَدقِّ مِن مَوقفِ مَروانَ ومن وَرائه بَنو أُميَّة»!!

ولَا أَدري كيفَ يَكتبُ مُسلمٌ مِثلَ هَذا الضَّلالِ؟! ولُصوقُه بمَوضوعِنا أنَّ الرَّجلَ يَتكلَّم عن الرُّوح، والرُّوحُ أمرٌ باطنيٌّ كما هوَ مَعلومٌ، واللهُ المستَعانُ.

ومَن يَقول: «شَبابٌ مُتحمِّسٌ غلبَته الغَيرةُ»، «شَبابُ الصَّحوةِ يُريدُ الإسلامَ ولكن يَستفزُّه العِلمانيُّون فيتَهوَّر، يجبُ السُّكوتُ عن أَخطائِه حتَّى لَا نَصفَّ مع العِلمانيِّين»!

ولَا ريبَ أن يوجدَ فيهم مَن قد تَكونُ له نيَّةٌ حسنةٌ، لكن الكلامُ عن مَجموعِهم لَا عن أَفرادٍ مِنهم؛ لأنَّ لكلِّ قاعدةٍ شُذوذًا كما هوَ مَعلومٌ، وقد كلَّمْنا بعضًا مِنهم فرجَعوا أوَّلَ ما عرَفوا الحقَّ؛ لأنَّهم كانُوا مَحجوبِين بحَماستِهم عن العِلم، كما كانُوا مَحجوبِين بحِزبيَّتِهم عن أَهلِ العِلم، كما كلَّمْنا فِئامًا مِنهم بالدَّليلِ الواضحِ القويِّ وعزَّزْناه بفَتاوَى كِبارِ عُلماءِ المنهَج السَّويِّ فما زادَهم إلَّا كِبرًا وعتوًّا؛ لأنَّ الغالبَ على أهلِ البدَع عدمُ التَّوبةِ كما قالَ ﷺ: «**إنَّ اللهَ حجبَ التَّوبةَ عن كلِّ صاحبِ بِدعةٍ حتَّى يدَعَ بِدعتَه**» رواه الطبراني وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» (٥٤).

وقد استغلَّ بعضُ مؤيِّدي الثَّوراتِ في بلادِ المسلِمينَ مِثلَ هَذه الاعتِذاراتِ للسِّترِ على الجماعاتِ الدَّمويَّة والمحافظةِ على سُمعتِها، فمَهْما سَفكوا من دِماءِ المسلِمينَ وغيرِهم ودمَّروا من مُنشآتِهم وأَفسدوا من أَموالِهم فإنَّ تَصحيحَ نيَّتِهم شافعٌ لتَخريبِهم وإجرامِهم عندَهم!!

ومن هَذا القَبيلِ صنفٌ يُنادِي بالحوارِ معَهم ليَستُرَ علَيهم ويُعطيَهم حقَّ العَيش في بلادِ المسلِمينَ بعدَ أن اغتالُوا كَثيرًا مِن الأَبرياءِ الَّذينَ لهم شرعًا حقُّ العَيش، فيُسارِع المحامُون لهم إلى اقتِراحِ مُحاورتِهم بدلًا مِن تَطبيقِ شَرعِ الله فيهم الَّذي قالَ: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، والحِوارُ والنُّصحُ مَبذولانِ لهم - والحمدُ لله - مِن قِبَلِ أهلِ العِلم الصَّادقِين، لكن يَدخلُ المكر هنا ممَّن يُظهِر مُحاورتَهم وهوَ يُبطنُ مُجاورتَهم!

ونظرًا لعِظم هَذه الشُّبهةِ الَّتي نردُّ علَيها في هَذا الكِتابِ فإنَّ هُناكَ جَماعاتٍ غَفيرةً مِن دُعاةِ السُّنةِ والجماعةِ يَتحاشَون الكلامَ فيهم تأثُّمًا؛ لأنَّهم يتوهَّمون أنَّ لهم مَقالًا لتفشِّي المنكَراتِ في بلادِ المسلِمينَ، وأنَّ مَبدأَ الولاءِ والبَراءِ يُحتِّم علَيهم ذلكَ، ويُشارِكهم في ظاهرِ الإحجامِ صِنفٌ جَبانٌ لم يَمنَعْه مِن ذلكَ سوَى الحِفاظِ على سُمعتِه في الأَوساطِ الدَّعويَّةِ، ومِن الخطأ بمَكانٍ أنَّهم لو تكلَّموا فيهم لَا يَتكلَّمون إلَّا عندَ طمعٍ في زُلفَى لدَى دولةٍ أو لفَظاعةِ جَريمةٍ ارتكَبوها فيَثورونَ علَيهم إن ثارَ عامَّةُ النَّاس، فهُم لَا يَتحرَّكون حتَّى يَبلغَ السِّكينُ العَظمَ، وحِينئذٍ يَعسرُ العِلاجُ؛ لأنَّ الرَّفعَ أَصعبُ مِن الدَّفع، ولو صاحبَتْهم الحِكمةُ والشَّجاعةُ لعَصموا الشَّبابَ من الأَفكارِ الهدَّامةِ الَّتي تَغتالُ عُقولَهم قبلَ أن تُصبحَ تلكَ الأَفكارُ مُسلَّماتٍ عندَهم لَا يردُّها إلَّا عَميلٌ أو دَخيلٌ، مع أنَّهم لو تأمَّلوا سيرةَ السَّلفِ لأَدرَكوا أنَّهم كانُوا يُحذِّرون مِن مَسالكِهم ولو لم يَقُم المقتضِي المباشِرُ لذلكَ.

بل كانَ ﷺ يُحذِّر مِن البدَع عُمومًا ولم يكُن لها جَماعةٌ قطُّ في وَقتِه ويُكرِّر ذلكَ في كلِّ خُطبةِ جمعةٍ كما في حَديثِ جابرٍ السَّابقِ، وكانَ يُحذِّر من الخَوارج خُصوصًا ولم يكُن لهم يَومئذٍ جَماعةٌ قطُّ، فكيفَ إذَا أُضيفَ إلى هَذا إخبارُ الرَّسولِ ﷺ بخُروجِهم على الأمَّةِ الإسلاميَّةِ في كلِّ عصرٍ؟! كما روَى أحمدُ (١٩٧٨٣) وغيرُه بسندٍ صَحيحٍ في الشَّواهد أنَّ رَسولَ الله ﷺ قالَ فيهم: «...لَا يَزالونَ يَخرُجونَ حتَّى يَخرجَ آخرُهم معَ الدَّجَّالِ، فإذَا لَقِيتُموهم فاقتُلوهم؛ هُم شرُّ الخَلقِ والخَليقةِ»، واللهُ العاصمُ.

إصلاحُ الباطِنِ والظَّاهِرِ

علاقةُ مَوضوعِ النِّياتِ الَّذي هوَ مِحورُ كتابي هَذا بمَوضوعِ إصلاحِ الباطنِ والظَّاهِرِ هوَ مِن جهةِ أنَّ إصلاحَ النِّياتِ داخِلٌ تحتَ إصلاحِ الباطنِ كما لَا يَخفَى.

وكلُّ قارئٍ لكِتابِ الله تعالَى يُلاحظُ كَثرةَ الآياتِ المادِحةِ لِمَن جمَع بين الإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ؛ كقَولِه تعالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤]، فالإيمانُ هُنا هوَ العملُ الباطنيُّ لأنَّه اقترنَ بالعملِ الصَّالح الَّذي هوَ العملُ الظَّاهريِّ، وإن كانَ بُنيانُه يَقومُ على أَساسِ التَّصديقِ والإقرارِ والعمَلِ؛ لأنَّه لَا بدَّ مِن إصلاحِ الظَّاهِرِ والباطنِ، كما قالَ اللهُ تَعالَى في مُقابلِهما: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، وقالَ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وروَى مسلم (٧٣١٥) أنَّ رَسولَ الله ﷺ قالَ لأَصحابِه: «**تعوَّذُوا بالله مِنَ الفتَنِ مَا ظهرَ مِنها وما بطَنَ**، قَالوا: نَعوذُ باللهِ مِن الفتَنِ مَا ظهرَ مِنها ومَا بَطنَ».

وفَسادُ باطِنِ المرءِ وظاهرِه هوَ الفَسادُ التَّامُّ؛ قالَ تعالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، أي فَساد بَواطِنِهم وظَواهِرِهم؛ لأنَّ الأَفئدَةَ للبَواطنِ والأَبصارَ للظَّواهرِ، فكَم مِن كاتمٍ شَيئًا في نَفسِه تُعلم حالُه مِن عَينَيه، ولذلكَ كانَت المثوبةُ أو العُقوبةُ مُترتِّبةً على نظرِ الله إلى القُلوبِ الدَّالَّة على البَواطنِ والأَعمالِ الدَّالَّةِ على الظَّواهرِ؛ كما روَى مُسلم (٢٥٦٤) عن أبي هُريرةَ قالَ: قالَ رَسولُ الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ لَا يَنظرُ إلى صوَرِكم وأَموالِكم، ولكِنْ يَنظرُ إلى قُلوبِكم وأَعمالِكم**».

قالَ ابنُ تَيمية في «الاستِقامَة» (١/ ٣٥٧): «فعُلِم أنَّ مجرَّدَ الجمالِ الظَّاهرِ في الصُّوَر والثِّيابِ لَا يَنظرُ اللهُ إلَيه وإنَّما يَنظرُ إلى القُلوبِ والأَعمالِ؛ فإن كانَ الظَّاهرُ مزيَّنًا مجمَّلًا بحالِ[1] الباطنِ أحبَّه اللهُ، وإن كانَ مقبَّحًا مدنَّسًا بقُبحِ الباطنِ أَبغضَه اللهُ؛ فإنَّه سُبحانَه يحبُّ الحسَنَ الجميلَ ويُبغضُ السَّيِّئَ الفاحشَ»،

وقالَ القرطبيُّ في «الجامع لأحكام القُرآن» (١٦/ ٣٢٦): «وهَذا حَديثٌ عَظيمٌ يَترتَّب علَيه ألَّا يُقطعَ بعَيبِ أحدٍ لِما يُرَى علَيه مِن صوَر أَعمالِ الطَّاعةِ أو المخالفةِ، فلعلَّ مَن يُحافظُ على الأعمالِ الظَّاهرةِ يَعلمُ اللهُ مِن قَلبِه وصفًا مَذمومًا لَا تصحُّ معَه تلكَ الأعمالُ، ولعلَّ مَن رأَيْنا عليه تَفريطًا أو مَعصيةً يَعلمُ اللهُ مِن قَلبِه وصفًا محمودًا يغفرُ له بسَببِه، فالأَعمالُ أَماراتٌ ظَنيَّةٌ لَا أَدلَّة قطعيَّة، ويَترتَّب علَيها عدمُ الغلوِّ في تَعظيم مَن رأَيْنا علَيه أَفعالًا صالحةً، وعدمُ الاحتِقارِ لمسلمٍ رأَينا علَيه أَفعالًا سيِّئةً، بل تَحتقرُ وتذمُّ تلكَ الحالةَ السَّيِّئةَ لَا تلكَ الذَّات المُسيئة، فتدبَّرْ هَذا؛ فإنَّه نظرٌ دَقيقٌ، وبالله التَّوفيقُ».

وللشَّيخ العلَّامةِ محمَّد ناصِر الدِّين الألبانيِّ رَحِمَهُ اللهُ كلامٌ عَظيمٌ ومُستفيضٌ في هَذا في بَعض مَسموعاتِه المشهورةِ باسم: «سِلسلَة الهدَى والنُّور» (٦٢٥/ ١)، وقد فرَّغَه بَعضُ طلبةِ العِلم وطبعَه واشتهَرَ بعُنوان: «مَوسوعَة الأَلبانيِّ في العَقيدةِ» لشادي آل نُعمان، ولِنَفاستِه أَحببتُ نَقلَه هنا، فقد استدلَّ على ضَرورةِ إصلاحِ الباطنِ والظَّاهرِ بأدلَّةٍ قويَّةٍ قالَ فيها (٤/ ٧٧): «هُناكَ أَحاديثُ كثيرةٌ

---

(١) كَذا في المطبوع، ولعلَّها: بجَمالٍ؛ بدَليلِ الجملةِ المقابِلةِ لها بعدُ.

وكَثيرةٌ جدًّا تؤكِّد هَذه الظَّاهرةَ النَّفسيَّةَ مِن الارتِباطِ الوَثيقِ بين القَلبِ والبدَنِ، بينَ الباطنِ والظَّاهرِ»، وممَّا استدلَّ به:

١- حَديث النُّعمان بن بَشيرٍ رضي الله عنهما يَقولُ: سَمعتُ رَسولَ الله ﷺ يَقولُ: «**الحلَالُ بيِّنٌ، والحرامُ بيِّنٌ، وبَينَهما مُشَبَّهاتٌ لَا يَعلَمُها كَثيرٌ مِن النَّاسِ، فمَن اتَّقَى المُشبَّهاتِ استَبرأَ لدِينِه وعِرضِه، ومَن وقَعَ في الشُّبهاتِ؛ كراعٍ يَرعَى حولَ الحِمَى يوشِكُ أَن يُواقعَه، أَلَا وإنَّ لِكلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا إنَّ حِمَى الله في أَرضِه مَحارِمُه، أَلَا وإنَّ في الجسدِ مُضغةً إذَا صلَحَت صلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذَا فسَدَت فسَدَ الجسدُ كلُّه، أَلَا وهيَ القلبُ**» رواه البخاري (٥٢) ومسلم (٤١٠١).

وقالَ: «فهذا الحديثُ صَريحٌ جدًّا في شَطرِه الأَخيرِ: (**أَلَا وإنَّ في الجسدِ مُضغةً إذَا صلَحَت صلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذَا فسَدَت فسَدَ الجسدُ كلُّه، أَلَا وهيَ القلبُ**)، فصلاحُ الجسدِ إذَن مِن النَّاحيةِ النَّفسيَّةِ والمعنَويَّةِ كافٍ مِن النَّاحيَّة المادِّيَّة الطِّبيَّة، صلاحُ البدنِ بصَلاحِ القلبِ ظاهرًا وباطنًا، فإذَا صلَح القلبُ صلَحَ الجسدُ، والجسدُ إذَا صلَح أيضًا كانَ ذلكَ مَدْعاةً لصَلاحِ القلبِ، ولذَلكَ ففي الحديثِ تَنبيهٌ قويٌّ جدًّا على أنَّ المسلِمَ لَا يَنبغِي أن يَغترَّ بقَولِه: (أنا طَوِيَّتي صَحيحةٌ وسالِمةٌ ونيَّتي طيِّبةٌ)، لكنَّ عمَلَه ليسَ كنيَّتِه الَّتي يَزعمُ أنَّها صالحةٌ وطيِّبةٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ يُكذِّبه في هَذا الحديثِ حِينَما يَقولُ: (**أَلَا وإنَّ في الجسدِ مُضغةً إذَا صلَحَت صلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذَا فسَدَت فسَدَ الجسدُ كلُّه، أَلَا وهيَ القلبُ**)، يَعني أنَّ القلبَ إذَا كانَ صالحًا - كما يدَّعِي بعضُ النَّاس - فلَا بدَّ مِن أن يَنضحَ صلاحُه على جَسدِه وعلى ظاهرِه على حسَب قولِ مَن قالَ:

ومَهْما تكُن عندَ امرِئٍ مِن خَليقةٍ   وإن خالَها تخفَى على النَّاسِ تُعْلَمِ

٢- واستدلَّ أيضًا بحَديثِ الأَمرِ بتَسويةِ الصُّفوفِ للصَّلاةِ، فقالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يؤكِّد هَذا المعنَى الَّذي أَوضحَه هَذا الحديثُ مِن ارتِباطِ الظَّاهرِ بالباطنِ نُصوصٌ أخرَى كَثيرةٌ، مِن ذلكَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ - كما جاءَ في غيرِ ما حَديثٍ صَحيحٍ - كانَ إذَا قامَ إلى الصَّلاةِ لم يُكبِّر إلَّا بعدَ أن يَأمرَ بتَسويةِ الصُّفوفِ ويؤخِّر المتقدِّمَ ويُقدِّم المتأخِّرَ، حتَّى يُسوِّيَ الصُّفوفَ كالقِدَاح - كالرِّماح - خطٌّ مُستقيمٌ جدًّا، ويقولُ لهم في جُملةِ ما يَقولُ في بعضِ الأَحيانِ: (**لَتُسوُّنَّ صُفوفَكم أو لَيُخالِفنَّ اللهُ بين وُجوهِكم**)[1]، وفي رِوايةٍ: (**بينَ قُلوبِكم**)[2]، فهذا نصٌّ آخرُ صَريحٌ وصَريحٌ جدًّا؛ لأنَّ الاختِلافَ اختِلافَ المسلِمينَ في ظَواهرِهم ومَظاهرِهم يؤدِّي إلى اختِلافِهم في صُدورِهم وفي بَواطِنِهم...

فجَعل النَّبيُّ ﷺ اختِلافَ المسلِمينَ في تَسويةِ الصَّفِّ سببًا لاختِلافِهم في قُلوبِهم، ونحنُ نُشاهِد اليومَ إهمالَ المسلِمينَ لتَسويةِ هَذه الصُّفوفِ الَّتي لو اقتصَرْنا في إصدارِ الحُكم عنها لاكتفَيْنا أن نَقولَ: إنَّه واجبٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يَقولُ في جملةِ ما يقولُ - كما أشرتُ إلى ذَلك آنفًا -: (**سَوُّوا صُفوفكم؛ فإنَّ تَسويةَ الصُّفوفِ مِن تَمام الصَّلاةِ**)[3]، لو اقتصَرْنا على هَذا الحديثِ لقُلْنا: إنَّ المسلِمينَ

---

(١) رَواه البخاري (٧١٧) ومُسلم (٩٧٨).

(٢) رَواه أبو داود (٦٦٢) وصحَّحَه الألبانيُّ فيه.

(٣) رَواه مسلِم (٩٧٥).

مقصِّرون في القِيام بهَذا الواجبِ، فكيفَ ونحنُ في صَددِ بَيانِ أنَّ إخلالَهم بالقِيام بهَذا الواجبِ الدِّينيِّ هوَ سببٌ شرعيٌّ للاختِلافِ الَّذي يَجعلُه اللهُ ﷻ جَزاءَ تَقصيرِهم في تَطبيقِهم لأَمرِ نبيِّهم أن يَضربَ على قُلوبِهم وأن يوقِع الفُرقَةَ والخلافَ بينَهم؟! فهَذا أيضًا حَديثٌ عَظيمٌ جدًّا؛ حيثُ ربَطَ صلاحَ قلوبِ الَّذينَ يَقِفون في الصَّفِّ بإصلَاحِهم للصُّفوفِ، وأن لَا يُخِلُّوا في تَنظيمِها وفي تَرتيبِها».

٣- واستَدلَّ أيضًا بأَحاديث النَّهيِ عن التَّشبُّه بالهَدي الظَّاهرِ للكفَّارِ، قالَ رَحِمَهُ اللهُ: «وممَّا يؤكِّد أيضًا هَذه القاعدةَ النَّفسيَّةَ القلبيَّةَ مِن ارتباطِ الباطنِ بالظَّاهرِ والظَّاهرِ بالباطنِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ في غيرِ ما حَديثٍ صَحيحٍ وفي مُختلَفِ أبوابِ الشَّريعةِ نَهَى عَلَيْهِ السَّلَامُ المسلِمينَ أن يَتشبَّهوا بغَيرِهم؛ ذلكَ لأنَّ التَّشبُّهَ يوجِب أُلفةً ويوجِب تَقاربًا بينَ المتشبِّه وبينَ المتشبَّهِ به، ولَمَّا كانَ الكفَّارُ يَعيشونَ حقًّا في ضَلالٍ مبينٍ في دُنيَاهم فَضلًا عن آخِرتِهم، كانَ بدهيًّا جدًّا أنَّ الشَّارعَ الحكيمَ يَنهَى الأمَّةَ أن تَتشبَّه بشيءٍ مِن عاداتِ هَؤلاءِ الكفَّار؛ لأنَّ ما هُم علَيه ضلالٌ في ضلالٍ.

قلتُ: إنَّ الأَحاديثَ الَّتي وردَت في النَّهيِ كَثيرةٌ وكَثيرةٌ جدًّا، في نَحوِ أَكثرَ مِن أَربعينَ حَديثًا في أَبوابٍ مُختلفةٍ مِن أَبوابِ الشَّريعةِ: في الملبَس، في المظهَرِ، في المساكَنةِ والمجامَعةِ والاختِلاطِ، في الصِّيامِ، في الطَّعامِ، في الحجِّ، في أَبوابِ الشَّريعةِ كلِّها، جاءَت نُصوصٌ تَأمرُنا بمُخالفةِ المشرِكينَ في هَديِهم.

ومِن المهمِّ مِن ذلكَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: **(مَن جامَع المشرِكَ فهوَ مِثلُه)**[1]، المجامَعةُ تَعني مُطلقَ المخالَطةَ، **(مَن جامَعَ)**: بمَعنَى مَن خالَط المشرِكَ أي: مَن ساكَنه وجاوَرَه وقارَبه في مَسكنِه وعاشَ حَياتَه معَه فهوَ مِثلُه.

وتَعلَمون هُنا - حتَّى لَا يَرِد إشكالٌ - أنَّ المِثليَّةَ لَا تَقتَضي ولَا تَستلزِم المشابَهةَ بالكليَّة مِن كلِّ الجوانبِ، كمِثل قَولِه تَبارَك وتعالَى حينَما حذَّر المسلِمينَ مِن مُوالاةِ المشرِكينَ قالَ ربُّ العالَمينَ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، أي: في هَذه الموالَاةِ، أي: فهوَ مِنهم عملًا، وهَذا بحثٌ آخرُ أنَّ الكفرَ والشِّركَ يَنقسمُ إلى قِسمَين: شِركٌ عمَليٌّ، وشِركٌ اعتِقاديٌّ، فهَذا مِنهم، أي: عملًا وليسَ عَقيدةً.

النَّبيُّ ﷺ قد نَهى في أَكثرَ مِن حَديثٍ عن مُخالطةِ المشرِكينَ؛ لأنَّ الظَّاهرَ يؤثِّر في الباطنِ، ولابن تَيمِية رَحِمَهُ اللَّهُ كلامٌ جَميلٌ جدًّا[2]، يقولُ: إنَّ التَّشابهَ في الظَّواهرِ يوجِدُ ارتِباطًا بين القُلوبِ، ويَضربُ بعضَ الأَمثلةَ أَذْكر بعضَها، يَقولُ مثلًا: الرَّجلُ الغَريبُ في بَلدٍ ما إذَا وَجدَ فيه غَريبًا مِثلَه مالَ إلَيه؛ لأنَّ هُناكَ تَجانسًا بلديًّا، فهوَ يَميلُ إلَيه ويُؤالفُه أكثرَ مِن أولئكَ الغُرباءِ الَّذينَ هوَ يَعيشُ بينَ ظَهرانَيهم، كَذلكَ يَضربُ مَثلًا آخَر فيَقولُ: جنديٌّ يَلبسُ ثِيابَ الجندِ، فحِينَما يرَى شخصًا آخَر يَلبسُ نفسَ اللِّباسِ أيضًا يَميلُ إلَيه ويَركنُ إلَيه ويَتآنسُ معَه مِن بابِ: إنَّ الطُّيورَ على أَشكالِها تَقعُ.

---

(١) رَواه أبو داود (٢٧٨٩) وصحَّحه الألبانيُّ فيهِ.

(٢) هوَ في كِتابِه «اقتِضاء الصِّراط المستَقيم» (ص ٢٢١) وقد حَكاه هنا الشَّيخُ بالمعنَى.

فإذَا رأيتَ مُسلمًا يَتشبَّه بالكافرِ يُخالِط كافرًا، معنَى ذَلك أنَّه وُجدَت هناكَ مُجانسةٌ قَلبيَّةٌ بينَه وبينَ ذاكَ الكافرِ أو المشركِ، لذلكَ حذَّر النَّبيُّ ﷺ المسلمَ مِن مُخالطةِ المشركِ، ومِن مُساكنتِه أشدَّ التَّحذيرِ، فقالَ في حَديثٍ آخَرَ غيرِ الحديثِ السَّابقِ قالَ علَيه الصَّلاةُ والسَّلامُ: (**أنا بريءٌ مِن كلِّ مُسلمٍ أقامَ بين ظَهرانَيِ المشرِكينَ**)[1].

وقالَ في حَديثٍ ثالثٍ: (**المسلِمُ والمشرِكُ لَا تَتراءَى نارَاهما**)، يَعني: ابعَدْ عن مُجاورةِ المشركِ بَعيدًا بَعيدًا، على عادَتِهم القَديمةِ أنَّهم كانُوا يُوقِدون النِّيرانَ أمامَ الخِيام، فيَنبَغي أن يَكونَ المسلمُ في خَيمتِه بَعيدًا عن خَيمةِ المشركِ، بحيثُ أنَّهما إذَا أَوقدَا النِّيرانَ لَا تَظهرُ نارُ هَذا لهذا، والعكسُ بالعَكس.

كلُّ هَذا مُحافظةً منه ﷺ على قلبِ المسلِم أن يَتأثَّر بهَديِ المشركِ وعاداتِه وتَقاليدِه وأَخلاقِه، وهَذا مَعناه يؤكِّد قاعِدةً، هَذه القاعدةُ هيَ أنَّ البيئةَ تؤثِّرُ - البِيئة الموبوءَة بالأَجواءِ المادِّيَّة - حَقيقةٌ طبِّيَّةٌ لَا يشكُّ فيها الأَطبَّاءُ سواء كانوا مُسلِمين أو كافِرينَ، أمَّا المسلِمون فأوَّلًا بدِينِهم، وثانيًا بتَجربتِهم أنَّ البِيئةَ تؤثِّر مِن النَّاحيةِ المادِّيَّة يؤيِّدُها الأَحاديثُ النَّبويَّةُ، حَديثُ الطَّاعون مَثلًا: (**إذَا وَقعَ الطَّاعونُ في أَرضٍ وأنتُم فيها فلَا تَخرُجوا مِنها، وإذَا وَقعَ الطَّاعونُ بأَرضٍ لَستُم فيها فلَا تَدخُلوا إلَيها**)[2]، هَذا الحديثُ مِن أَحاديثَ أخرَى يؤكِّد الحَقيقةَ الطِّبِّيَّة الَّتي تُسمَّى بالحَجْر الصِّحِّيِّ، وأنَّ البِيئةَ تؤثِّر بالأَصحَّاء إذَا كانَت مَوبوءةً، كذلكَ

---

(١) رَواه أبو داود (٢٦٤٧) والتِّرمذيُّ (١٦٠٤) والنَّسائيُّ (٤٧٨٠) وصحَّحه الألبانيُّ فيها، والرِّوايةُ الَّتي ذكرَها الشَّيخُ بعدَ هذهِ هيَ في الحديثِ نَفسِه عندَ هؤلاءِ الثَّلاثةِ.

(٢) رَواه البُخاري (٥٧٢٨) ومسلم (٥٨٢٥).

الأمرُ تمامًا مِن النَّاحيةِ الأَخلاقيَّةِ والإيمانيَّةِ، مِن أَجْل ذلكَ قالَ ﷺ ما ذَكَرناه آنفًا مِن الأَحاديثِ، ثمَّ حكَى لنا علَيه الصَّلاةُ والسَّلامُ حَديثًا عن حادِثةٍ وقعَت فيمَن مضَى ممَّن قَبْلنا أَوضحَ لنا تَأثيرَ الأَرضِ المَوبوءةِ بالأَخلاقِ السَّيِّئةِ أنَّها أيضًا تؤثِّر في السَّاكنينَ فيها، فقالَ ﷺ: (كانَ فيمَن قبلَكم رَجلٌ قَتلَ تِسعةً وتِسعينَ نَفسًا، ثمَّ أَرادَ أن يَتوبَ، فسأَلَ عن أَعلَم أَهلِ الأَرضِ فدُلَّ على راهبٍ، يَعني: لم يُدلَّ - لِحكمةٍ أَرادَها اللهُ - على ما سَأل: على عالمٍ، وإنَّما دُلَّ على عابدٍ جاهلٍ، وعلى حسَب ما دُلَّ ذهَب إلَيه فقالَ له: أنا قَتلتُ تِسعةً وتِسعينَ نَفسًا، فهَل لي مِن تَوبةٍ؟ فقالَ له الجاهلُ: قَتلتَ تِسعةً وتِسعينَ نَفسًا وتَسألُ: هَل لكَ تَوبةٌ؟! لَا تَوبةَ لكَ!! فقتَله وأَكملَ به عددَ المائَة)[1]، ويَبدُو مِن سِياقِ القصَّة أنَّ الرَّجلَ كانَ مُخلصًا في تَوبتِه أو في رَغبتِه في التَّوبةِ لكِن يُريدُ الطَّريقَ، فسَأَلَ أيضًا عن عالمٍ فدُلَّ علَيه فأَتاه، فقالَ: (إنِّي قَتلتُ مائةَ نفسٍ بغيرِ حقٍّ، فهَل لي مِن تَوبةٍ؟ قالَ: نعَمْ، ومَن يَحُول بينَك وبينَ التَّوبةِ؟! ولكنَّك - هُنا الشَّاهدُ - بأَرضِ سوءٍ فاخرُجْ منها واذهَبْ إلى القَريةِ الفُلانيَّةِ الصَّالحِ أهلُها، فخرجَ الرَّجلُ مِن القَريةِ الظَّالمِ أَهلُها إلى القَريةِ الصَّالحِ أَهلُها، وفي الطَّريقِ جاءَه الأَجَلُ، فتَنازعَته مَلائكةُ الرَّحمةِ ومَلائكةُ العَذابِ، فأَرسلَ اللهُ إلَيهم رَسولًا يُحكِّمونه بينَهم، فقالَ: انظُروا إلى أيِّ القَريتَين هوَ أَقربُ فأَلحِقوه بأَهلِها، فكانَ أَقربَ إلى القَريةِ الصَّالحِ أَهلُها، فتَولَّت مَوتَه مَلائكةُ الرَّحمةِ)، وللحَديثِ بقيَّةٌ.

---

(١) رَواه البخاري (٣٤٧٠) ومسلم (٧٠٠٨).

ومِن تمامِ الحديثِ السَّابقِ أَقولُ: إنَّه لَا يَخفَى على الحاضِرينَ جميعًا الحقيقةُ الَّتي تَضمَّنَتها تلكَ النُّصوصُ الشَّرعيَّةُ مِن حيثُ إنَّ البيئةَ لها تَأثيرُها، إنْ صالحةً فصلاحًا، وإنْ طالحةً فطلاحًا، ولذلكَ نرَى الشَّبابَ المسلِمَ الَّذي يَعيشُ بُرهةً مِن الزَّمنِ في بِلادِ الكُفرِ والفِسقِ والفُجورِ سَواء ما كانَ منها أُوروبَّا أو أَمريكَا يَعودونَ إلى بلادِ الإسلَام وجماهيرُهم يَحمِلون تَعظيمًا لأولَئكَ الكفَّارِ وعاطفةً مائلةً إلَيهم وتَقديرًا وتَمجيدًا، حتَّى إنَّ الكَثيرَ مِنهم لنَسمعُ بأنَّه يَكادُ يَتبرَّأُ مِن الإسلامِ ومِن المسلِمينَ؛ لأنَّه فُتِن بحَضارتِهم المادِّيَّة، فتَأَثُّرُ النَّاس بالبِيئاتِ هَذه قَضيَّةٌ لَا تَحتاجُ إلى بَحثٍ طَويلٍ، فإنَّ الواقعَ يؤيِّد ذلكَ بالإضافةِ إلى أنَّ الشَّرعَ قد أكَّد ذلكَ بما تقدَّمَ مِن الأدلَّةِ الشَّرعيَّةِ.

وكما يُقالُ: إن أنسَى فلَن أَنسَى القصَّةَ التَّاليةَ الَّتي وقعَت لي، أُتيحَ لي أن أُسافِر سَفرةً إلى بلادِ أُوروبَّا في سَبيلِ الاتِّصالِ بالجاليَات الإسلاميَّةِ هُناكَ وخاصَّةً في برِيطانيَا، فانتهَت رِحلَتي إلى بلدٍ يَبعدُ عن لُندُن نحوَ مائةٍ وعِشرينَ كِيلومِتر، نسِيتُ اسمَها، قيلَ لي بأنَّ هناكَ داعيةً مُسلمًا طيِّبًا صالحًا، فذهَبتُ إلَيه والوقتُ رمَضان، فلمَّا جلَسْنا على مائدةِ الإفطارِ جلَسْنا جلسةً شرعيَّةً: على الأَرضِ، هوَ رجلٌ باكِستانيٌّ أو هِنديٌّ لستُ أَذكرُ، مَنظرُه مُلتَحٍ لكِن لابِس (الجاكِيت والبَنطَلون) وزِيادةً على ذلكَ (الكرافِيت)!

أنا - الحَقيقة - سُررتُ بسَمتِه وبهَديِه وبمَنطقِه - وإلى حدٍّ كَبيرٍ - بفَهمِه الإسلامَ، لكن ما أَعجبَني مَظهرُه غيرُ الإسلاميِّ، ونحنُ على مائدةِ الإفطارِ تَكلَّمتُ على ما يُشبهُ الموضوعَ السَّابقَ فيما يَتعلَّق خاصَّةً بنَهي الشَّارعِ عن تَشبُّه المسلِم بالكافرِ، وفصَّلتُ بشيءٍ مِن التَّفصيلِ أنَّ التَّشبُّهَ أنواعٌ، أَسوَأُها ما يُفعَل لمجرَّد التَّشبُّه بالكفَّارِ وليسَ فيهِ فائدةٌ للمتشبِّه، وضَربتُ على ذلكَ مَثَل (الكرافِيت): العُقدَة هَذه! ومِن طِيب الرَّجلِ أنَّه استَجابَ فورًا ففكَّ العُقدةَ ورَماها أَرضًا، فسُررتُ جدًّا لهذهِ الاستِجابةِ السَّريعةِ.

لكن سُرعانَ ما أَزعجَني باعتِذارِه عن وَضعِه لعُقدتِه، قالَ: نحنُ نَعيشُ هنا في برِيطانيَا، والبرِيطانيُّون يَنظرونَ لإخوانِنا الفِلَسطينيِّين نظرةً خاصَّةً، ومِن عادةِ الفِلَسطينيِّين أنَّهم لَا يضَعون هذهِ (الكرافِيت) ويَفكُّون زِرَّ القَميصِ ويَبقَى الصَّدرُ مُبيَّنًا مِن أعلَى، فهُم يَنقِمون على الفِلَسطينيِّين، ولذلكَ - فهوَ لكي لَا يتشبَّه بالفلَسطينيِّين الَّذينَ يُمقَتون مِن قِبَل البرِيطانيِّين - وَضَع هذه العُقدَةَ، فقُلتُ له: سامحَك اللهُ! لَيتَك سكتَّ عن هَذا التَّعليلِ؛ لأنَّ هَذا التَّعليلَ أَقبحُ مِن الفِعل، يَعني: أنتَ تهتمُّ بنَظرةِ الأُوروبيِّين الكفَّارِ البريطانيِّين لإخوانِنا الفِلَسطينيِّين المسلِمينَ نظرةَ تَحقيرٍ لِمَا بينَهم مِن عِداءٍ للحقِّ مع إخوانِنا الفلَسطينيِّين، فأنتَ تهتمُّ برأيِ هَؤلاءِ الكفَّار، ولذلكَ لَا تُريدُ أن يَنظُروا إليكَ نَظرتَهم إلى إخوانِك المسلِمينَ، هَذا أَكبرُ دَليلٍ على أنَّ البِيئةَ تؤثِّر في السَّاكنينَ فيها والعايِشينَ معَها، لذلكَ نهَى الرَّسولُ ﷺ عن مُعاشرةِ الكفَّار؛ لأنَّ ظاهرَهم يؤثِّر في باطنِ المسلِمينَ، ويؤثِّر في أَخلاقِهم وفي مَفاهيمِهم...

ومنه نَتوصَّل إلى التَّنبيهِ إلى أمرٍ يقعُ فيه بعضُ الشَّبابِ البَعيدِ كلَّ البُعدِ عن الإسلامِ، حِينَما نَراه لَا يُصلِّي ولَا يَصومُ ولَا يَأتي بشيءٍ مِن الأَركانِ الإسلاميَّةِ، فإذَا ذكِّر بذلكَ قالَ: (يا أخِي! العِبرةُ ليسَت بالصَّلاةِ، وإنَّما العِبرةُ بما في القلبِ)!! وقد يورِدُ بهذِه المناسبةِ حَديثًا لَا أَصلَ له: (اثنانِ لَا تَقرَبْهما: الشِّركُ بالله، والإضرارُ بالنَّاس)، فهوَ يقولُ لك: (أنا مُعامَلتي مع النَّاس: لَا أَغشُّ ولَا أَسرقُ ولَا.. انظُرْ الرَّجلَ الفلانيَّ لَا يصلِّي إلَّا بالصَّفِّ الأوَّلِ ولحِيتُه كَذا.. لكنَّه غشَّاشٌ، لكن كَذا..) إلى آخِره، فهَذا عذرٌ أَقبحُ مِن ذنبٍ؛ لأنَّنا نَقولُ لِمثل هَذا المنحرفِ: إذَا كانَ فُلانٌ يصلِّي ولكِن يَغشُّ، فأنتَ خُذْ خيرَه ودَعْ شرَّه، وخُذْ خيرَه وهوَ يصلِّي فالصَّلاةُ خيرٌ، هوَ يغشُّ وأنتَ لَا تغشُّ، فظُلَّ على أَمانتِك للنَّاس وعدَمِ غشِّك، لكن لَا تَنسَ حقَّ الله، وعلَيك أن تَعبدَه وأن تَخضَع له في كلِّ يومٍ خمسَ مرَّاتٍ، إلى آخرِه».

٤- واستدلَّ أيضًا بحديثِ أبي ثَعلبةَ الخُشَنيِّ قالَ: «كانَ النَّاسُ إذَا نزَلَ رَسولُ الله ﷺ مَنزلًا فعَسْكرَ تفرَّقوا عنه في الشِّعابِ والأَوديةِ، فقامَ فِيهم فقالَ: **إنَّ تَفرُّقَكم في الشِّعابِ والأَوديةِ إنَّما ذَلكُم مِن الشَّيطانِ**، قالَ: فكانُوا بعدَ ذلكَ إذَا نزَلُوا انضمَّ بَعضُهم إلى بعضٍ، حتَّى إنَّك لَتقولُ: لَو بَسطتُ علَيهم كِساءً لَعمَّهُم، أو نَحوَ ذلكَ».

قالَ رَحِمَهُ اللهُ مُخاطِبًا الحُضورَ وهُم متفرِّقون في مَجلسِ العِلم: «فما رَأْيُكم وأنتُم جالِسون هُنا في سَطحٍ ممهَّدٍ مُسهَّلٍ، فهَذا التَّفرُّق ليسَ مِن سنَّة الإسلَام، ولذَلك فكلَّما تَضامَّت الحَلْقةُ كلَّما كانَت مَشمولةً برَحمةِ الله عَزَّ وَجَلَّ وفَضلِه، وكَثيرٌ مِن النَّاس يَجهَلون أنَّ هُناك ارتِباطًا وَثيقًا جدًّا بينَ ظاهرِ الإنسانِ وباطنِه، وهَذا الارتِباطُ الوَثيقُ ممَّا تَوافرَت كَثيرٌ مِن أَحاديثِ الرَّسولِ ﷺ في الدلالةِ علَيها، ولعلَّكم تَعْلمون العِبارةَ الَّتي ذُكرَت في كَثيرٍ من الكتُب: (الظَّاهرُ عُنوانُ الباطنِ)، وهَذا الَّذي أَشارَ إلَيه الشَّاعرُ قَديمًا حينَ قالَ:

ومَهْما تَكُن عندَ امرِئٍ مِن خَليقَةٍ ... وإن خالَها تَخفَى على النَّاس تُعْلَمِ

فلا بدَّ مِن أن يكونَ هُناك ارتِباطٌ بين الظَّاهرِ وبين الباطنِ، لذلكَ عُنِيَ رَسولُ الله ﷺ عِنايةً بالغةً في إصلاحِ ظَواهرِ المسلِمينَ فضلًا عن باطنِهم، فهوَ عَلَيهِ السَّلَامُ كما جاءَ بإصلاحِ القُلوبِ والبَواطنِ كذلكَ جاءَ لإصلاحِ الأَجسادِ والظَّواهرِ معًا.

فليسَ الأمرُ فقَط كما يَقولُ كَثيرٌ مِن النَّاس: (العِبرةُ بما في الباطنِ)، نعَمْ العِبرةُ بما في الباطنِ، لكن ذَلك لَا يَستلزِم عدمَ العِنايةِ بالظَّاهرِ، ولهذا قالَ علَيه الصَّلاةُ والسَّلامُ حِينَما رأَى ذلكَ الرَّجلَ أو سمِعَ ذلكَ الرَّجلَ يقولُ والرَّسولُ عَلَيهِ السَّلَامُ يَعِظ النَّاسَ على طاعةِ الله واتِّباعِ كِتابِه، قامَ ذلكَ الرَّجلُ ليَقولَ له: (ما شاءَ اللهُ وشئتَ يا رَسولَ الله! فغضِب ﷺ غضبًا شَديدًا، وقالَ: **قُلْ ما شاءَ اللهُ وَحدَه**)[1].

(١) رَواه أحمد (١٨٣٩) وصحَّحه الألبانيُّ في «السِّلسلَة الصَّحيحة» (١٣٩).

هَذا لفظٌ ظاهرٌ ظهرَ مِن لِسانِ ذلكَ الصَّحابيِّ خطأً منه، لكنَّ هَذا الظَّاهرَ خلافُ باطنِه يَقينًا؛ لأنَّ باطنَه كان عامرًا بالإيمانِ بالله ورَسولِه ﷺ، ولكنَّه لَمَّا أَخطأَ في اللَّفظِ لم يَسكُت الرَّسولُ ﷺ عنه، بل أَصلحَ له عِبارتَه وقالَ له: (**قُلْ ما شاءَ اللهُ وحدَه**).

فرسولُ الله ﷺ يَعلمُ يَقينًا أنَّ هَذا الرَّجلَ ما قصَد ما دلَّ علَيه لفظُه، لفظُه دلَّ على أنَّه جَعلَ الرَّسولَ شَريكًا مع الله في إرادتِه تَبارَك وتَعالَى، لكنَّ هَذا الصَّحابيَّ يَعلمُ أنَّ مَشيئةَ الله تَبارَكَ وتَعالَى قَبلَ كلِّ شيءٍ وفوقَ كلِّ شيءٍ؛ لأَنَّه يَقرأُ في القُرآنِ الكَريمِ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، ولَا أحدَ يظنُّ أنَّ ذلكَ الصَّحابيَّ يَجهلُ هَذه الحَقيقةَ، لكن أَخطأَه لِسانُه، لكنَّ الرَّسولَ ﷺ أَصلحَه إيَّاه، ودَلَّهُ على ما يقولُ، قالَ له: (**قُلْ: ما شاءَ اللهُ وَحدَه**)، وفي رِوايةٍ أُخرَى: (**ما شاءَ اللهُ ثمَّ شِئتَ**)[1].

والأَحاديثُ في هَذا الصَّددِ كَثيرةٌ، ولَستُ الآن في صددِ بَيانِها؛ لأنَّها كلمةٌ حولَ التَّجمُّع في المجلسِ وعدمِ التَّفرُّق فيه، ولكنِّي قبلَ أن أُنهيَها أرَى نَفسي مُضطرًّا أن أُذكِّر بحَديثٍ آخرَ فقَط؛ لِما فيه مِن الرَّوعةِ في اهتِمام الرَّسولِ صَلواتُ الله وسَلامُه علَيه في إصلاحِ تَعابيرِ النَّاس وظَواهرِهم، ألَا وهوَ قولُه ﷺ: (**لَا يَقولَنَّ أحدُكم: خَبُثَت نَفْسي، ولكِن لَقِسَت**)[2] ما معنَى (**لَقِسَت**)؟ في

---

(١) رَواه النَّسائيُّ (٣٧٧٣) وابنُ ماجه (٢١١٧) وصحَّحه الألبانيُّ فيهما.

(٢) رَواه البخاري (٦١٧٩) ومُسلم (٥٩٤٠).

اللُّغةِ يُساوِي: خَبُثَت، لكنَّ كَلمةَ (خَبثَت) خَبيثةٌ، فما أرادَها الرَّسولُ ﷺ أن يَتلفَّظ بها المسلمُ حينَما يجدُ في نَفسِه شيئًا مِن هَذه الخَباثةِ، وإنَّما عدَل به عنها إلى لفظَةِ (لَقِسَت)، وهَذه اللَّفظَةُ - بطَبيعةِ الحالِ وأنتُم عربٌ - ما تَعرِفونها، لكنَّ سيِّدَ العربِ والعَجمِ هوَ علَّمَكُموها، وقالَ: (**لَا يَقولَنَّ أَحدُكم: خَبُثَت نفسي، ولكِن لَقِسَت**).

هَذا في تَأدُّب المسلمِ مع نفسِه لأنَّه مُسلمٌ، فما بالُك في التَّأدُّب مع الله ومع نَبيِّه علَيه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فبالأحرَى أن يَتأدَّب المسلمُ مع الله ثمَّ مع رَسولِه ﷺ، فلَا يَأتي بعِبارةٍ قد تمسُّ مَقامَ النُّبوَّة أو مَقامَ الرِّسالةِ».

ولعلَّه مِن هَذا القَبيلِ ما رَواه البزَّار (ص ٢٤٢ - زوائده) - وصحَّحه الألبانيُّ في «السِّلسلَة الصَّحيحَة» (١١٨٦) و(٤٠٣٤) - عن عبدِ الله بن بُريدَة عن أبِيه قالَ: قالَ رَسولُ الله ﷺ: «**إذَا أَبْرَدتُم إليَّ بَرِيدًا فابعَثوه حسَنَ الوجهِ حسَنَ الاسم**»، وهوَ - وإن كانَ مِن بابِ الفَأل كما ذكرَ بعضُ أَهلِ العِلم - فهوَ مِن أدلَّة تأثيرِ الظَّاهرِ على الباطنِ، واليومَ تَختارُ الأَنظمةُ المعاصِرةُ مِن سُفرائِها مَن هوَ على هَذَين الوصفَين لأنَّه أَدعَى لنَجاحِ العلاقاتِ الدِّبلوماسيَّةِ، واللهُ أَعلمُ.

وعندَهم أيضًا ما يدلُّ على هَذه القاعدةِ ألَا وهوَ حِرصُهم على أن يَكونَ للعَسكريِّ لِباسٌ خاصٌّ؛ كلَّما لبسَه أَعطاه عَنجهيَّةً تمكِّنه مِن أَداءِ مهمَّتِه بنَوعِ استِعلاءٍ على غيرِه، قالَ ابنُ تَيمية رَحِمَهُ اللهُ في «اقتضاء الصِّراطِ المستَقيم» (ص ١١): «المشارَكة في الهَدْي الظَّاهرِ تُورِث تَناسبًا وتَشاكلًا بين المتَشابِهين يَقودُ إلى مُوافقةِ

ما في الأَخلاقِ والأَعمالِ، وهَذا أمرٌ محسوسٌ؛ فإنَّ اللَّابسَ ثِيابَ أهلِ العِلم يجِدُ مِن نَفسِه نوعَ انضِمامٍ إلَيهم، واللَّابسَ لثيابِ الجندِ المقاتِلة مثلًا يجِدُ مِن نَفسِه نوعَ تَخلُّقٍ بأَخلاقِهم، ويَصيرُ طَبعُه مُتقاضيًا لذَلك، إلَّا أن يَمنعَه مانعٌ».

وقد أمرَ اللهُ المرأةَ بضَربِ الحِجابِ بينَها وبينَ الرِّجالِ - وهوَ ستارٌ ظاهريٌّ - وبيَّن أنَّ ذلكَ مؤثِّرٌ في طَهارةِ القُلوبِ - وهيَ الطَّهارةُ الباطنيَّةُ - فقالَ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

كما نهَى المرأةَ عن الخُضوعِ بالقَولِ الَّذي هوَ عملٌ ظاهريٌّ؛ لأنَّ له تأثيرًا باطنيًّا في القُلوبِ المريضةِ فقالَ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وقد أمرَ اللهُ ﷻ المرأةَ بالجِلبابِ كي لَا يَتجرَّأ علَيها السُّفهاءُ؛ لأنَّ هَذا السِّتارَ الظَّاهريَّ يورِّث هيبةً واحتِرامًا في النُّفوس المؤذِيةِ، فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

ولذَلك فقد شبَّه بعضُ أهلِ العِلم علاقةَ الظَّاهرِ بالباطنِ بعلاقةِ قشرِ الفاكهةِ بلُبِّها؛ ففاكهةٌ ذهبَ لبُّها وبقيَ قِشرُها عدمٌ، وفاكهةٌ ذهَب قِشرُها وبقيَ لبُّها يُسرِعُ إلَيها الفَناءُ، وهَذا بابٌ واسعٌ، وفيما ذُكر مَقنعٌ إن شاءَ اللهُ.

صَلاحُ الباطِنِ أَعظمُ من صَلاحِ الظَّاهِرِ

صلاحُ الباطنِ والظَّاهرِ مَطلوبانِ جميعًا كما مرَّ، لكنَّ صَلاحَ الباطنِ أَعظمُ المطلوبَين، بل هوَ الأَصلُ والأَساسُ، ألم ترَ أنَّ الأَعمالَ الصَّالحةَ كلَّها لَا تَنفعُ صاحبَها يومَ القِيامةِ إلَّا إن اقترنَ بها أَساسُها الَّذي هوَ الإيمانُ، كما قالَ تعالَى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

ولذلكَ أَخبرَ أنَّ عمَلَ مَن لم يؤمِن يَصيرُ هَباءً لَا قيمةَ له، فقالَ: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وسببُه الكفرُ الَّذي هوَ أَسوأُ شيءٍ تُبطنُه القُلوبُ؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ [النور: ٣٩]، وقالَ: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقالَ: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

والأَغربُ في هَذا أنَّ أَكثرَ الخَلقِ لَا يُعنَون بإصلاحِ ظَواهِرِهم الإصلاحَ الَّذي يَطلبُه الشَّرعُ بسببِ حِرصِهم على التَّزيُّن للخَلقِ، كما هوَ الشَّأنُ في إسبالِ الثِّيابِ لدَى الرِّجالِ مع أنَّ النَّبيَّ ﷺ شدَّد فيه بما لَا يَخفَى، بمِثلِ ما رَواه مسلم (٢٠٨) عن أبي ذرٍّ عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**ثَلاثةٌ لَا يُكلِّمُهم اللهُ يومَ القِيامةِ ولَا يَنظرُ إلَيهم ولَا يُزكِّيهم ولَهم عَذابٌ أَليمٌ**»، قالَ: فقرَأَها رَسولُ الله ﷺ ثَلاثَ

مِرارٍ، قالَ أبو ذرٍّ: خابُوا وخَسِروا! مَن هُم يَا رَسولَ الله؟ قالَ: **المُسْبِلُ، والمَنَّانُ، والمُنَفِّقُ سِلعتَه بالحلِفِ الكاذِبِ**»، وبمِثل ما رَواه النَّسائيُّ (٥٣٣١) - وصحَّحه الألبانيُّ - عن أبي هُريرةَ عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**ما أَسفلَ مِن الكَعبَين مِن الإزارِ ففي النَّارِ**»، مع هَذا فإنَّهم يَأبَون إلَّا الإسبالَ مِن أَجْل الظُّهورِ عندَ النَّاس بمَظهرٍ يُرضِيهم! ويُحاوِلونَ إراحةَ ضَمائِرهم ببَعض التَّأويلاتِ في ذلكَ بما لَا يَنفعُهم يومَ الدِّين، وكما هوَ الشَّأنُ في تبرُّج النِّساءِ في ثيابِهنَّ، فإنَّ اللهَ اختارَ لهنَّ السترَ ويَأبَين إلَّا العُري، ثمَّ يَقولونَ: الإيمانُ في القَلبِ!! ومِن التَّناقُضاتِ الواضحةِ أنَّ أَكثرَ المُتهاوِناتِ في الحِجابِ يَعتذِرْن بأنَّ إصلاحَ الباطنِ أولَى من إصلاَح الظَّاهرِ بالحِجابِ، وأنَّ العِبرةَ بجَمالِ القُلوبِ وصَفائِها لَا جمال الوُجوهِ والثِّيابِ! وهيَ كَلمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطلٌ؛ لأنَّهنَّ يَقُلْنها بأَلسنتِهنَّ ويُخالِفْنها بأَعمالهنَّ؛ ألا ترَى أنَّ إحداهنَّ تَجلسُ أَمامَ المِرآةِ أَوقاتًا طَويلةً لَا تُفارِقُها حتَّى تُشبعَ نَهمتَها الظَّاهرةَ بمَوادِّ التَّجميل والتَّدلِيس؟! فأينَ قَولُها: العِبرةُ بجَمالِ القُلوبِ؟! ولقَد وجَدْنا كلَّ مَن يَرفضُ إصلاحَ ظاهرِه بما أمَرَت به الشَّريعةُ - مُتذرِّعًا بهَذِهِ الذَّريعةِ الكاذبةِ - أَكثرَ النَّاس غلوًّا في الاعتِناءِ بشَهوةِ الثِّيابِ والجَمالِ الظَّاهريِّ؛ أَلَا ترَى أنَّه لَا يَخرجُ للنَّاس حتَّى يرَى أنَّه في أَليَقِ صورةٍ ظاهريًّا؟! ممَّا يُفصِحُ عن خَبايَا أَنفسِهم، وأنَّ هَذا التَّنافرَ بينَ أَقوالِهم وأَفعالِهم ما هوَ إلَّا دَليلٌ صارخٌ على أنَّهم اختفَوا خلفَ إصلاح بَواطِنِهم تنَصُّلًا من الشَّرائعِ الظَّاهرةِ، والتَّنصُّل من أَحكام الشَّريعةِ أَمارةٌ واضحةٌ على فَسادِ قُلوبِهم، فأينَ الدَّعاوَى من الحَقائقِ؟!

ولذَلكَ امتنَّ اللهُ على عِبادِه بإنزالِه علَيهم اللِّبَاسَ الظَّاهريَّ، لكن نبَّهَهم على ما هوَ خيرٌ منه كي لَا يُغفِلوه، ألَا وهوَ اللِّباسُ الباطنيُّ لِباسُ التَّقوَى فقالَ: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٦]، ولذَلك علَّمَنا رَسولُ الله ﷺ أن نَدعوَ ربَّنا أن يَرزقَنا خَشيتَه في الغَيبِ والشَّهادةِ، فقد روَى النَّسائيُّ (١٣٠٦) - وصحَّحَه الألبانيُّ - عن قَيسِ بنِ عُبَادٍ قالَ: «صلَّى عمَّارُ بنُ ياسرٍ بالقَومِ صَلاةً أَخفَّها، فكأَنَّهم أَنكَروها، فقالَ: أَلَمْ أُتمَّ الرُّكوعَ والسُّجودَ؟ قالوا: بلَى، قالَ: أمَا إنِّي دعَوتُ فيها بِدُعاءٍ كانَ النَّبيُّ ﷺ يدعُو بهِ: اللَّهمَّ بعِلمِك الغَيبَ وقُدرتِكَ على الخَلقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمتَ الحَياةَ خيرًا لي، وتوَفَّني إذَا عَلِمتَ الوَفاةَ خيرًا لي، **وأَسأَلُك خَشيتَك في الغَيبِ والشَّهادةِ**، وكَلمةَ الإخلاصِ في الرِّضا والغضَبِ، وأَسأَلُك نَعيمًا لَا ينفَدُ، وقُرَّةَ عَينٍ لَا تَنقطِعُ، وأَسأَلُكَ الرِّضاءَ بالقَضاءِ، وبَرْدَ العَيشِ بعدَ الموتِ، ولذَّةَ النَّظرِ إلى وَجهِك، والشَّوقَ إلى لِقائِك، وأَعوذُ بكَ مِن ضرَّاءَ مُضرَّةٍ، وفِتنةٍ مُضِلَّةٍ، **اللَّهمَّ زَيِّنَّا بزِينةِ الإيمانِ**، واجعَلْنا هُداةً مُهتدِينَ»، والشَّاهدُ منه طلبُ الخَشيةِ في الغَيبِ والشَّهادةِ، ثمَّ ختمَه بالتَّنويهِ بأَعظمِ المطلوبَين: ألَا وهوَ زِينةُ الإيمانِ؛ لأنَّه أجمَلُ مِن زِينةِ الظَّاهرِ.

وبهَذا عرَّف بَعضُ أهلِ العِلم الإخلاصَ الصَّادقَ، قالَ ابنُ القيِّم في «مَدارج السَّالكين» (٢/ ٩١): «وقيلَ: الإخلاصُ استِواءُ أَعمالِ العبدِ في الظَّاهرِ والباطنِ، والرِّياءُ أن يَكونَ ظاهرُه خيرًا مِن باطنِه، والصِّدقُ في الإخلَاصِ **أن يَكونَ باطنُه أَعمرَ مِن ظاهرِه**، وقيلَ: الإخلَاصُ نِسيانُ رُؤيةِ الخَلقِ بدَوامِ النَّظرِ إلى

الخالقِ، ومَن تزيَّن للنَّاس بما ليسَ فيه سَقطَ مِن عَين الله».

ولهَذا كانَ أَعظمُ عَطاءِ الله ومَنعِه على ما في القُلوبِ، فقد قالَ اللهُ تعالَى: ﴿لَقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨]، وقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠]، وقالَ سُبحانَه: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقالَ مُخبرًا عن نوحٍ ﷺ أنَّه قالَ لقَومِه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [هود: ٣١]، فجمعَت هَذه الآيةُ بينَ البَراءةِ من اطِّلاعِ البشرِ على ما في القُلوبِ وبين الإخبارِ بأنَّ اللهَ يُؤتِي النَّاسَ الخيرَ بحسَب ما في قُلوبِهم من خيرٍ.

فكانَ مَدارُ الصَّلاحِ الأكبرِ والفَسادِ الأكبرِ على القلبِ، والظَّاهرُ تابعٌ له، ولذلكَ قالَ رَسولُ الله ﷺ: «**ألَا وإنَّ في الجسدِ مُضغةً إذَا صلَحَت صلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذَا فسَدَت فسَدَ الجسدُ كلُّه، ألَا وهيَ القلبُ**» رواه البخاري (٥٢) ومسلم (٤١٠١)، ولذَلك قالَ ابنُ تَيمية رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوَى» (٣/ ٢٧٧): «إذَا حسُنَت السَّرائرُ أَصلحَ اللهُ الظَّواهرَ؛ فإنَّ اللهَ مع الَّذينَ اتَّقَوا والَّذينَ هُم مُحسِنونَ، وهَذهِ قَضيَّةٌ كَبيرةٌ كلَّما كانَت تَزدادُ ظُهورًا تَزدادُ انتِشارًا».

وقد عظُم جَزاءُ أَصحابِ رَسولِ الله ﷺ في هَذه الدُّنيَا مع ما هوَ مدَّخرٌ لهم يومَ القِيامةِ بما وقرَ في قُلوبِهم مِن إخلاصٍ وصدقٍ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨-١٩]، فتأمَّل قولَه في أَهلِ الشِّركِ: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: ٧٠]، وتأمَّلْ قولَه في أَهلِ الإيمانِ: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾؛ فإنَّه تعليلٌ وسببٌ لجميعِ ما نالُوه عندَ الله مِن رِضاه - وما أَعظمَه! - ومِن إنزالِ السَّكينةِ علَيهم وإثابتِهم بالفَتح القَريبِ والمغانم الكَثيرةِ، بل كانَ مِن جَوائزِه لهم أن كفَّ أَيديَ النَّاس عنهم وهَداهم صِراطًا مُستقيمًا، كما قالَ ﷻ: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٠ – ٢٢]، قالَ البغويُّ في «معالِمِ التَّنزيل» (٤/ ٢٢٩): «ويَعلَموا أنَّ اللهَ هوَ المُتولِّي حِياطتَهم وحِراستَهم في مَشهدِهم ومَغيبِهم».

والعَجيبُ في هَذا أنَّ اللهَ لم يعلِّلْ هذا كلَّه بأَكثرَ من قولِه: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾! قالَ البغويُّ أيضًا (٤/ ٢٢٨): «مِن الصِّدقِ والوَفاءِ»، وهما أَوصافُ المتَّقينَ ولذلكَ أَخبرَ عنهم أنَّهم كانُوا أهلًا لذلكَ بقَولِه: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦]، وزادَهم الَّذي لَا يَنطقُ عن الهوَى فقالَ ﷺ: «**لَا يَدخلُ النَّارَ إن شاءَ اللهُ مِن أَصحابِ الشَّجرةِ**

أَحدُ الَّذينَ بايَعوا تحتَها» رواه مسلم (٦٤٨٨).

ثمَّ أخبرَ اللهُ تعالَى عمَّا ادَّخرَه لهم من مَغفرةٍ وأَجرٍ عَظيمٍ عندَه وبيَّنَ أنَّ ذلكَ كانَ بسببِ جمعِهم بين الصَّلاحَين الباطنِ والظَّاهرِ فقالَ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقد نبَّه على هَذا ابنُ كَثيرٍ في تَفسيرِه للسُّورةِ عندَ قولِه تعالَى فيها: ﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا﴾ [الفتح: ١٣] فقالَ: «أي مَن لَمْ يُخلِص العملَ في الظَّاهرِ والباطِنِ لله فإنَّ اللهَ تعالَى سيُعذِّبُه في السَّعيرِ وإن أَظهرَ للنَّاسِ مَا يَعتقِدونَ خِلافَ ما هوَ علَيه في نفسِ الأمرِ».

سرُّ ارتباطِ باطِنِ الإثمِ بسوءِ الخاتِمةِ وخوفِ السَّلفِ من ذلكَ:

وفي المقابِلِ فقد يَعملُ الرَّجلُ العملَ الصَّالحَ في ظاهِرِه لكنَّه يُحرَم القَبولَ بسَببِ غشِّ الباطنِ، ومِن هَذه الأَعمالِ الفاضلةِ العَظيمةِ الجِهادُ في سَبيلِ الله، روَى البخاري (٢٨٩٨) ومُسلم (٢٢١) عن سَهلِ بن سعدٍ السَّاعديِّ رضي الله عنه «أنَّ رسولَ الله ﷺ التقَى هوَ والمُشركونَ فَاقتتَلُوا، فلمَّا مالَ رسولُ الله ﷺ إلى عَسكرِه، ومالَ الآخَرونَ إلى عَسكرِهم، وفي أَصحابِ رسولِ الله ﷺ رجلٌ لَا يَدَعُ لهم شاذَّةً ولَافاذَّةً إلَّا اتَّبعَها يَضربُها بسَيفِه، فقالَ: مَا أَجْزأَ منَّا اليومَ أحدٌ كما أَجْزأَ فُلانٌ! فقالَ رَسولُ الله ﷺ: **أمَا إنَّه مِن أهلِ النَّارِ!** فقالَ رجلٌ مِن القومِ: أَنا صاحبُه، قالَ: فخَرجَ معَه كلَّما وقفَ وقفَ معَه، وإذَا أَسرعَ أَسرعَ معَه، قالَ: فجُرِح الرَّجلُ جُرحًا شَديدًا، فَاستعجلَ الموتَ فوَضعَ نَصْلَ سَيفِه بالأَرضِ وذُبابَه بينَ ثَديَيه ثمَّ تَحاملَ على سَيفِه فقَتلَ نَفسَه. فخَرجَ الرَّجلُ إلى رَسولِ الله ﷺ فقالَ: أَشهدُ أنَّك رَسولُ الله! قالَ: **ومَا ذاكَ؟** قالَ: الرَّجلُ الَّذي ذَكرتَ آنفًا أنَّه مِن أَهلِ النَّارِ فأَعظمَ النَّاسُ ذلكَ، فقُلتُ: أَنا لَكم به، فخَرجتُ في طَلبِه، ثمَّ جُرحَ جُرحًا شَديدًا فَاستعجلَ الموتَ فوَضعَ نَصلَ سَيفِه في الأَرضِ وذُبابَه بينَ ثَديَيه ثمَّ تَحاملَ علَيه فقَتلَ نَفسَه، فقالَ رَسولُ الله ﷺ عندَ ذلكَ: **إنَّ الرَّجلَ لَيَعملُ عملَ أهلِ الجنَّةِ فيما يبدُو للنَّاس وهوَ مِن أهلِ النَّارِ، وإنَّ الرَّجلَ لَيَعملُ عملَ أهلِ النَّارِ فيما يَبدُو للنَّاس وهوَ مِن أهلِ الجنَّةِ**».

فهَذا رجلٌ مُقبِلٌ في ظاهرِه على القِتالِ في سَبيلِ الله قد حُرِم التَّوفيقَ فماتَ على خاتمةٍ سيِّئةٍ لِما علِمَ اللهُ مِن فَسادٍ في قَلبِه؛ لأنَّه دخلَ المعركةَ ليُقالَ مُجاهد! قالَ ابن حجَرٍ في «الفتح» (٤٨٧): «وهوَ محمولٌ على المنافقِ والمُرائي»، وقالَ النَّووي في «شرح صحيح مسلِم» (٢/١٢٦): «ففيهِ التَّحذيرُ مِن الاغتِرارِ بالأَعمالِ، وأنَّه يَنبغِي للعبدِ أن لَا يتَّكلَ علَيها ولَا يَركنَ إلَيها مَخافةً مِن انقلابِ الحالِ للقدَرِ السَّابقِ».

وما علِمَه النَّبيُّ ﷺ من حالِ هَذا المقاتِل أمرٌ غيبيٌّ لم يُطلِع اللهُ علَيه أحدًا إلَّا نبيَّه ﷺ، كما قالَ سُبحانَه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، والقدَرُ السَّابقُ عدلٌ من الله وليسَ عَشوائيَّةً؛ لأنَّ اللهَ أَعدلُ من أن يُعذِّب عبدَه المؤمنَ العاملَ الصَّالِحات، قالَ اللهُ ﷻ: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، فلَو أنَّ اللهَ عذَّب عبدَه العاملَ فلِما في نفسِ العبدِ من سَريرةٍ سيِّئةٍ، قالَ بِلالُ بنُ سعدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَا تكُنْ وليًّا لله ﷻ في العلَانيَةِ، وعدُوَّه في السِّرِّ» رواه الفِريابي في «صفة النِّفاق والمنافِقين» (٨٥) بإسنادٍ صَحيحٍ، وروَى ابنُ أبي شَيبة (٣٦١٣٥) ووَكيعٌ في «الزُّهد» (٥١٧) وهنَّادٌ في «الزُّهد» (٥٢٨) وابنُ أبِي الدُّنيا في «الإخلاص والنيَّة» (٢٢) بإسنادٍ صَحيحٍ عن عَون بن عبدِ الله قالَ: «كانَ أَهلُ الخيرِ إذَا التقَوا يُوصِي بَعضُهم بعضًا بثلاثٍ، وإذَا غابُوا كَتبَ بَعضُهم إلى بَعضٍ: مَن عَملَ لآخِرتِه كفَاه اللهُ دُنيَاه، ومَن أَصلحَ فيما بينَه وبينَ الله كفَاه اللهُ النَّاسَ، ومَن أَصلحَ سَريرتَه أَصلحَ اللهُ عَلانيتَه»، والجملةُ

الأَخيرةُ هيَ محلُّ الشَّاهِدِ، ونقلَ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في «مَدارِج السَّالكين» (٢/ ٦٦) قَولَ أبي حَفص لأبي عُثمانَ النَّيسابُوري: «إذَا جَلستَ للنَّاس فكُنْ واعظًا لقَلبِك ولنَفسِك ولَا يَغرنَّك اجتِماعُهم علَيكَ؛ فإنَّهم يُراقِبون ظَاهرَك واللهُ يُراقبُ باطِنَك»، ثمَّ قالَ: «مُراقبة الله تَعالى في الخواطِر سببٌ لِحفظِها في حَركاتِ الظَّواهرِ؛ فمَن راقَبَ اللهَ في سرِّه حَفظَه اللهُ في حَركاتِه في سرِّه وعَلانيتِه، والمراقَبةُ هيَ التَّعبُّد باسمِه الرَّقيبِ الحَفيظِ العَليمِ السَّميعِ البَصيرِ، فمَن عَقلَ هَذه الأَسماءَ وتعبَّد بمُقتَضاها حصَلَت له المراقَبةُ»؛ لأنَّ اللهَ يَقولُ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، ويَقولُ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾[العلق: ١٤]، ويَقولُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾[الأحزاب: ٥٢]، ويَقولُ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الحديد: ٤]، ويَقولُ: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، قالَ محمَّد بنُ أبي عائشةَ: «لَا تَكُن ذا وَجهَين وذا لِسانَين: تُظهِرُ للنَّاسِ أنَّك تُحبُّ اللهَ ويَحمَدونَك وقَلبُك فاجِرٌ» رواه البيهقي في «الشُّعَب» (٦٥٥٠)، ورَواه ابنُ أبي الدُّنيَا في «الإخلاص والنِّيَّة» (٢٦) لكن عن بِلال بنِ سَعدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

ولذَلكَ كانَ الصَّالِحونَ أَخشَى ما يَخشَون على أَنفسِهم سوءُ الخاتِمةِ، وكانُوا - مع شدَّةِ مُراقبتِهم أَنفسَهم - لَا يَغترُّون بصلاحِ ظَواهِرهم ولَا يَكترِثون بحُسنِ ثَناءِ النَّاس علَيهم؛ لأنَّهم يَخافونَ ألَّا تَصْدق سَريرتُهم فيُعاقَبون على ذلكَ عندَ ساعةِ الحقِّ كما عوقِب ذلكَ المقاتِلُ، قالَ اللهُ تَعَالَى مُخبرًا عن سحرَةِ فِرعَون الَّذينَ غلَبَتهم حجَّةُ موسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأَقنعَتهم أنَّهم قالُوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، قالُوا هَذا بعدَ أن هدَّدَهم فِرعَونُ - في

جبَروتِه وكِبريائِه - بأشدِّ عُقوبةٍ كما قالَ تعالَى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾ [الأعراف: ١٢٣- ١٢٦]، هَذا إيمانُهم الَّذي انتقَلوا إلَيه بعدَ أن كانُوا أشدَّ النَّاس رغبةً في جَوائزِ فِرعَون كما قالَ تعالَى: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٣-١١٤]، والشَّاهدُ في كونِهم انقلَبوا من طلَّابِ دُنيَا ولو بمُعاندةِ كليمِ الله ﷺ إلى طلَّابِ آخرةٍ ولو بمُعاندةِ أَطغَى عدوٍّ لله في زمنِهم همُّهم الأكبرُ الصَّبرُ في الدُّنيا وحسنُ الخاتِمةِ عندَ مُفارقتِها: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾.

وقالَ تعالَى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩٤]، والشَّاهدُ أنَّ اللهَ أَخبرَ عن أُولِي الأَلبابِ هَؤلاءِ أنَّهم لم يُفوِّتوا على أَنفسِهم حالةً من حَياتِهم إلَّا كانُوا فيها له طائعِينَ، فهُم بينَ ذِكرٍ لله وفِكرٍ في خَلقِ الله، وقد عمَروا كلَّ حالاتِهم الثَّلاثِ

الَّتي لَا رابعَ لها بذَلكَ، سَواء كانُوا قِيامًا أو قُعودًا أو على جُنوبِهم مُضطجِعِين، مع هَذا الحِرص التَّامِّ على إرضاءِ الله في جَميعِ حالَاتِهم فلم يغرَّهم ذلكَ مِن أَنفسِهم، بل أَهمَّهم الحالةُ الأَخيرةُ من حَياتِهم وهيَ أن يُميتَهم اللهُ مع بالأَبرارِ وكأنَّهم كانُوا مع الغافلِينَ الأَشرارِ، فقالُوا: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وقد وصفَهم بأُولي الألبابِ في خاتمةِ هَذه السُّورةِ كما وصفَهم بذلكَ عندَ بدايتِها فقالَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]، لكن تدبَّرْ كيفَ كانَ الدُّعاءُ متَّحدًا، فكما طلَبوا في خاتمتِها الثَّباتَ حتَّى يتوفَّاهم اللهُ مع الأَبرارِ فقَد ذكرَ اللهُ عنهم في بِدايتِها أنَّ ذلكَ هوَ مَطلوبُهم فقالَ حِكايةً عنهم أنَّهم قالُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾[آل عمران: ٨]، وهَذا هوَ الثَّباتُ، ونُكتةُ البحثِ أنَّ القومَ لم يُضيِّعوا لحظةً من عمرِهم إلَّا كانُوا فيها مُطيعِين، فلم يَغرَّهم ذلكَ بل خافُوا على أَنفسِهم أَلَّا يُتوَفَّوا مع الصَّالحِين؛ لأنَّ الاعتِبارَ الأَكبرَ لباطنِهم هَل وافقَ ظاهرَهم الحسنَ في حالاتِهم الثَّلاثِ؟ واللهُ وحدَه الموفِّق.

وحتَّى الرُّسلُ الكِرامُ يَدعونَ ربَّهم بذلكَ، قالَ يوسفُ ﷺ: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، يَدعُو بهذا عليه السلام مع أنَّه قضَّى حَياةً مَليئةً بالمحَن والصَّبرِ علَيها، مِن تُهمةٍ أَخلاقيَّةٍ ومُفارقةٍ للأَهلِ

سَنواتٍ مُتتابِعاتٍ واستِعبادٍ - وهوَ الحُرُّ بنُ الحرِّ - وسجنٍ، وقضَى حَياةً كلها دَعوةٌ إلى الله وإصلاحٌ وحُكمٌ في النَّاس بالعَدلِ...

وروَى التِّرمذيُّ (٣٥٢٢) - وصحَّحه الألبانيُّ - عن شَهر بن حَوشَب قالَ: قلتُ لأمِّ سلَمةَ: «يَا أمَّ المُؤمنِينَ! مَا كانَ أَكثرُ دعاءِ رَسولِ الله ﷺ إذَا كانَ عندَك؟ قالَت: **كانَ أَكثرُ دُعائِه: يَا مُقلِّبَ القُلوبِ ثبِّتْ قَلبي على دِينِك**، قالَت: فقُلتُ: يَا رَسولَ الله! مَا لِأَكثرِ دُعائِك: يَا مقلِّبَ القُلوبِ ثبِّتْ قَلبي على دِينِك؟ قالَ: **يَا أمَّ سلَمةَ! إنَّه ليسَ آدمِيٌّ إلَّا وقَلبُه بينَ أُصبُعَين مِن أَصابعِ الله، فمَن شاءَ أَقامَ، ومَن شاءَ أَزاغَ**، فتَلَا مُعاذٌ - وهوَ ابنُ مُعاذ شَيخُ شَيخِ التِّرمذيِّ -: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾»، وفي رِوايةٍ له صَحيحةٍ (٢١٤٠) عن أنسٍ رضي الله عنه قالَ: «**كانَ رسولُ الله ﷺ يُكثرُ أَن يَقولَ: يَا مُقلِّبَ القُلوبِ ثبِّتْ قَلبي على دِينِك**، فقُلتُ: يَا رسولَ الله! آمنَّا بكَ وبما جئتَ به، فهَلْ تَخافُ علَينا؟ قالَ: **نعَمْ؛ إنَّ القُلوبَ بينَ أُصبُعَين مِن أَصابعِ الله يُقلِّبها كيفَ يشاءُ**».

وفي «الحلية» لأبي نُعيم (٢/ ٣٨٣) عن جَعفر بن سُليمانَ قالَ: «كانَ مالكُ ابنُ دينارٍ إذَا أَقامَ في مِحرابِه قالَ: يَا ربِّ! قد عرَفتَ ساكنَ الجنَّةِ وساكنَ النَّارِ، ففي أيِّ الدَّارَين مالِكٌ؟ ثمَّ بكَى».

وروَى أيضًا (٧/ ١٢) عن عبدِ الرَّحمنِ بنُ مَهديٍّ قالَ: «باتَ سُفيانُ الثَّوريُّ عندِي فلمَّا اشتدَّ به جعلَ يبكِي فقالَ له رجلٌ: يا أبا عبدِ الله! أَراكَ كثيرَ الذُّنوبِ فرَفعَ شيئًا مِن الأَرضِ فقالَ: والله! لَذُنوبي أَهْونُ عندِي مِن ذَا إنِّي أَخافُ أَن أُسلبَ الإيمانَ قبلَ أَن أَموتَ»، وهَذا قد يُشكِل فهمُه على البعضِ؛

لأنَّه قد يُتوهَّم أنَّ فيه تَهاونًا بالذُّنوبِ، وليسَ كذلكَ؛ لأنَّ معناه أنَّ غلطَ الرَّجلِ من جهةِ ذُنوبِه الظَّاهرةِ أخفُّ من غلطِه من جهةِ ذُنوبِه الباطنةِ؛ لأنَّ اللهَ يُعاقِب على هَذه ما لَا يُعاقِب على تلكَ، فهَذه قد تتسبَّب في الحَيلولةِ بين صاحبِها وبين الإيمانِ كما قالَ تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وهَذا الَّذي أَخافَ الثَّوريَّ رَحِمَهُ اللهُ أَكثرَ من كلِّ شيءٍ وهوَ مَن هوَ في العِلم والتَّقوَى، خافَ أن يَعْلم اللهُ مِن باطنِه غيرَ ما يَعلمُه النَّاسُ مِن ظاهِرِه فيَسلبُه الإيمانَ أَحوجَ ما يَكونُ إلَيه؛ لأنَّ الغشَّ الباطنيَّ أَعظمُ شيءٍ يَغشُّ به المرءُ نَفسَه، ولو كانَ الخللُ في المرءِ مِن كدرِ ذُنوبِه مع سَلامةِ صَدرِه لرُجيَ له عندَ الله، ولكن أنَّى له الاطِّلاع على ذلكَ؟ ولذلكَ قالَ أبو عِمرانَ الجَونيُّ: «وهَلْ أَبكَى العُيونَ بكاءً إلَّا الكِتابُ السَّابقُ»؟! وهوَ في «الحلية» أيضًا (٢/ ٣١٢).

قالَ ابنُ القيِّم في «الجواب الكافي» (ص ٩٠): «هَذا، وثَمَّ أمرٌ أَخوَفُ مِن ذلكَ وأدهَى مِنه وأَمرُّ، وهوَ أن يَخونَه قَلبُه ولِسانُه عندَ الاحتِضارِ والانتِقالِ إلى الله تعالَى، فربَّما تَعذَّر علَيهِ النُّطقُ بالشَّهادةِ، كما شاهَدَ النَّاسُ كثيرًا مِن المُحتضَرين أَصابَهم ذلكَ، حتَّى قيلَ لبَعضِهم: قُلْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ، فقالَ: آهْ آهْ، لَا أَستطيعُ أَن أَقولَها!

وقيلَ لآخَرَ: قُلْ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ، فقالَ: شَاهْ رُخْ[1]، غلَبتُك، ثمَّ قَضَى!...

---

(١) أي: صاحبُ شَطرَنج.

وقيلَ لآخَرَ: قُلْ لَا إلهَ إِلَّا اللهُ، فجَعلَ يَهْذِي بالغِناءِ ويقولُ: تاتِناتِنِنْتَا، حتَّى قَضَى!

وقيلَ لآخَرَ ذلكَ، فقالَ: وما يَنفعُني مَا تقولُ ولَمْ أَدَعْ مَعصيةً إلَّا رَكبتُها؟ ثمَّ قَضَى ولَمْ يقُلْها!

وقيلَ لآخَرَ ذلكَ، فقالَ: ومَا يُغنِي عنِّي ومَا أَعرِفُ أنِّي صلَّيتُ لله صلاةً؟ ثمَّ قَضَى ولَمْ يَقُلْهَا!

وقيلَ لآخَرَ ذلكَ، فقالَ: هوَ كافرٌ بما تقولُ، وقَضَى!

وقيلَ لآخَرَ ذلكَ، فقالَ: كلَّما أَردتُ أن أقولَهَا لِساني يُمسكُ عنها!

وأَخبرَني مَن حضَرَ بعضَ الشَّحَّاذين عندَ مَوتِه، فجعَلَ يقولُ: لله، فِلسٌ لله، حتَّى قَضَى!

وأَخبرَني بعضُ التُّجَّارِ عن قَرابةٍ له أنَّه احتُضرَ وهوَ عندَه، وجعَلوا يُلقِّنونه: لَا إلهَ إلَّا اللهُ، وهوَ يقولُ: هَذهِ القِطعةُ رَخيصةٌ، هَذا مُشترًى جيِّدٌ، هَذهِ كذا، حتَّى قَضَى!

وسُبحانَ الله! كَمْ شاهدَ النَّاسُ مِن هَذا عِبرًا؟! والَّذي يَخفَى علَيهم مِن أَحوالِ الُمحتضَرينَ أَعظمُ وأَعظمُ، فإذَا كانَ العبدُ في حالِ حُضورِ ذِهنِه وقوَّتِه وكَمالِ إدراكِه قد تمكَّنَ منه الشَّيطانُ، واستَعملَه فيما يُريدُه مِن مَعاصي الله، وقد أَغفلَ قلبَه عن ذِكرِ الله تعالَى، وعطَّلَ لِسانَه عن ذِكرِه وجَوارِحَه عن طاعتِه، فكيفَ الظَّنُّ به عندَ سُقوطِ قُواه واشتِغالِ قلبِه ونفسِه بما هوَ فيهِ مِن أَلَمِ النَّزعِ؟

وجمَعَ الشَّيطانُ له كلَّ قوَّتِه وهِمَّتِه، وحَشدَ علَيه بجَميعِ مَا يَقدرُ علَيه ليَنالَ منه فُرصتَه، فإنَّ ذلكَ آخِرُ العملِ، فأقوَى مَا يَكونُ علَيه شيطانُه ذلكَ الوقتِ، وأَضعفُ ما يكونُ هوَ في تلكَ الحالِ، فمَن تُرَى يَسلمُ على ذلكَ؟ فهُناكَ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فكيفَ يُوفَّقُ بحُسنِ الخاتمةِ مَن أَغفلَ اللهُ سُبحانَه قَلبَه عن ذِكرِه واتَّبعَ هَواه وكانَ أَمرُه فرُطًا؟! فبَعيدٌ مَن قَلبُه بَعيدٌ مِن الله تعالَى، غافِلٌ عنه مُتعبِّدٌ لهواه أَسيرٌ لشَهواتِه، ولِسانُه يابسٌ مِن ذِكرِه، وجَوارحُه مُعطَّلةٌ مِن طاعتِه مُشتغِلةٌ بمَعصيتِه أن يوَفَّقَ للخاتمةِ بالحُسنَى.

ولقَد قطعَ خوفُ الخاتمةِ ظُهورَ المتَّقينَ، وكأنَّ المُسيئِينَ الظَّالمينَ قد أَخذُوا توقيعًا بالأَمانِ ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٣٩-٤٠]».

هَذا فيمَن عوَّد نَفسَه على السَّيِّئاتِ الظَّاهرةِ، والأمرُ أشدُّ - بما لَا يُقارَن - فيمَن كانَ عملُه قائمًا في حَقيقتِه على خَبيئةِ السُّوءِ، قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

واللهُ يُكرمُ مَن وافقَ باطنُه ظاهرَه في الصَّلاح بالخاتمةِ الحسَنةِ وخُروجِ رُوحِه على خيرِ ساعةٍ عرَفَها في حَياتِه كلِّها، ولذلكَ كانَ يوَفِّق بَعضَهم لِيموتَ وهوَ يَتلُو كتابَه، ففي «تاريخ بغداد» (٥/ ٣١) عن إبراهِيم بن بشَّار يَقولُ: «الآيةُ

الَّتي ماتَ فيها عليُّ بنُ الفُضيلِ فِي الأَنعَام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام: ٢٧] مع هَذا الموضِع ماتَ، وكنتُ فيمَن صلَّى علَيه».

ويوفِّق بَعضَهم لِيموتَ وهوَ صائمٌ، ففيه أيضًا (٦/ ٢٠٣) عن أبي بكر النَّيسابُوري قالَ: «حَضرتُ إبرَاهيمَ بنَ هاني عندَ وَفاتِه فجَعلَ يَقولُ لابنِه إسحاق: يا إسحاق! ارفَع السِّترَ، قالَ: يا أبتِ! السِّترُ مَرفوعٌ، قالَ: أنا عَطشانٌ، فجاءَه بماءٍ، قالَ:غابَت الشَّمسُ؟ قالَ: لَا، قالَ: فردَّه، ثمَّ قالَ: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]، ثمَّ خرجَت روحُه».

ويوَفِّق بَعضَهم ليَموتَ وهوَ ساجدٌ في أَفضلِ البِقاعِ الَّتي يَؤمُّها الصَّالِحون، ففي «التَّاريخ الأَوسط» للبخاري (٢/ ٧٣) عن يحيَى بن مَعِين قالَ: «ماتَ موسَى الصَّغير وهوَ ساجدٌ خَلفَ المَقام شَهدتُه بمكَّة».

وفي «الحلية» (٢/ ٣٠) عن أبي الزَّاهريَّة قالَ: سَمعتُ أبا ثَعلبةَ الخُشَنيَّ يقولُ: «إنِّي لأَرجُو أَن لَا يَخنقَنيَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ كما أَراكُم تُخنَقونَ عندَ الموتِ، قالَ: فبَينَما هوَ يُصلِّي في جَوفِ اللَّيلِ قُبضَ وهوَ ساجدٌ، فرأَت ابنتُه أنَّ أَباها قَد ماتَ، فاستَيقظَت فزِعةً فنادَت أُمَّها: أينَ أبي؟ قالَت: في مُصلَّاه، فنادَتْه فلَمْ يُجِبْها، فأَيقظَتْه فوَجدَته ساجدًا، فحرَّكَته فوَقعَ لجنبِه ميِّتًا».

قالَ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الجواب الكافِي» (ص ١١٧): «وهَذا مِن أَعظمِ الفقهِ؛ أن يَخافَ الرَّجلُ أن تَخدعَه ذُنوبُه عندَ الموتِ، فتَحُول بينَه وبينَ الخاتمةِ الحُسنَى وقد ذَكرَ الإمامُ أحمدُ عن أبى الدَّرداءِ أنَّه لما احتُضِر جعَل يُغمَى عليه

ثمَّ يُفيقُ ويقرأُ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[الأنعام: ١١٠]، فمِن هَذا خافَ السَّلفُ مِن الذُّنوبِ أن تكونَ حِجابًا بينَهم وبينَ الخاتمةِ الحسَنةِ».

قالَ عبدُ الحقِّ الإشبيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «العاقِبة في ذِكر الموتِ» (ص ١٨٠): «واعلَمْ أنَّ سوءَ الخاتمةِ - أَعاذَنا اللهُ منها - لَا يكونُ لمن استَقامَ ظاهرُه وصلحَ باطنُه، وإنَّما يكونُ ذلكَ لَمن كانَ له فَسادٌ في العَقدِ وإصرارٌ على الكَبائرِ وإقدامٌ على العَظائمِ، فربَّما غلبَ ذلكَ علَيه حتَّى يَنزلَ به الموتُ قبلَ التَّوبةِ، ويَثبَ علَيه قبلَ الإنابةِ، ويَأخذَه قبلَ إصلَاحِ الطَّويَّة فيَصطلِمه الشَّيطانُ عندَ تلكَ الصَّدمةِ، ويَختطِفه عندَ تلكَ الدَّهشةِ، والعِياذُ بالله ثمَّ العِياذُ بالله أن يكونَ لَمن كانَ مُستقيمًا لم يَتغيَّر عن حالِه ويَخرُج عن سنَّتِه ويَأخذ في غيرِ طَريقِه، فيكونُ ذلكَ سَببًا لسوءِ الخاتمةِ وشُؤمِ العاقِبةِ والعِياذُ بالله! ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[الرعد: ١١]، وقد سَمعتُ بقصَّة بَلْعام بن باعُوراء وما كانَ آتاه اللهُ مِن آياتِه وأَطلعَه علَيه مِن بيِّناتِه وما أَراهُ مِن عَجائبِ مَلكوتِه، أَخلدَ إلى الأَرضِ واتَّبعَ هَواه، فسَلبَه اللهُ سُبحانَه جميعَ ما أَعطاهُ، وترَكَه مع مَن استَمالَه وأَغواه».

يُريدُ عالِمَ بني إسرَائيلَ الَّذي نزَل فيه قولُ الله ﷻ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ

عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥ – ١٧٦].

وهَذا الكلامُ العَظيمُ قد أَعجبَ جمعًا مِن أَهل العِلم حتَّى نقَلوه في مُصنَّفاتِهم، مِنهم ابن القيِّم في كتابِه السَّابقِ (ص ١١٨) والشَّاطبيُّ في «الاعتِصام» (١/ ١٧٠ - الهلالي) والقرطبيُّ في «التَّذكرَة في أَحوالِ الموتَى وأُمورِ الآخِرةِ» (ص ٤٢)، نَسأَلُ اللهَ أن يُطهِّر قُلوبَنا ويَرزقَ بَواطنَنا الصِّدقَ وأن يَمنَّ علَينا بمِيتةٍ مَستورةٍ.

علاقةُ الاتِّباعِ بصَلاحِ الباطنِ

الاتِّباعُ لهَدي النَّبيِّ ﷺ ألصقُ بالهديِ الظَّاهرِ إذا قُرنَ بالإخلاصِ، فيكونُ الكلامُ هنا عن علاقةِ الظَّاهرِ بالباطنِ، ولقد دلَّت النُّصوصُ على أنَّ المرءَ يكونُ مُخلصًا بقَدْرِ ما يَكونُ متَّبعًا، مِنها قولُه تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فالمتأسِّي بالنَّبيِّ ﷺ هوَ المتَّبعُ، والرَّاجي ربَّه واليومَ الآخرَ هوَ المخلِصُ، فجمعَ ربُّنا هُنا بينَهما لفائدتَين:

الأولَى: تَذكيرًا بقاعدةِ شرطَي قَبولِ العملِ: الإخلاص والمتابعة.

والثَّانيةُ: دلَّنا بسِياقِه الواضحِ على أنَّ دَأبَ المخلِصِ لله التَّأسِّي برَسولِه ﷺ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١]، ووجهُ الاستِدلالِ أنَّ اللهَ جعلَ اتِّباعَ رَسولِه ﷺ دَليلًا على حبِّه، وحبُّه عزّ وجلّ هوَ قمَّةُ ما يَبلغُه المخلِصُ؛ لأنَّ اللهَ قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ولذلكَ قالَ في المقابِل: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة: ١٦٥ -١٦٦]، فبدأَ اللهُ بذِكرِ ناقضِ الإخلاصِ من أسِّه الأعظم ألَا وهوَ حبُّ غيرِ الله كحبِّ الله عزّ وجلّ، وسمَّى ذَلك اتِّخاذًا للأَندادِ وهوَ عينُ الشِّركِ النَّاقضِ للتَّوحيدِ، وختمَها بذِكرِ ناقضِ المتابعةِ للنَّبيِّ ﷺ إلى مُتابعةِ غيرِه ممَّن أحبُّوهم كحبِّ الله، فقالَ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ ﴾...

فاستفَدْنا من هَذا السِّياقِ فائدتَين:

الأولَى: أنَّ اللهَ جمعَ هُنا بينَ شَرطَي قَبولِ الأَعمالِ: الإخلاص والمتابَعةِ.

الثَّانيةُ: ارتِباطُ فاسدِ المتابعَةِ بفاسدِ الإخلاصِ.

وقد ذكَر ابنُ القيِّم في «مَدارج السَّالكينَ» (٢/ ٤٤٧) أبا عُثمانَ النَّيسابوريَّ رَحِمَهُ اللهُ ثمَّ قالَ: «وكانَ شَديدَ الوَصيَّةِ باتِّباعِ السُّنة وتَحكيمِها ولُزومِها، ولَمَّا حضرَته الوَفاةُ مزَّق ابنُه قَميصًا على نَفسِه، ففَتحَ أبو عُثمانَ عَينَيه وهوَ في السِّياقِ فقالَ: يا بنيَّ! خِلافُ السُّنةِ في الظَّاهرِ عَلامةُ رِياءٍ في الباطنِ»، ولذَلكَ فإنَّ موتَ المرءِ على التَّوحيدِ والسُّنةِ يُعدُّ أَكرمَ كَرامةٍ كانَ يَتمنَّاها السَّلفُ، روَى ابنُ وضَّاحٍ في «البدَع والنَّهي عنها» (ص ٢٣) عن عبدِ الله بن المبارَك رَحِمَهُ اللهُ أنَّه قالَ: «اعْلَم أَنِّي أرَى أنَّ الموتَ اليومَ كَرامةٌ لكلِّ مُسلمٍ لقِيَ اللهَ على السُّنة؛ فإنَّا لله وإنَّا إلَيه راجِعونَ، فإلى الله نَشكُو وَحشَتَنا وذَهابَ الإخوانِ وقلَّةَ الأَعوانِ وظُهورَ البدَع، وإلى الله نَشكُو عَظيمَ ما حلَّ بهذِه الأمَّة مِن ذَهابِ العُلماءِ وأَهلِ السُّنةِ وظُهورِ البدَع».

دلالةُ الظَّاهرِ على الباطنِ

لَا يَعلمُ ما فِي القُلوبِ إلَّا اللهُ ﷻ؛ فهوَ الَّذي يَعلمُ السِّرَّ وأَخفَى، ويَعلمُ ما انطوَت علَيه النُّفوسُ وما عَقدَت علَيه مِن إيمانٍ وغيرِه، قالَ اللهُ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقالَ: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وقالَ عيسَى ﷺ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]، ولذلكَ لَمَّا اعترضَ رجلٌ على رَسولِ اللهِ ﷺ في قِسمتِه المالَ قالَ خالدُ بنُ الوَليدِ: «يَا رَسولَ اللهِ! أَلَا أَضربُ عُنقَه؟ قالَ: **لَا؛ لَعلَّه أَن يَكونَ يُصلِّي**، فقالَ خالدٌ: وكَمْ مِن مُصلٍّ يقولُ بلِسانِه مَا ليسَ في قَلبِه، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **إنِّي لَم أُومَرْ أن أَنقِّبَ عن قُلوبِ النَّاسِ ولَا أشقَّ بُطونَهم**» رواه البُخاري (٤٣٥١) ومُسلم (٢٤١٦).

وفي مَوضوعِنا هَذا روَى البخاري (٢٨٠٣) ومسلم (١٨٧٦) عن أبي هُريرةَ رضي الله عنه أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**والَّذي نَفسي بيَدِه! لَا يُكْلَم أحدٌ في سَبيلِ اللهِ - واللهُ أَعلمُ بمَن يُكْلَمُ في سَبيلِه - إلَّا جاءَ يومَ القِيامةِ واللَّونُ لونُ الدَّمِ والرِّيحُ ريحُ المسكِ**»، فتأمَّلْ مَوقعَ كَلمةِ «**واللهُ أَعلمُ بمَن يُكْلم في سَبيلِه**» مِن جِهادِ النَّاس الَّذي لَا يَقبَلون فيه عادةً مِثلَ هَذا الاعتِراضِ لو أَتاهُم مِن غيرِ النَّبيِّ ﷺ ولو في جُملةٍ اعتِراضيَّةٍ مِن حيثُ اللُّغةِ؛ لأنَّهم يرَونَه تَثبيطًا عن الجِهادِ وأنَّ صاحبَه مَغموسٌ في النِّفاقِ! لكن كَثيرًا ما كانَ الرَّسولُ ﷺ يُنبِّه

علَيه في مَوضوعِ الجِهادِ نَفسِه حتَّى يَنتبهَ المؤمنُ لوَظيفةِ قَلبِه - الَّتي هيَ أَعظَمُ الوَظائفِ - وهوَ يَجودُ بنَفسِه.

وقد يُظهرُ اللهُ ما في القُلوبِ بالقَرائن الدَّالَّة علَيها، قالَ ابن تَيمية رَحِمَهُ اللهُ في «دَرء تَعارض العَقل والنَّقل» (٥/ ٣١٠): «مِثل البُكاءِ والضَّحكِ ونَحوِهما فإنَّها تدلُّ على ما يَعلمُه المرءُ مِن نَفسِه مِثل الحُزنِ والفرَحِ، وكَذلكَ صُفرةُ الوَجَل وحُمرةُ الخَجَل تدلُّ على ما يَعلمُه المرءُ مِن فَزعِه وحَيائِه وإن لم يَقصِد الإعلامَ بذَلك، ومِن هَذا البابِ قولُ الشَّاعرِ:

تحدِّثُني العَينانِ ما القَلبُ كاتمٌ ... ولَا خيرَ في الشَّحناءِ والنَّظرِ الشَّزْر

وقولُ الآخَر:

والعَينُ تَعلمُ مِن عينَي محدِّثِها ... إن كانَ مِن حِزبِها أو مِن أَعادِيها

ومِن هَذا البابِ قَولُه تَعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، فهوَ يَعلمُ مِن السِّيماء ومِن لَحْن القولِ ما لم يَقصِدوا الإعلامَ به».

وقالَ في «الاستِقامَة» (١/ ٣٥١): «ومَن كانَ له صورةٌ حَسنةٌ فعفَّ عمَّا حرَّم اللهُ تعالى وخالَف هَواه وجمَّل نَفسَه بلِباسِ التَّقوى الَّذي قالَ اللهُ فيه: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، كانَ هَذا الجمالُ يحبُّه اللهُ وكانَ مِن هَذا الوجهِ أَفضلَ ممَّن لم يُؤتَ مِثلَ هَذا الجمالَ ما لَا يُكساه وجهُ العاصِي، فإن كانَت خِلقتُه حَسنةً ازدادَت حُسنًا وإلَّا كانَ علَيها مِن

النُّورِ والجمالِ بحَسَبها، وأمَّا أهلُ الفُجورِ فتَعلُو وُجوهَهم ظُلمةُ المعصِيةِ حتَّى يُكسَفَ الجمالُ المخلوقُ، قالَ ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه: إنَّ للحَسنةِ لنُورًا في القلبِ وضِياءً في الوجهِ وقوَّةً في البدنِ وزِيادةً في الرِّزقِ ومحبَّةً في قُلوبِ الخَلْق، وإنَّ للسَّيِّئة لظُلمةً في القَلبِ وغَبَرةً في الوجهِ وضَعفًا في البدنِ ونَقصًا في الرِّزقِ وبَغضةً في قُلوبِ الخَلْق».

ثمَّ ذكرَ رحمه الله الآياتِ المتناظِرةَ في الإشادةِ بالجمعِ بينَ الجمالِ المعنَوي والجمالِ الحسِّيِّ، وما يُقابِلُ ذلكَ من الجمعِ بين الدَّمامةِ المعنويَّةِ والدَّمامةِ الحسِّيَّةِ، فقالَ: «وهَذا يومَ القِيامةِ يَكملُ حتَّى يَظهرَ لكلِّ أحدٍ كما قالَ تَعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦ – ١٠٧]، وقالَ تَعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]، وقالَ تَعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٥]، وقالَ تَعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٣٨ – ٤٢]، وقالَ تَعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٢ – ٤]، و﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٨ – ٩]، وقالَ تَعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا

﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩][1]، وقالَ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٢ - ٢٤]...

وأَمثالُ هَذا كَثيرٌ ممَّا فيه وَصفُ أَهلِ السَّعادةِ بنِهايةِ الحُسن والجمالِ والبَهاءِ وأَهلِ الشَّقاءِ بنِهايةِ السُّوءِ والقُبحِ والعَيبِ، وقد قالَ تَعالى في وَصفِهم في الدُّنيَا: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]، فهَذه السِّيمَا في وُجوهِ المؤمِنينَ، والسِّيمَا العَلامةُ وأَصلُها مِن الوَسْم، وكَثيرًا ما يُستعمَلُ في الحُسن...

وقالَ اللهُ تعَالى في صفةِ المنافِقين: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [محمد: ٣٠]، فجعَل للمُنافِقين سِيمَا أيضًا، وقالَ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ﴾ [الحج: ٧٢]، فهَذه السِّيمَا وهَذا المنكرُ قد يوجدُ في وَجهِ مَن صورتُه المخلوقةُ وَضيئةٌ كما يوجدُ مِثلُ ذلكَ في الرِّجالِ والنِّساءِ والوِلدانِ لكن بالنِّفاقِ قَبُح وَجهُه فلَم يَكُن فيه الجمالُ الَّذي يُحبُّه اللهُ؛ وأَساسُ ذلكَ النِّفاقُ والكذبُ، ولهذا يوصَف الكذَّابُ بسَوادِ الوجهِ كما يوصفُ الصَّادقُ ببَياضِ الوَجهِ كما أَخبرَ اللهُ بذلكَ، ولهذا رُوي عن عمرَ بن الخطَّاب أنَّه أَمر بتَعزيرِ شاهدِ الزُّورِ بأن يُسوَّد وَجهُه ويُركَب مَقلوبًا على الدَّابَّة؛ فإنَّ العُقوبةَ مِن جِنس الذَّنبِ، فلمَّا اسودَّ وجهُه بالكذبِ وقَلب الحديث سوِّد وَجهُه وقُلِب في رُكوبِه، وهَذا أَمرٌ محسوسٌ لمَن له قلبٌ؛ فإنَّ ما في القَلبِ مِن النُّورِ

---

(١) وجهُ الاستِدلالِ بالآيةِ أنَّ هَؤلاءِ لَمَّا شوَّهوا بَواطنَهم بالكفرِ شُوِّهَت ظَواهرُهم بشَوي الوُجوهِ.

والظُّلمةِ والخيرِ والشَّرِّ يَسرِي كَثيرًا إلى الوجهِ والعَينِ وهُما أَعظمُ الأَشياءِ ارتِباطًا بالقلبِ.

ولهذا يُروَى عن عُثمانَ أو غَيرِه أنَّه قالَ: (ما أَسرَّ أحدٌ بسَريرةٍ إلَّا أَبْداها اللهُ على صَفحاتِ وَجهِه وفَلَتاتِ لِسانِه)، واللهُ قد أَخبرَ في القُرآنِ أنَّ ذلكَ قد يَظهرُ في الوجهِ فقالَ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾، فهَذا تحتَ المشيئةِ، ثمَّ قالَ: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾، فهَذا مُقسَمٌ علَيه محقَّقٌ لَا شرطَ فيه؛ وذلكَ أنَّ ظُهورَ ما في قلبِ الإنسانِ على لِسانِه أَعظمُ مِن ظُهورِه في وَجهِه، لكنَّه يَبدُو في الوجهِ بدوًّا خَفيًّا يَعلمُه اللهُ، فإذَا صارَ خُلقًا ظهرَ لكَثيرٍ مِن النَّاس، وقد يَقوَى السَّوادُ والقَسَمةُ حتَّى يَظهرَ لجمهورِ النَّاس...»، وزادَه بَيانًا فقالَ كما في «مجموع الفتاوَى» (١٦/ ٦٨): «وأمَّا ظُهورُ مَا في قُلوبِهم على وُجوهِهم فقَد يَكونُ وقَد لَا يَكونُ، ودلَّ على أنَّ ظُهورَ مَا في باطنِ الإنسانِ على فلَتاتِ لِسانِه أَقوَى مِن ظُهورِه على صَفحاتِ وَجهِه؛ لأنَّ اللِّسانَ تُرجُمانُ القلبِ، فإظهارُه لِما أَكنَّه أَوكدُ، ولأنَّ دلَالةَ اللِّسانِ قالِيَّةٌ ودلَالةَ الوَجهِ حالِيَّةٌ».

وقالَ في «الاستِقامَة» أيضًا (١/ ٣٦٤): «وهَذا الحُسنُ والجمالُ الَّذي يكونُ عن الأَعمالِ الصَّالحةِ في القَلبِ يَسرِي إلى الوجهِ، والقُبحُ والشَّينُ الَّذي يكونُ عن الأَعمالِ الفاسدةِ في القَلبِ يَسرِي إلى الوجهِ كما تقدَّم، ثمَّ إنَّ ذلكَ يَقوَى بقوَّة الأعمالِ الصَّالحةِ والأَعمالِ الفاسدةِ، فكلَّما كثرَ البِرُّ والتَّقوَى قَويَ الحُسنُ والجمالُ، وكلَّما قويَ الإثمُ والعُدوانُ قويَ القُبحُ والشَّينُ حتَّى يَنسخَ

ذلكَ ما كانَ للصُّورةِ مِن حسنٍ وقُبحٍ، فكَمْ ممَّن لم تكُن صورتُه حَسنةً ولكن مِن الأَعمالِ الصَّالحةِ ما عظُم به جمالُه وبَهاؤُه حتَّى ظَهر ذلكَ على صورتِه، ولهذا ظَهر ذلكَ ظُهورًا بيِّنًا عند الإصرارِ على القَبائحِ في آخرِ العُمرِ عندَ قُربِ الموتِ، فنرَى وُجوهَ أهلِ السُّنة والطَّاعةِ كلَّما كبِروا ازدادَ حُسنُها وبَهاؤُها حتَّى يكونَ أَحدُهم في كِبَره أَحسنَ وأَجملَ منه في صِغرِه، ونَجدُ وُجوهَ أهلِ البدعةِ والمعصيةِ كلَّما كبِروا عظُم قُبحُها وشَينُها، حتَّى لَا يَستطيعَ النَّظرَ إلَيها مَن كانَ مُنبهرًا بها في حالِ الصِّغر لجمالِ صورتِها، وهَذا ظاهرٌ لكلِّ أحدٍ فيمَن تَعظمُ بدعتُه وفُجورُه، مِثل الرَّافضةِ وأهلِ المظالمِ والفَواحشِ مِن التُّرك ونَحوِهم[1]، فإنَّ الرَّافضيَّ كلَّما كَبِر قَبُح وَجهُه وعَظُم شَينُه حتَّى يَقوَى شَبهُه بالخِنزيرِ، وربَّما مُسخ خِنزيرًا وقِردًا كما قد تَواترَ ذلكَ عنهم.

ونَجدُ المردانَ مِن التُّركِ ونَحوِهم قد يكونُ أَحدُهم في صِغرِه مِن أَحسنِ النَّاس صورةً، ثمَّ إنَّ الَّذينَ يُكثِرون الفاحشةَ تجِدهم في الكِبَر أَقبحَ النَّاس وُجوهًا حتَّى إنَّ الصِّنفَ الَّذي يَكثرُ ذلكَ فيهم مِن التُّركِ ونَحوِهم يكونُ أحدُهم أَحسنَ النَّاس صورةً في صِغرِه وأَقبحَ النَّاس صورةً في كِبَره، وليسَ سَبب ذلكَ أمرًا يَعودُ إلى طَبيعةِ الجسم، بل العادةُ المستَقيمةُ تَناسُب الأمر في ذلكَ، بل سَببُه ما يَغلبُ على أَحدِهم مِن الفاحشةِ والظُّلمِ، فيكونُ مخنَّثًا ولوطيًّا وظالمًا وعَونًا للظَّلمةِ فيَكسُوه ذلكَ قُبحَ الوجهِ وشَينَه.

---

(١) التُّركُ هُم مِن بلادِ تُركِستان كما في «معجَم البُلدان» لياقوت الحمَوي (٢/ ٢٣).

ومِن هَذا أنَّ الَّذينَ قويَ فيهم العُدوانُ مَسخَهم اللهُ قِردةً وخَنازيرَ مَن الأُمَم المتقدِّمةِ، وقد ثبتَ في الصَّحيح أنَّه سيكونُ في هَذه الأمَّة أيضًا مَن يُمسَخ قِردةً وخَنازيرَ؛ فإنَّ العُقوباتِ والمثُوباتِ مِن جِنس السَّيِّئات والحسَناتِ كما قد بيِّن ذلكَ في غيرِ مَوضعٍ».

يُريدُ مِثلَ قَولِ النَّبيِّ ﷺ: «لَيكونَنَّ مِن أمَّتي أَقوامٌ يَستحِلُّونَ الحِرَ والحريرَ والخمرَ والمعازِفَ، ولَينزِلَنَّ أَقوامٌ إلى جنبِ عَلَمٍ يَروحُ علَيهم بسارِحةٍ لهم، يَأتِيهم - يَعني الفَقيرَ - لِحاجةٍ فيقولونَ: ارجِعْ إلَينا غدًا، فيُبيِّتهم اللهُ ويَضعُ العَلَمَ ويَمسخُ آخَرين قِردةً وخَنازيرَ إلى يومِ القِيامةِ» رواه البخاري (٥٥٩٠)، والعَلَم هوَ الجبَلُ.

أَربعُ أماراتٍ تدلُّ على فَسادِ الباطنِ

١ - **العُجبُ بالعِبادةِ:** وهوَ أن يُعظِّم العابدُ عِبادتَه ويَستكثِرَها حتَّى يَغترَّ بها ويرَى نَفسَه أَفضلَ من كَثيرٍ من الخَلقِ ويَتوهَّم أنَّ له مَنزلةً عندَ الله، قالَ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في «الوابل الصَّيِّب» (ص ١١): «وهَذا معنَى قَولِ بَعض السَّلفِ: إنَّ العبدَ ليَعملُ الذَّنبَ يَدخلُ به الجنَّةَ ويَعملُ الحسنةَ يَدخلُ بها النَّارَ، قالوا: كيفَ؟ قالَ: يَعملُ الذَّنبُ فلَا يَزالُ نُصبَ عَينَيه منه مُشفقًا وجِلًا باكيًا نادمًا مُستحييًا مِن ربِّه تَعالى ناكسَ الرَّأس بين يدَيه مُنكسرَ القلبِ له، فيكونُ ذلكَ الذَّنبُ أَنفعَ له مِن طاعاتٍ كَثيرةٍ بما ترتَّب علَيه مِن هَذه الأُمورِ الَّتي بها سَعادةُ العبدِ وفَلاحُه حتَّى يكونَ ذلكَ الذَّنبُ سببَ دُخولِه الجنَّة، ويَفعلُ الحسنةَ فلَا يَزالُ يمنُّ بها على ربِّه ويَتكبَّر بها ويرَى نَفسَه ويَعجَب بها ويَستطيلُ بها ويَقولُ: فَعلتُ وفَعلتُ، فيُوَرِّثه مِن العُجبِ والكِبرِ والفَخرِ والاستِطالةِ ما يكونُ سببَ هَلاكِه، فإذَا أَرادَ اللهُ تعالى بهَذا المسكينِ خيرًا ابتَلاه بأَمرٍ يَكسرُه به ويُذلُّ به عُنقَه ويُصغِّر به نَفسَه عندَه، وإن أَرادَ به غيرَ ذلكَ خلَّاه وعُجبَه وكِبرَه، وهَذا هوَ الخذلانُ الموجبُ لهلاكِه؛ فإنَّ العارِفينَ كلَّهم مُجمِعون على أنَّ التَّوفيقَ أن لَا يَكِلَك اللهُ تَعالى إلى نَفسِك، والخذلانُ أن يَكِلَك اللهُ تَعالى إلى نَفسِك، فمَن أَرادَ اللهُ به خيرًا فَتح له بابَ الذُّلِّ والانكِسارِ ودَوام اللَّجأ إلى الله تَعالى والافتِقارِ إلَيه ورُؤيةِ عُيوبِ نَفسِه وجَهلِها وعُدوانِها، ومُشاهَدةِ فَضلِ ربِّه وإحسانِه ورَحمتِه وجُودِه وبرِّه وغِناه وحَمدِه، فالعارفُ سائرٌ إلى الله تَعالى بين هذَين الجناحَين لَا

يُمكنُه أن يَسيرَ إلَّا بهما، فمتَى فاتَه واحدٌ مِنهما فهوَ كالطَّيرِ الَّذي فقَدَ أحدَ جَناحَيه، قالَ شيخُ الإسلَامِ: العارفُ يَسيرُ إلى الله بين مُشاهدةِ المِنَّة ومُطالعةِ عيبِ النَّفس والعمَل، وهَذا معنَى قَولِه ﷺ في الحديثِ الصَّحيحِ مِن حَديثِ بُريدَة رَضيَ اللهُ تَعالى عنه: (سيِّدُ الاستِغفارِ أن يَقولَ العبدُ: اللَّهمَّ أنتَ ربِّي لَا إلهَ إلَّا أنتَ خَلقتَني وأَنا عبدُكَ وأَنا على عَهدِكَ ووَعدِكَ ما استَطعتُ، أَعوذُ بكَ مِن شرِّ ما صَنعتُ، أَبوءُ بنِعمتِك عليَّ، وأَبوءُ بذَنبي، فاغفِرْ لي إنَّه لَا يَغفرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ)، فجَمع في قَولِه ﷺ: (أَبوءُ لكَ بنِعمتِك عليَّ، وأَبوءُ بذَنْبي) مُشاهدةَ المِنَّة ومُطالعَةَ عَيبِ النَّفسِ والعمَل».

ولأَجْلِ هَذه الأَوصافِ كانَ العُجبُ مِن أَوسعِ أَبوابِ الاستِكبارِ، ولَا شيءَ يُفسدُ عِبادةَ المرءِ كما يُفسدُها الاستِكبارُ، ولذلكَ كَثيرًا ما تُقرنُ العِبادةُ به في كِتابِ الله اقتِرانَ الشَّيءِ بضدِّه، كما قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وقالَ: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩]، وقالَ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، وقالَ: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥]، وقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقالَ: ﴿وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا﴾ [النساء: ١٧٢].

والعُجبُ أحدُ جَناحَي الاستِكبارِ، قالَ ابن تَيمية كما في «مجموع الفتاوَى» (١٤/ ٢١٤): «قَد كتَبْنا في غَيرِ مَوضعٍ الكلامَ على جَمعِ الله تَعالى بينَ الخُيَلاءِ والفخرِ وبينَ البُخلِ، كما في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالًا فَخُورًا ۝٣٦ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾[النساء: ٣٦-٣٧] في النِّساءِ والحديدِ، وضدُّ ذلكَ الإِعطاءُ والتَّقوَى المتضمِّنةُ للتَّواضعِ كما قالَ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾[الليل: ٥]، وقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾[النحل: ١٢٨]، وهَذانِ الأَصلانِ هُما جِماعُ الدِّينِ العامِّ، كما يُقالُ: التَّعظيمُ لِأمرِ الله والرَّحمةُ لعِبادِ الله، فالتَّعظيمُ لأَمرِ الله يَكونُ بالخُشوعِ والتَّواضعِ وذلكَ أَصلُ التَّقوى، والرَّحمةُ لعِبادِ الله بالإِحسانِ إلَيهم، وهَذانِ هُما حَقيقةُ الصَّلاةِ والزَّكاةِ؛ فإنَّ الصَّلاةَ مُتضمِّنةٌ للخُشوعِ لله والعُبوديَّةِ له والتَّواضعِ له والذُّلِّ له، وذلكَ كلُّه مُضادٌّ للخُيَلاءِ والفخرِ والكِبرِ، والزَّكاةُ مُتضمِّنةٌ لنَفعِ الخَلقِ والإِحسانِ إلَيهم، وذلكَ مضادٌّ للبُخلِ»، فبيَّن أنَّ التَّكبُّر مُضادٌّ للعِبادةِ، ولَا ريبَ أنَّ العُجبَ مُرتبطٌ بالتَّكبُّر، وهوَ مِن صِفاتِ الخوارجِ، قالَ ابنُ الوَزير رَحِمَهُ اللهُ في «إيثار الحقِّ على الخَلق» (ص ٣٨٥): «الغالبُ على أهلِ البدَع شدَّةُ العُجبِ بنُفوسِهم والاستِحسان لبِدعتِهم... ودَليلُ العُقوبةِ في ذلكَ أنَّك ترَى أهلَ الضَّلالِ أَشدَّ عُجبًا وتِيهًا وتَهليكًا للنَّاس واستِحقارًا لهم، نَسألُ اللهَ العفوَ والمعافاةَ مِن ذلكَ كلِّه».

وقد بيَّن ذلكَ صِريحًا رَسولُ الله ﷺ حيثُ قالَ: «**إنَّ فيكُم قومًا يَتعبَّدون حتَّى يُعجِبوا النَّاس ويُعجبهم أَنفسُهم، يَمرُقون من الدِّين كما يَمرقُ السَّهمُ من الرَّميَّة**» رواه أبو يعلى (٣/ ١٠٠٧) وصحَّحه الألبانيُّ في «السِّلسلة الصَّحيحَة» (١٨٩٥).

وعن العبَّاس بن عبدِ المطَّلب قالَ: قالَ رَسولُ الله ﷺ: «يَظهرُ هَذا الدِّينُ حتَّى يُجاوزَ البِحارَ، وحتَّى يُخاضَ بالخيلِ في سَبيل الله، **ثمَّ يَأتي أَقوامٌ يَقرأُون القُرآنَ، فإذَا قَرأُوه، قالُوا: قد قَرأْنا القُرآنَ ، فمَن أَقرأُ منَّا؟! مَن أَعلمُ منَّا؟!** ثمَّ التَفتَ إلى أَصحابِه فقالَ: هَل تَرون في أُولَئك مِن خيرٍ؟ قالُوا: لَا، قالَ: فأُولَئك مِنكم، وأُولَئك مِن هَذه الأمَّة، وأُولَئك هُم وَقودُ النَّار» أخرجَه ابن المُبارك في «الزُّهد» (٤٥٠) والطبراني (٢٥/ ٢٧) وغيرُهما وحسَّنه الألبانيُّ في «السِّلسلة الصَّحيحَة» (٣٢٣٠).

ومَعلومٌ أنَّ النَّبيَّ ﷺ وصفَهم في عدَّةِ أَحاديث بأنَّهم أَصحابُ عِبادةٍ، لكنَّ عِبادتَهم هَذه - مع جَهلِهم بحقِّ الله وجَهلِهم بقُصورِ أَنفسِهم - جعلَتْهم يَعجبُون بعمَلِهم أَيَّما إِعجابٍ، حتَّى خرَجوا من الدِّينِ الصَّحيح إلى دينٍ مُبتدَعٍ؛ كما في حَديثِ أبي سَعيد الخُدري رضي الله عنه ، وفيه قولُه ﷺ: «**يَقرأُونَ القُرآنَ لَا يُجاوزُ حَناجِرَهم، يَمرُقونَ مِن الدِّينِ كما يَمرقُ السَّهمُ مِن الرَّميَّةِ، يَنظرُ في النَّصْلِ فلَا يَرَى شيئًا، ويَنظرُ في القِدْحِ فلَا يَرَى شيئًا، ويَنظرُ في الرِّيشِ فلَا يَرَى شيئًا، ويَتمارَى في الفُوقِ**» رَواه البخاري (٥٠٥٨) ومسلم (٢٤١٩).

قالَ ابن عبد البرِّ في «الاستِذكار» (٢/ ٥٠٠): «وقَولُه: (يَتمارَى في الفُوق) أي يشكُّ إن كانَ أَصابَ الدَّم الفوق أم لَا، والفُوق هوَ الشَّيءُ الَّذي يَدخلُ فيه الوَتَر، قالَ: يَقولُ: فكَما يَخرجُ السَّهمُ نقيًّا مِن الدَّم لم يَتعلَّق به مِنه شيءٌ فكَذلكَ يَخرجُ هَؤلاءِ مِن الدِّين، يَعنِي الخوارِج».

ويُوضِّحُه ما رواه أحمد (٢٠٤٣١) وغيرُه - بسندٍ صَحَّحه الألباني في «السِّلسلَة الصَّحيحَة» (٢٤٩٥) - عن أبي بَكرةَ «أنَّ نبيَّ الله ﷺ مرَّ برجلٍ ساجدٍ وهوَ يَنطلِقُ إلى الصَّلاةِ، فقضَى الصَّلاةَ ورَجعَ علَيه وهوَ ساجدٌ، فقامَ النَّبيُّ ﷺ فقالَ: مَن يَقتلُ هَذا؟ فقامَ رجلٌ فحَسَرَ عن يدَيه فاختَرَطَ سَيفَه وهزَّه ثمَّ قالَ: يا نبيَّ الله! بأَبي أنتَ وأمِّي! كيفَ أَقتلُ رجلًا ساجدًا يَشهدُ أن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا عبدُه ورَسولُه؟ ثمَّ قالَ: مَن يَقتلُ هَذا؟ فقامَ رجلٌ فقالَ: أنا، فحَسرَ عن ذِراعَيه واختَرطَ سَيفَه وهزَّه حتَّى أَرعدَتْ يدُه، فقالَ: يَا نبيَّ الله! كيفَ أَقتلُ رجلًا ساجدًا يَشهدُ أن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا عَبدُه ورَسولُه؟ فقالَ النَّبيُّ ﷺ: والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيدِه! لَو قتَلتُموه لَكانَ أوَّلَ فِتنةٍ وآخِرَها»، والَّذي يدلُّ على أنَّ هَذا الرَّجلَ واحدٌ من الخَوارج أنَّه جاءَ ذكرُه معَهم في روايَة في «مسنَد أحمَد» (١١١١٨) بسنَدٍ حسَّنَه الألباني في «السِّلسلَة الصَّحيحَة» (٥/ ٦٥٩) عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ أنَّ أَبا بكرٍ جاءَ إلى رَسولِ الله ﷺ فقالَ: «يَا رَسولَ الله! إنِّي مَررتُ بوادِي كَذا وكَذا فإذَا رجلٌ مُتخشِّعٌ حسَنُ الهيئةِ يُصلِّي، فقالَ له النَّبيُّ ﷺ: **اذهَبْ إلَيه فاقتُلْه**، قالَ: فذهبَ إلَيه أبو بَكرٍ، فلَمَّا رآه على تلكَ الحالِ كرِهَ أن يَقتلَه، فرَجعَ إلى رَسولِ الله ﷺ قالَ: فقالَ النَّبيُّ ﷺ لعُمرَ:

اذهَبْ فاقتُلْه، فذَهبَ عُمرُ فرآه على تلك الحالِ الَّتي رَآه أبو بكرٍ، قالَ: فكرِهَ أن يَقتلَه، قالَ: فرَجعَ فقالَ: يَا رسولَ الله! إنِّي رَأيتُه يُصلِّي مُتخشِّعًا فكَرهتُ أن أَقتلَه، قالَ: يَا عليُّ! اذهَبْ فاقتُلْه، قالَ: فذَهبَ عليٌّ فلَمْ يرَه، فرجَعَ عليٌّ فقالَ: يَا رسولَ الله! إنَّه لَمْ يره، قالَ: فقالَ النَّبيُّ ﷺ: **إنَّ هَذا وأَصحابَه يَقرأُونَ القُرآنَ لَا يُجاوزُ تَراقيَهم، يَمرُقونَ مِن الدِّينِ كما يَمرقُ السَّهمُ مِن الرَّميَّةِ، ثمَّ لَا يَعودونَ فيه حتَّى يَعودَ السَّهمُ في فُوقِه، فاقتُلوهم هُم شرُّ البريَّةِ**».

والدَّليل على أنَّ هَذا الرَّجلَ أُتِي من غُرورِه ما رواه معمر في «جامعه» المطبوع مع «مصنف عبد الرَّزَّاق» (١٠/ ١٥٥) وأبو يعلَى (٣٦٦٨) والآجرِّي في «الشَّريعة» (٤٩-٥٠) والضِّياء في «المختارة» (٢٤٩٧-٢٤٩٩) وأبو نُعيم (٣/ ٢٢٦) عن أَنس بن مالكٍ قالَ: «ذُكرَ لرَسولِ الله ﷺ رجلٌ ذو نِكايةٍ للعدوِّ واجتِهادٍ (في رِوايةِ الضِّياءِ: واجتِهادٍ في العِبادةِ)، فقالَ رَسولُ الله ﷺ: ما أَعرفُ هَذا، فقالُوا: يا رَسولَ الله! نَعتُه كَذا وكَذا، فقالَ رَسولُ الله ﷺ: ما أَعرفُه، فبَينَا هُم كَذلكَ إذ طَلع الرَّجلُ، فقالُوا: هَذا يَا رَسولَ الله! فقالَ: ما كُنتُ أَعرفُ هَذا، هَذا أَوَّلُ قَرنٍ رَأيتُه في أمَّتي، إنَّ به لسَفعةً من الشَّيطانِ، قالَ: فلمَّا دنَا الرَّجلُ سلَّمَ، فردَّ عليه القومُ السَّلامَ، قالَ: فقالَ له رَسولُ الله ﷺ: نَشدتُك بالله! **هَل حدَّثتَ نَفسَك حينَ طلعتَ علَينا أَنْ ليسَ في القومِ أحدٌ أَفضلَ مِنك**؟ قالَ: اللَّهمَّ نعَمْ! قالَ: فدخلَ المسجدَ يُصلِّي، قالَ: فقالَ رَسولُ الله ﷺ لأبي بَكرٍ: قُمْ فاقتُلْه، فدخلَ أبو بكرٍ المسجدَ فوَجدَه قائمًا يُصلِّي، فقالَ أبو بكرٍ في نَفسِه: إنَّ للصَّلاةِ لحُرمةً وحقًّا، ولو استَأمرتُ رَسولَ الله ﷺ؟ قالَ:

فجاءَ إلَيه فقالَ له: أَقتلتَه؟ قالَ: لَا؛ رَأيتُه قائمًا يُصلِّي ورَأيتُ للصَّلاةِ حقًّا وحُرمةً، وإن شِئتَ أن أَقتلَه قتلتُه؟ قالَ: لستَ بصاحبِه، ثمَّ قالَ: اذهَبْ يا عُمر فاقتُلْه، قالَ: فدخلَ عُمرُ المسجدَ فإذَا هوَ ساجدٌ، قالَ: فانتَظرَه طَويلًا، ثمَّ قالَ في نَفسِه: إنَّ للسُّجودِ لحقًّا، ولو أنِّي استَأمرتُ رَسولَ الله ﷺ، فقَد استَأمرَه مَن هوَ خيرٌ منِّي، قالَ: فجاءَ إلى رَسولِ الله ﷺ فقالَ: أَقتلتَه؟ قالَ: لَا؛ رَأيتُه ساجدًا ورَأيتُ للسُّجودِ حقًّا، وإن شئتَ يا رَسولَ الله أن أَقتلَه قَتلتُه؟ قالَ: لستَ بصاحبِه، قُمْ يا عليُّ فاقتُلْه، أنتَ صاحبُه إن وَجدتَه، قالَ: فدخلَ عليٌّ رضي الله عنه المسجدَ فلَم يجِدْه، قالَ: فَرجعَ إلى رَسولِ الله ﷺ فأَخبرَه، فقالَ رَسولُ الله ﷺ: لو قُتلَ اليومَ ما اختلفَ رَجلانِ مِن أمَّتي حتَّى يَخرجَ الدَّجَّالُ»، وقد رواه أحمد (١١١١٨) عن أبي سَعيد بنَحوه، وكذا (٢٠٤٣١) وابن أبي عاصم في «السنة» (٩٣٨) والحارث بن أبي أُسامَة كما في «بغية الباحث» للهيثمي (٧٠٣) عن أبي بَكرة بنَحوه، ونقلَ محقِّق المصدرِ الأخيرِ تَصحيح البُوصِيري له، وجوَّد ابنُ حجرٍ إسنادَه في «الفتح» (١٢/ ٢٩٨).

فبانَ من هَذا أنَّ القَومَ أُتُوا من قِبَلِ غُرُورهم، وقد أدَّى بهم غُرورُهم إلى احتقَار أعمال غَيرهم، بل واتِّهامهم والنَّيْل منهم، ويُبيِّنُ ذلكَ أنَّهم كانُوا يُطبِّقون أحكامَهم الجائرَةَ على مَن شهدَ الكتابُ والسُّنَّةُ له بالحُسْنى، ألَا وهم الصَّحابةُ رضي الله عنهم، فقد يَقرأُون آيات من خَير الكَلام الَّذي هوَ القُرْآن ويَفهَمونها على غَير فَهْمها، ثمَّ يُنزِّلونها على الصَّحابَة ذمًّا لهم وتجريحًا، ومثالُه ما جاءَ عن أبي زرير قالَ: «لَمَّا وقعَ التَّحكيمُ ورجعَ عليٌّ مِن صِفِّين رَجعوا مُبايِنين له، فلمَّا انتهَوا إلى

النَّهرِ أَقاموا به فدَخلَ عليٌّ في النَّاس الكوفةَ ونزَلوا بحَروراء، فبَعثَ إليهم عبدَ الله بنَ عبَّاس، فرَجعَ ولم يَصنَع شَيئًا، فخرجَ إلَيهم عليٌّ فكلَّمَهم حتَّى وَقعَ الرِّضا بينَه وبينَهم، فدخَلوا الكوفةَ فأَتاه رجلٌ فقالَ: إنَّ النَّاسَ قد تحدَّثوا عنك (لعلَّها: أنَّك) رَجعتَ لهم عن كُفرِك، فخَطبَ النَّاسَ في صَلاةِ الظُّهرِ فذَكرَ أمرَهم فعابَه، فوَثَبوا مِن نَواحِي المسجدِ يَقولونَ: لَا حُكمَ إلَّا لله، واستَقبلَه رَجلٌ مِنهم واضعٌ إصبعَيه في أُذنَيه فقالَ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الزمر: ٦٥]، فقالَ عليٌّ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[الروم: ٦٠]» رواه ابن جَرير في «تاريخه» (٣/ ١١٤) وصحَّحَه الألباني في «الإرواء» (٢٤٦٨)، فتأمَّلْ تكفيرَهم خَليفةَ المسلمِين أبا السِّبطَين عليًّا ﷺ، فجمَعوا بين ثلاثِ سيِّئاتٍ عَظيمةٍ هيَ: العُجبُ بأنفسِهم، والتَّكفيرُ لغَيرِهم من خيرةِ المسلمِين، واستِحلالُ دِمائِهم، كما روَى حُذَيفة ﷺ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ أَخْوفَ ما أَخافُ علَيْكم رَجلٌ قرأَ القُرآنَ، حتَّى إذَا رُئِيَت بهجَتُه علَيْه وكانَ رِدْءًا للإسلَامِ، انسلَخَ مِنه ونبَذَه وَراءَ ظَهْره، وسَعَى على جارِهِ بالسَّيْف ورمَاه بالشِّرْك**، قلتُ: يا نبيَّ الله! أَيُّهما أَوْلى بالشِّرْك: الرَّامي أو المَرْمي؟ قالَ: **بَل الرَّامي**» روَاه البُخَاري في «التَّاريخ» (٢٩٠٧) وابن حبَّان (٨١) وحسَّنَه الألباني في «الصَّحيحة» (٣٢٠١).

ومن الشَّواهدِ على جَهلِهم وعُجبِهم بأَنفسِهم وغلوِّهم في الدِّين في آنٍ واحدٍ ما رواه البخاري (٦١٢٧) عَن الأَزرقِ بن قيسٍ قالَ: «كنَّا على شاطئِ نهرٍ بالأَهوازِ قد نضَبَ عنه الماءُ[(١)]، فجاءَ أبو بَرزةَ الأَسلميُّ على فَرسٍ، فصلَّى وخلَّى فَرسَه، فانطلقَت الفرسُ فتَركَ صَلاتَه وتبِعَها حتَّى أَدركَها فأَخذَهَا، ثمَّ جاءَ فقضَى صَلاتَه وفِينَا رجلٌ له رأيٌ، فأَقبلَ يقولُ: انظُروا إلى هَذا الشَّيخِ ترَكَ صَلاتَه مِن أَجْل فرَسٍ!! فأَقبلَ فقالَ: مَا عنَّفنِي أحدٌ منذُ فارَقتُ رَسولَ الله ﷺ، وقالَ: إنَّ مَنزِلي مُتراخٍ، فلَو صلَّيتُ وترَكتُه لَم آتِ أهلِي إلى اللَّيلِ، وذَكرَ أنَّه قد صحِبَ النَّبيَّ ﷺ فرأَى مِن تَيسيرِه»، وبيَّنَت الرِّوايةُ الأُخرى عندَه (١٢١١) أنَّ الرَّجلَ المُنتقِدَ خارجيٌّ، ولفظُها عَن الأَزرقِ بنِ قَيسٍ قالَ: «كنَّا بالأَهوازِ نُقاتلُ الحَروريَّةَ، فبينَا أنا على جُرُفِ نهَرٍ إذَا رجلٌ يُصلِّي، وإذَا لجِامُ دابَّتِه بيدِه، فجَعلَت الدَّابَّةُ تُنازِعُه وجَعلَ يَتْبعُها، قالَ شُعبةُ: هوَ أبو بَرزةَ الأَسلميُّ، فجَعلَ رجلٌ مِن الخوارِجِ يقولُ: اللَّهمَّ افعَلْ بهَذا الشَّيخِ!! فلمَّا انصَرفَ الشَّيخُ قالَ: إنِّي سَمعتُ قولَكم، وإنِّي غَزوتُ مع رسولِ الله ﷺ ستَّ غَزواتٍ أوسبعَ غزَواتٍ وثمانِيَ، وشَهدتُ تَيسيرَه، وإنِّي إن كنتُ أن أُراجعَ مع دابَّتي أَحبُّ إليَّ مِن أن أَدعَها ترجِعُ إلى مألفِها[(٢)] فيشقُّ عليَّ».

---

(١) قالَ ابنُ حجَر في «الفتح» (٣/ ٨١) في معنَى (الأَهْواز): «بلدةٌ مَعروفةٌ بينَ البَصْرة وفارس، فُتحَت في خلافةِ عُمر»، وقالَ في معنى (نَضَبَ): «أي زالَ».

(٢) في «الفتح» (٣/ ٨٢): «أي المَوضع الَّذي أَلِفَته واعتادَتْه».

ففي هَذه الرِّوايةِ صورةٌ واضحةٌ عن العُجْب الَّذي أُصيبَ به الخَوارجُ بسببِ الغلوِّ في الدِّين الَّذي سببُه الجهلُ بالتَّيسير الَّذي جاءَ به هَذا الدِّينُ، فيَجعَلونَ ما ليسَ بحَرامٍ حَرامًا، ممَّا جعلَ هَذا الخارجيَّ يَتجرَّأُ على مَقام صحابيٍّ جَليلٍ، مع أنَّ أبا بَرزة ذكرَ له أنَّه لم يُعنِّفه أحدٌ منذُ وفاةِ رَسولِ الله ﷺ إلى يومِه ذاكَ، أي إلى سنةِ (٦٥هـ) كما ذكرَه محمَّدُ بن قُدامة الجَوهري في كتابِه «أخبار الخَوارج» كما في «الفتح» (٣/ ٨٢)، ولكنَّ الخَوارجَ يُعنِّفون لأوَّل وَهلةٍ، ومِن غيرِ تبيُّنٍ ولَا أناةٍ ولَا تَحسين ظنٍّ!

وقد جاءَ في روايةِ أحمد (١٩٧٧٠) وأبي داود الطيالسي (٩٦٩- نَحوه) ومن طَريقه رواه أبو نُعَيم في «مَعرفَة الصَّحابَة» (٦٤٢٢) بسندٍ صَحيحٍ أنَّ ابن قيسٍ قالَ عن أبي بَرزة: «وقد جَعلَ اللِّجامَ في يدِه وجَعلَ يُصلِّي فجعلَت الدَّابَّةُ تَنكصُ وجَعلَ يَتأخَّرُ معَها، فجَعلَ رجلٌ مِن الخوارِجِ يَقولُ: اللَّهمَّ اخْزِ هَذا الشَّيخَ؛ كيفَ يُصلِّي...»!! وذكرَ ابن حجَر أيضًا أنَّ الإسماعيلي زادَ في روايتِه: قالَ: فقلتُ للرَّجل: «ما أرَى اللهَ إلَّا مُخزيَك؛ شتمتَ رجلًا من أصحابِ رَسولِ الله ﷺ»!! وهي عندَ ابن عساكر في «تاريخ دِمَشق» (٦٢/ ٩٥)، وذكرَ أيضًا أنَّه جاءَ في رِوايةِ محمَّد بن قُدامة المُشار إلَيها قَريبًا أنَّ الخارجيَّ قالَ: «ألَا ترَى إلى هَذا الحِمار»؟!!!

قلتُ: نَسألُ اللهَ العافيةَ! وفي سِياق أحمد ما يدلُّ على أنَّ أبا بَرزةَ لم يُفارِقْ صلاتَه، وإنَّما كانَ يتأخَّر ويتقدَّم بسببِ حركةِ الدَّابَّة، واللهُ أَعلمُ.

ومِن الأَخبارِ الَّتي تبيِّن غُرورَ الخَوَارج وتَزكيتَهم أَنفسَهم مَا روَاه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٢٣١٧) عن أبي العبَّاس الأصمِّ يَقولُ: «طافَ خارِجيَّان بالبيتِ، فقالَ أحدُهما لصاحبِه: لَا يَدخلُ الجنَّةَ مِن هَذا الخَلقِ غيرِي وغيرُك! فقالَ له صاحبُه: جنَّةٌ عَرضُها كعَرض السَّماءِ والأرضِ بُنيَت لي ولك؟! قالَ: نعَمْ! فقالَ: هيَ لك!! وترَكَ رَأيَه».

سُبحانَ الله! لقد جمَعَ المِسكينُ بينَ ثلَاثِ سيِّئاتٍ: التَّكفيرُ والعُجْب والحُكمُ على الله بإِدخالِه وصاحبِه الجنَّة!!! ولذَلكَ كانُوا لَا يُؤاخُونَ إلَّا مَن كانَ على مَشارِبهم أو مَن طمِعوا فيه أن يُؤيِّدهم، روَى أبو نعيم (٤/ ١٣) بإسنادٍ حسنٍ عن ابن طاوس قالَ: «جاءَ رَجلٌ من الخَوارج إلى أبي، فقالَ: أنتَ أخِي؟ فقالَ: أخِي مِن بين عِبادِ الله؟! المُسلِمون كلُّهم إخوةٌ»، فأَنكرَ علَيه تخصيصَه بالأُخوَّة.

ومِن أَخبارِ غُرورِهم وتَزكيتِهم أَنفسَهم ما نقلَه الدُّكتورُ إحسان عبَّاس في «أخبار الخوارج» (ص ٢٠) أنَّ عِمران بن حطَّان أحبَّ امرأةً من الخَوارج وأَحبَّته، وكانَت فائقةَ الجمالِ وهو في غايةِ الدَّمامةِ، فذهبَ في جَماعةٍ من أصحابِه إلى زَوجها يَطلبُ منه أن يُطلِّقها، فطلَّقها وتزوَّجها عِمران، فكانَ من غُرورِها أنَّها كانَت تَقولُ له: «أنا وأنتَ في الجنَّة؛ لأنَّك أُعطيت مِثلي فشَكرتَ، وأُعطيتُ مِثلَك فصَبرتُ»!!

وقد سَمعتُ من أَفراخِهم في هَذا العَصر شابًّا يُزهقُ الأَرواحَ المَعصومةَ ويَقولُ: «نَحنُ سَمَّانَا اللهُ: جُنود الرَّحمَن»!! قالَ اللهُ ﷻ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

٢- ومِن أَماراتِ فَسادِ النِّية الاهتِمامُ بإصلَاح اللِّسانِ مع إِهمالِ الجَنانِ: مَعلومٌ أنَّ تَقويمَ اللِّسانِ بتَصحيحِ أَدائِه اللُّغويِّ يُسهِّل على صاحبِه فهمَ الشَّريعةِ؛ لأنَّ اللهَ قالَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ﴾ [يوسف: ٢]، كما أنَّ تَقويمَه بحُسن البَيانِ يَزيدُ الحقَّ جَمالًا ووُضوحًا لدَى المخاطَبين، كما أنَّ الباطلَ قد يَروجُ بالقَولِ المزخرَفِ، كما قيلَ:

في زُخرفِ القولِ تزيينٌ لباطلِهِ ... والحقُّ قد يَعترِيه سوءُ تعبيرِ

تقولُ هذا مجاجُ النَّحلِ تمدَحُـهُ ... وإن ذمَمْتَ فقُلْ قَيءُ الزَّنابيرِ

لكنَّ الحرصَ على البُروزِ للنَّاس بلغةٍ فَصيحةٍ قويَّةٍ مع إغفالِ الأصلِ الَّذي خُلِق له ألَا وهوَ عِبادةُ الله وحدَه هوَ بمَثابةِ الاشتِغالِ بالوَسيلةِ عن الغايةِ، وقد جعلتُه من الأَماراتِ على فَسادِ النِّيَّة؛ لأنَّ فيه التَّزيُّنَ للنَّاس بالكلامِ المعسولِ واللَّباقةِ اللِّسانيَّةِ وقد لَا يُعنَى بتَصحيح عَقيدتِه عِنايتَه بلِسانِه، فكم هُم الَّذينَ وفِّقوا لصَوابِ اللِّسانِ لم يوَفَّقوا لصَوابِ الاعتِقادِ؛ لأنَّهم يَخافونَ أن يُؤْثَرَ عنهم لحنٌ في القولِ ولَا يَخافونَ أن يَلقَوا اللهَ بلحنٍ في مُعتقدٍ يُخالِفونَ فيه المهاجِرين والأَنصارَ، وهوَ العلامةُ الدَّالَّة على أنَّ صاحبَ هَذا الشَّأنِ خاطبٌ رضَا النَّاس لَا رِضا الرَّبِّ ﷻ، مُتزيِّنٌ للدُّنيَا غير مُكترثٍ بزِينتِه ليومِ المعادِ، وهوَ بهذا

طامعٌ في الحظوةِ اللِّسانيَّة عندَهم بمَدحِهم إيَّاه وإعظامِ قدُارتِه البيانيَّة، روَى البيهقي في «الشُّعَب» (١٧٠٨) عن عليِّ بن الفُضيلِ أنَّه قالَ لأَبِيه: «يا أبَتِ! مَا أَحْلَى كلامَ أَصحابِ محمَّدٍ ﷺ! قالَ: يَا بُنيَّ! وتَدرِي لِمَ حَلَا؟ قالَ: لَا يَا أَبت!قالَ: لأَنَّهم أَرادُوا بِهِ اللهَ تَباركَ وتَعالَى».

ولذلكَ كانَ السَّلفُ يَحْذرونَ من هَذا المدخلِ الخفيِّ للشَّيطانِ، ففي «السِّيَر» للذَّهبيِّ (٨/ ٤٣٩) عن أبي عبدِ الله الأَنطاكي قالَ: «اجتَمعَ الفُضيلُ والثَّوريُّ فتَذاكرَا، فرَقَّ سُفيانُ وبكَى، ثمَّ قالَ: أَرجُو أن يَكونَ هَذا المجلسُ علَينا رَحمةً وبَركةً، فقالَ له الفُضيلُ: لكنِّي - يا أبا عَبدِ الله!- أَخافُ أن لَا يَكونَ أضرَّ علَينا مِنه؛ أَلَستَ تخلَّصتَ إلى أَحسنِ حَديثِك، وتَخلَّصتُ أنا إلى أَحسنِ حَديثِي؟ فتَزيَّنتَ لي وتَزيَّنتُ لك؟! فبكَى سُفيانُ وقالَ: أَحيَيتَني أَحياكَ اللهُ»!

ولذلكَ فإنَّ موتَ عَجوزٍ أميَّةٍ على اعتِقادٍ صَحيحٍ محقَّقٍ أَسلمُ عندَ الله من لِسانٍ زَمخشريٍّ مزوَّقٍ، ولذَلكَ قالَ إبراهيمُ النَّخَعي رَحِمَهُ اللهُ: «إن كانُوا ليَكرَهون - إذَا اجتمعوا - أن يُخرِج الرَّجلُ أَحسنَ حَديثِه أو أَحسنَ ما عندَه» روَاه ابن المبارَك في «الزُّهد» (١٣٩) وهنَّاد في «الزُّهد» (٨٨١) بإسنادٍ صَحيحٍ، وقد حمَلوه على معنَى ما نحنُ بصددِه ولذلكَ بوَّب له ابنُ المبارَك بقَولِه: «باب العمَل والذِّكر الخفيِّ»، وهنَّادٌ بقَولِه: «باب إخفاءِ العمَل»، ورَواه الخطيب في «الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع» (١٢٩٥) وقالَ: «عنَى إبرَاهيمُ بالأَحسنِ الغَريبَ؛ لأنَّ الغَريبَ غيرَ المألُوفِ يُستحسَن أَكثرَ مِن المشهورِ المعرُوفِ،

وأَصحابُ الحديثِ يُعبِّرون عن المناكِيرِ بهذِه العِبارةِ»، والحَقيقةُ أنَّه ليسَ بينَ التَّفسيرَين تَنافرٌ؛ لأنَّ عادةَ مَن يَحرِص على الغَريبِ أنَّه يَطلبُ بالغَرابةِ الشُّهرةَ ولفْتَ وُجوهِ السَّامعِين إلَيه، واللهُ العاصمُ.

ولذلكَ وَصفَ اللهُ المنافِقين - الَّذينَ مُصيبتُهم مِن جهةِ فَسادِ قُلوبِهم - بأنَّهم يَسحَرون النَّاسَ بألسنتِهم فقالَ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وهَذا غايةُ ما يوصَف به المولَعُ بتحسينِ ظاهرِه دونَ باطنِه، مع أنَّهم كما قالَ تَعَالَى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

وهَذه الخَصلةُ يُشارِكُهم فيها الخَوارجُ الَّذينَ أَخبرَ النَّبيُّ ﷺ عنهم أنَّهم يَزْعمونَ أنَّهم يَدْعون النَّاسَ إلى كتاب الله معَ أنَّهم ليسُوا منه في شيء بسبَب جَهْلهم به، فعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ وأنسِ بن مالكٍ عن رَسولِ الله ﷺ قالَ: «**سيَكونُ في أُمَّتي اختِلافٌ وفُرقةٌ، قومٌ يُحسِنونَ القِيلَ ويُسيئونَ الفعلَ، يَقرأُونَ القرآنَ لَا يُجاوزُ تَراقيَهم، يَمرُقونَ مِن الدِّينِ مُروقَ السَّهمِ مِن الرَّميَّةِ، لَا يَرجِعونَ حتَّى يَرتدَّ على فُوقِه، هُم شرُّ الخَلقِ والخليقةِ، طوبَى لمن قَتلَهم وقَتلُوه، يَدْعون إلى كِتابِ الله ولَيسوا منه في شيءٍ، مَن قاتلَهم كانَ أَولَى بالله مِنهُم**» رواه أبو دَاود (٤٧٦٥) وصحَّحَه الألبانيُّ في تحقيقِه له.

قالَ ابنُ حجَر في «الفتح» (١٢/ ٢٨٧): «والمرادُ القَوْل الحسَنُ في الظَّاهر، وباطنُه على خلَاف ذلكَ، كقَوْلهم: لَا حُكمَ إلَّا لله».

ولذلكَ وُصف الخوارجُ في غيرِ ما حَديثٍ بأنَّهم خُطَباء ولَيْسوا فُقَهاء، ومِن ذلكَ أنَّ الرَّسولَ ﷺ وصَفَهم بأَنَّهم «**يَقولُونَ مِن خيرِ قولِ البريَّةِ**» رَواه البُخاري (٣٦١١) ومسلم (٢٤٢٧)؛ لأنَّهم كما قالَ: «**يَقرأُونَ القُرآنَ لَا يُجاوزُ تَراقيَهم**»، وفي روايةٍ عند مُسلم: «**يَقولُونَ الحقَّ بألسنتِهم لَا يَجوزُ هَذا مِنهم وأَشارَ إلى حَلقِه، مِن أَبغضِ خَلقِ الله إلَيه**»، فهُمْ يَحفَظونَ كتابَ الله ويُقيمونَ حُروفَه، لكن لَا يَفقهُون حُدودَه، ولهم قِراءةٌ به مؤثِّرةٌ لكن مع تَحريفِ مَعانِيه، ولذَلكَ جاءَ في روايَةٍ عندَ البخاري (٤٣٥١) ومُسلم (٢٤١٥): «**إنَّه سيَخرجُ مِن ضِئْضِئِ هَذا قَومٌ يَتلُونَ كِتابَ الله رَطْبًا لَا يُجاوِزُ حَناجرَهُم**»، قالَ المُباركفوري في «التُّحفَة» (٦/ ٣٥٤): «وكانَت أوَّل كلمةٍ خَرَجوا بها قَولهم: (لَا حُكمَ إلَّا لله)، وانتَزَعوها من القرآنِ وحمَّلُوها غيرَ محملِها»، فانظُرْ إلى هَذا وإلى ما علَيه جَماعاتُ التَّكفير اليومَ، وقُلْ كما قالَ الرَّبُّ ﷻ: ﴿تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[البقرة: ١١٨].

ولقد اتَّضحَ من هَذه الأَحاديثِ أنَّ الخَوارجَ أصحابُ عِبادةٍ وخَطابةٍ، ولعلَّه لَمَّا كانَ من عادةِ النَّاس التَّأثُّر بهذَين الوَصفَين، وأن يَدخلَ علَيهم الدَّاخلُ مِنهما أَكثر مِن غيرِها، فقَد خصَّ النَّبيُّ ﷺ الخَوارجَ بالتَّحذير، ونبَّهَ ﷺ من أوصافِهم عَلى هذَين الوَصفَين، كما روَى معمر في «الجامع/ مصنَّف عبد الرَّزَّاق» (١١/ ٤٤٧) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٧٨٦) وغيرُهما بسندٍ صَحيحٍ عن عُروَة بن الزُّبَيرِ أنَّ عائشةَ كانَت تَقولُ: «والله! مَا احتقَرتُ أَعمالَ أَصحابِ رَسولِ الله ﷺ حتَّى يَنجُمَ القرَّاءُ الَّذينَ طعَنُوا على عُثمانَ، فقالُوا قَولًا لَا نُحسنُ مِثلَه، وقَرأُوا قِراءةً لَا نَقرأُ مِثلَها، وصلَّوا صَلاةً لَا نُصلِّي مِثلَها، فلمَّا

تَذكَّرتُ إذًا - والله!- مَا يُقارِبونَ عمَلَ أَصحابِ رَسولِ الله ﷺ، فإذَا أَعجبَكَ حُسنُ قولِ امرئٍ مِنهم فقُلْ: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[التوبة: ١٠٥] ولَا يَستخِفَّنَّك أَحدٌ».

وقد ذكَرَ الشَّاطبيُّ في «الموافقات» (٣/ ٣١٨) قولَ عُمر رضي الله عنه: «ثَلاثٌ يَهدِمْن الدِّينَ: زلَّةُ عالِمٍ، وجِدالُ مُنافقٍ بالقُرآنِ، وأَئمَّة مُضلُّون» أَخرجَه الفريابي في «صِفة النِّفاق وذمِّ المنافقين» (٣٠) وابن عبدِ البرِّ في «جامِع بَيان العِلم وفَضله» (٩٥٢) بإسنادٍ صَحيحٍ، ثمَّ قالَ: «وأمَّا الجدالُ بالقُرآنِ فإنَّه مِن اللَّسِن الألَدِّ مِن أَعظَم الفتنِ؛ لأنَّ القُرآنَ مهيبٌ جدًّا، فإن جادَل به مُنافقٌ على باطلٍ أَحالَه حقًّا وصارَ مظنَّةً للاتِّباع على تَأويل ذلكَ المجادلِ، ولذَلك كانَ الخَوارجُ فِتنةً على الأمَّة إلَّا مَن ثَبَّت اللهُ لأنَّهم جادَلوا به على مُقتضَى آرائِهم الفاسدةِ ووثَّقوا تَأويلاتِهم بمُوافقةِ العَقل لها فصارُوا فِتنةً على النَّاس، وكَذلك الأئمَّةُ المضلُّون؛ لأنَّهم بها ملكوا مِن السَّلطنةِ على الخَلْق وقَدروا على ردِّ الحقِّ باطلًا والباطلَ حقًّا وأَماتُوا سنَّة الله وأَحيَوا سُننَ الشَّيطانِ».

أي إنَّ حُسنَ أَلفاظِهم قد يُغطِّي على سُوءِ فِعالِهم، كما ذكَرَ ابن حجَر في ترجمةِ الحجَّاج بن يُوسف في «تهذيب التَّهذيب» عن مالك بن دينار أنَّه قالَ: «سمعتُ الحجَّاجَ يَخطبُ فلَم يزَل بيانُه وتخلُّصُه بالحُجج حتَّى ظَننتُ أنَّه مَظلومٌ»!

وقد ذكرَ المبرد في «الكامل» (٣/ ١٧١) أنَّ أحدَ الخَوارج تكلَّم عندَ عبدِ المَلك بن مروان الخليفة الأمويِّ حتَّى شكَّكَه في رأيِه وكادَ يَستَهويه إلَيه، فلَمَّا فطِن له همَّ بقَتلِه، ثمَّ أَعرضَ عن ذلكَ وحبسَه، وقالَ: «لولَا أن تُفسِد بألفاظِك أكثرَ رَعيَّتي ما حَبستُك، ثمَّ قالَ عبدُ الملك: مَن شكَّكَني ووَهَّمَني حتَّى مالَت بي عِصمةُ الله فغيرُ بعيدٍ أن يَستَهويَ مَن بعدِي، وكان عبدُ الملك مِن الرَّأي والعِلم بمَوضع».

وذكرَ المبرّدُ أيضًا (٣/ ١٨٢) ما يدلُّ على انخِداع العامَّة بعِبادة الخَوارج وحُسنِ مَنطقِهم فقالَ: «ثمَّ إنَّ عُبَيدَ الله - أي ابن زِياد - تتبَّعَ الخوارجَ فحبسَهم، وحبسَ مِرداسًا (وهوَ من رُؤوسِهم)، فرأَى صاحبُ السِّجن شدَّةَ اجتهادِه وحلَاوةَ مَنطقِه فقالَ له: إنِّي أرَى لك مَذهبًا حسنًا، وإنِّي لَا أُحبُّ أن أُولِيَك مَعروفًا؛ إن تركتُك تَنصرفُ ليلًا إلى بيتِك، أتُدلِج إليَّ[1]؟ قال: نعَمْ! فكانَ يَفعلُ ذلك به.

ولجَّ عُبيدُ الله في حَبس الخَوارج وقتلِهم، فكُلِّم في بَعض الخَوارج فلَجَّ وأبَى، وقالَ: أقمَعُ النِّفاقَ قبلَ أن يَنجمَ؛ لَكلامُ هؤلَاء أَسرعُ إلى القلوبِ من النَّار إلى اليَراع»!

(١) يُريدُ: أتَرجعُ إليَّ عندَ السَّحَر؟

نَماذجُ مِن خُطبِ الخوارجِ وأَشعارِهم المؤثِّرة:

وكانُوا ذَوي أَشعارٍ مؤثِّرةٍ، يَنطقُ الشَّيطانُ على لِسانِ أحدِهم بما يُهيِّج نُفوسَ العاطفيِّين من ضُعفاءِ البَصيرةِ، والخَوارجُ لَا فِقهَ في كلَامِهم، وإنَّما يَستُرون عَوراتِهم العِلميَّة بتَزيينِ أَلفاظِهم، وأُحبُّ أن أُطْلع القارئَ على شيءٍ من ذلكَ، منه ما ذكرَه ابنُ المبرّد (٣/ ١٣٨) عن بَعضِهم أنَّه أنشدَ في التَّحريض على المَوت:

ومَن يَخشَ أَطرافَ المنَايَا فإنَّنا ... لَسْنا لهنَّ السَّابغات مِن الصبرِ

فإنَّ كَريهَ الموتِ عذبٌ مَذاقُه ... إذَا ما مزَجْناه بطيبٍ مِن الذِّكرِ

وما رُزِق الإنسانُ مِثلَ مَنيَّةٍ ... أراحَت مِن الدُّنيَا ولم تُخْزِ في القَبرِ

وذكرَ أيضًا (٣/ ١٩٢) عن الرهين المُرادي قولَه يُعزِّي نفسَه في بَعض مَن قُتل مِن أهل مَذهبِه كحرقُوص ومِرداس وابن منيح الَّذينَ قتلَهم عليٌّ رضي الله عنه:

يا نفسُ قد طالَ في الدُّنيَا مُرواغَتي ... لَا تَأمننَّ لصَرفِ الدَّهرِ تَنقيصَا

إنِّي لبائعٌ ما يَفنَى لِباقيَةٍ ... إن لم يَعُقْني رَجاءُ العَيش تَربيصَا

وأَسأَلُ اللهَ بيعَ النَّفسِ مُحتسبًا ... حتَّى أُلاقي في الفِردَوس حَرقُوصَا

وابنَ المنيح ومِرداسًا وإخوَتَه ... إذ فارَقوا زَهرةَ الدُّنيَا مَخاميصَا

ومِمَّا نقلَه عنهم الدُّكتورُ إحسان عبَّاس في «شعر الخوارِج» (ص ١٠) قولُ البُهلول:

مَـن كـانَ يَكـرهُ أن يَلقَـى مَنيَّتَـه ... فالموتُ أَشهَى إلى قَلبي مِن العسَـل

فـلَا التَّقـدُّم في الهَيجـاءِ يعجلُنـي ... ولَا الحـذار يُنجِيني مِـن الأجَـل

وممَّا نقلَه عن قَطَري بن الفُجاءَة قوله (ص١٨):

لَا يَـركنَنَّ أحـدٌ إلى الإحجـامِ ... يـومَ الـوغَى مُتخوِّفًـا لِحِمامِ

فلقَـد أَراني للرِّمـاحِ دَريئـةً ... مِـن عـن يَمِيـنـي تـارةً وأَمـامِي

حتَّى خضَّبتُ بـما تحـدَّرَ مِن دَمـي ... أَكنـافَ سَرْجـي أو عنـانَ لِجامِي

ثمَّ انصرفتُ وقد أَصبتُ ولم أصب ... جِـذعَ البَصـيرةِ قـارحَ الإقـدامِ

وفيه (ص١٨) وفي «الوافي بالوفيات» للصَّلاح الصَّفَدي (٢٤/ ١٨٧) قولُه أيضًا وهوَ يُخاطبُ نَفسَه ويَحثُّها على الجِهادِ:

أَقـولُ لهـا وقـد طـارَت شُـعاعًا ... مِـن الأَبطـالِ وَيحَـكِ لَا تُراعِـي

فإنَّـكِ لـو سَـألتِ بَقـاءَ يـومٍ ... على الأجَلِ الَّـذي لـكِ لم تُطـاعِي

فصـبرًا في مَجـالِ المـوتِ صَـبرًا ... فـما نيـلَ الخلـودُ بمُسـتَطاعِ

ولَا ثـوبَ الحيـاةِ بثَـوبِ عـزٍّ ... فيطوى عـن أخِـي الخنع اليَراعِ

سَـبيل المـوتِ غايـةُ كـلِّ حـيٍّ ... وداعِيـه لأهـلِ الأَرضِ داعِ

ومَـن لَا يغتـبط يَسـأَم ويَهـرَم ... وتُسْـلمه المَنُـونُ إلى انقِطـاعِ

ومـا للمَـرءِ خـيرٌ في حَيـاةٍ ... إذَا مـا عُـدَّ مِـن سـقَطِ المتـاعِ

وقالَ المبرد في «الكامل» (٣/ ١٢٣): «مِن طَريفِ أَخبارِ الخوارِج قولُ قَطَري بن الفُجاءَة المازنيِّ لأبِي خالِدٍ القناني وكانَ مِن قعَدِ الخوارِج:

أبــا خالــدٍ انفِــرْ فلَســتَ بخالِــدٍ ... ومــا جَعــلَ الــرَّحمنُ عُــذرًا لقاعــدِ

أتَــزعمُ أنَّ الخــارِجيَّ عــلى الهــدَى ... وأنــتَ مُقـيمٌ بـينَ راضٍ وجاحــدِ

فكَتبَ إلَيه أبو خالِدٍ:

لقَــــد زادَ الحيــــاةَ إليَّ حبًّــــا ... بَنــاتِي إنَّهــنَّ مِــن الضِّــعافِ

أُحــاذِر أن يَــرَين الفقــرَ بعــدِي ... وأن يَشــرَبْن رَنقًــا بعــدَ صــافِ

وأن يَعــرَين إن كُســيَ الجَــواري ... فتَنبُــو العــينُ عــن كَــرمٍ عِجــافِ

ولــولَا ذاكَ قــد سَــوَّمتُ مهــرِي ... وفي الــرَّحمنِ للضِّــعفاءِ كــافِ

أَبانَــا مَــن لنــا إن غِبــتَ عنَّــا ... وصارَ الحيُّ بَعدَك في اختِلافِ».

وممَّا يبيِّن قوَّةَ خِطابِهم وفَرطَ شجاعتِهم ما ذكرَه عنهم ابنُ كثيرٍ أيضًا في «البدايَة والنِّهايَة» (٧/ ٣١٦- شيري) عن عَبد الملك بن أبي حُرَّة «أنَّ عليًّا لَمَّا بعثَ أبا مُوسى لإنفَاذ الحُكومَة، اجتمعَ الخَوارجُ في مَنزلِ عبدِ الله بنِ وَهْب الرَّاسبي، فخَطبَهم خُطْبةً بليغةً، زهَّدَهم في هَذه الحَياة الدُّنيا، ورغَّبَهم في الآخرَةِ والجنَّةِ، وحثَّهم على الأَمْر بالمعرُوف والنَّهْي عن المُنكَر، ثمَّ قالَ:

فاخرُجُوا بنا - إخوانَنا! - مِن هذه القَريَة الظَّالِم أهلُها إلى جَانبِ هَذا السَّواد، إلى بَعض كُوَر الجبَال، أو بعضِ هَذه المَدائن مُنكِرين لهَذه الأَحْكام الجائرةِ، ثمَّ قامَ حرقوس بنُ زُهَير، فقالَ بعدَ حمدِ الله والثَّناء علَيْه: إنَّ المتاعَ بهذِهِ الدُّنيا قَليلٌ، وإنَّ الفرَاقَ لها وَشيكٌ، فلَا تَدْعوَنَّكم زينتُها وبهجتُها إلى المقَام بها، ولَا تلفتَنَّكم عن طَلَب الحقِّ وإنكَارِ الظُّلْم؛ فإنَّ اللهَ معَ الَّذينَ اتَّقَوا والَّذينَ هُم محسِنُون، فقالَ سنانُ بنُ حمزَةَ الأَسدي: يا قَوم! إنَّ الرَّأْيَ ما رَأيتم، وإنَّ الحقَّ ما ذَكَرتم، فوَلُّوا أمرَكُم رجلًا منكُمْ؛ فإنَّه لَا بدَّ لكُم مِن عِمادٍ وسنَادٍ، ومِن رايَةٍ تحفُّون بها وتَرْجعون إلَيها، فبَعَثوا إلى زَيد بنِ حصن الطَّائي وكانَ مِن رُؤُوسهم، فعَرَضوا علَيه الإمارةَ علَيهم فأَبى، ثمَّ عرَضُوها علَى حرقُوص بنِ زُهَير فأَبى، ثمَّ عرَضُوها على حمزَةَ بنِ سنَان فأَبى، ثمَّ عرَضُوها على شُرَيح بنِ أبي أَوفَى العَبسيِّ فأَبى، ثمَّ عرَضُوها على عبدِ الله بنِ وَهبٍ الرَّاسبيِّ فقَبِلَها، وقالَ: أمَا - والله!- لَا أَقْبلها رغبةً في الدُّنْيا ولَا أَدَعُها فَرَقًا مِن المَوت، واجتمَعُوا أيضًا في بَيتِ زَيد بنِ حصنٍ الطَّائيِّ السّنبسيِّ، فخطَبَهم وحثَّهُم على الأَمْر بالمعرُوف والنَّهْي عن المنكَرِ، وتلَا علَيهم آياتٍ مِنَ القُرْآن، منهَا قَوْلُه تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ [ص:٢٦]، وقولُه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤]، والَّتي بعدَهَا وبعدَهَا: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [٤٥]، ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [٤٧]، ثمَّ قالَ: فأَشهدُ على أَهْل دَعْوتنَا مِن أَهْل قِبْلتنَا أَنهم قَد اتَّبعوا الهَوَى ونَبَذوا حُكمَ الكتَاب، وجَارُوا في القَوْل والأَعْمال، وأنَّ جهادَهُم

حقٌّ علَى المؤمنِينَ، فبكَى رجلٌ مِنْهم يُقالُ له عبدُ الله ابنُ شجرَة السُّلَمي، ثمَّ حرَّضَ أُولئكَ على الخرُوج على النَّاس، وقالَ في كلَامِه: اضربُوا وُجُوهَهم وجباهَهُم بالسُّيُوف حتى يُطاعَ الرَّحمَنُ الرَّحيمُ، فإن أَنتُم ظَفرتم وأُطيعَ اللهُ كما أَرَدتم آتاكُمُ اللهُ ثوابَ المطيعينَ له العامِلِينَ بأَمْره، وإن قُتِلتم فأَيُّ شَيءٍ أَفضلُ من الصَّبر والمصيرِ إلى الله ورِضوانِه وجنَّتِه»؟!!

وقد كانُوا مَشهورِين بالكلَام البَليغ عن الإِسلَام كما روَى ابن أبي الدُّنيَا في «الأمر بالمعروف» (٩٨) عن الحسَن قالَ: «أَتيتُ قُدامةَ بنَ عَنزة العَنبري... فوافقتُ عندَه مِرداسًا أبا بلَالٍ ونافعَ بنَ الأَزرق وعطيَّةَ بنَ الأَسود، قالَ: فتكلَّمَ مِرداسٌ أبو بلَال فذكَر الإِسلَام، قالَ الحسَن: فَما سَمعتُ ناعتًا للإِسلَام كانَ أبلغَ منه، ثمَّ ذكَر السُّلطانَ فنالَ مِنهم، وذكَر مَا أَحدثَ النَّاسُ ثمَّ سكتَ، ثمَّ تكلَّمَ نافعُ بنُ الأَزرق فذكَر الإِسلامَ فوصفَه فأَحسنَ، وذكَر السُّلطانَ فنالَ مِنهم، ثمَّ ذكَر مَا أَحدثَ النَّاسُ، ثمَّ تكلَّمَ عطيَّةُ بن الأَسْود فذكَر الإِسلامَ فوصَفَه فأَحسَنَ ولم يبلغ مَا بلغَ نافعُ بن الأَزرَق، وذكَر السُّلطانَ فنالَ مِنهم، ثمَّ ذكَر مَا أَحدَث النَّاس، قالَ: فقالَ قُدامةُ بن عَنزة لبَعض أَهلِه: سانِدْني، فقالَ: إِخواني! كلُّ الَّذي قُلتُم منذُ اليَوم أَعرفُ منه مِثلَ مَا تَعرِفون، وأُنكرُ مِنه مَا تُنكِرون، وأَنَا مِثل الَّذي أَنتُمْ عليَه مَا لم تُشهِّرُوا علَينَا السِّلاحَ، فإذَا شهَّرتُم علَينا السِّلاحَ فأَنَا مِنكُم بَريءٌ».

ومِن أمثلةِ خُطبِهم الَّتي كانُوا يَسْبُونَ بها قُلوبَ الضُّعفاء، ويَكيدونَ بها عُقولَ العاطفيِّينَ الأَشقياء، ما ذكرَه عنهم المبرّد في «الكامل» (٣/ ٢١٠) حيثُ نقلَ خُطبةَ نافع بن الأزرَق، قالَ: «وكتبَ نافعٌ إلى مَن بالبَصرة من المُحكِّمة:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أمَّا بعدُ، فإنَّ اللهَ اصطفَى لكم الدِّينَ فلَا تموتنَّ إلَّا وأَنتُم مُسلِمون، واللهِ! إنَّكم لتَعلَمون أنَّ الشَّريعةَ واحدةٌ والدِّينَ واحدٌ، ففيمَ المقامُ بينَ أَظهرِ الكفَّارِ؟! ترَون الظُّلمَ ليلًا ونَهارًا، وقد ندَبكم اللهُ إلى الجهادِ فقالَ: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، ولم يَجعَل لكم في التَّخلُّف عُذرًا في حالٍ من الحالِ، فقالَ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، وإنَّما عُذِر الضُّعفاءُ والمرضَى والَّذينَ لَا يجِدونَ ما يُنفِقون ومَن كانَت إقامتُه لعلَّةٍ، ثمَّ فضَّل علَيهم مع ذلكَ المجاهِدينَ، فقالَ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥][1]، فلَا تَغترُّوا ولَا تَطمئنُّوا إلى الدُّنيَا؛ فإنَّها

---

(١) هَذا مِثالٌ مِن تَأويلاتِ القومِ الَّتي يَفهمونَ بها كتابَ الله على غيرِ مُرادِ الله؛ فإنَّه زعَم أنَّ أهلَ الأَعذارِ التَّارِكِين للجِهادِ أقلُّ أَجرًا ممَّن شاركَ في الجِهادِ، مع أنَّ هَذا الحُكمَ الَّذي ذهبَ إلَيه نافعٌ الخارِجيُّ هوَ فيمَن ترَكَ القِتالَ مِن غيرِ أُولي الأَعذارِ وليسَ في كلِّ تاركٍ كما زعمَ، كما في صحيحِ البُخاري (٢٨٣٢) ومسلم (٤٩٤٥) عن زَيد بن ثابتٍ «أنَّ رَسولَ الله ﷺ أَملَى علَيه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥]، قالَ: فجاءَه ابنُ أمِّ مَكتومٍ وهوَ يُمِلُّها عليَّ، فقالَ: يَا رَسولَ الله! لَوْ أَستطيعُ الجِهادَ لجاهَدتُ، وكانَ رَجلًا أعمَى، فأَنزلَ اللهُ تَباركَ وتَعالَى على

مرَّارةٌ مَكَّارةٌ، لذَّتُها نافِدةٌ، ونعمتُها بائدةٌ، حُفَّت بالشَّهواتِ اغترارًا، وأَظهرَت حَبْرَةً، وأَضمرَت عَبْرَةً، فليسَ آكلٌ مِنها أكلةً تَسرُّه ولَا شاربٌ شَربةً تُؤْنفُه إلَّا دَنا بها دَرجةً إلى أجَلِه، وتَباعدَ بها مَسافةً مِن أمَلِه، وإنَّما جَعلَها اللهُ دارًا لِمَن تَزوَّد مِنها إلى النَّعيمِ المُقيمِ والعَيشِ السَّليمِ، فلَن يَرضَى بها حازمٌ دارًا، ولَا حَليمٌ بها قَرارًا، فاتَّقُوا اللهَ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[البقرة: ١٩٧]، والسَّلامُ على مَن اتَّبعَ الهدَى.

رَسولِه ﷺ وفخِذُه على فخِذِي، فثقُلَت عليَّ حتَّى خِفتُ أن تُرَضَّ فخِذِي، ثمَّ سُرِّيَ عنه فأَنزلَ اللهُ ﷻ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾[النساء: ٩٥]»، فكانَ هَذا مقيِّدًا للمطلَقِ الأوَّلِ؛ لأنَّه على معنَى أنَّ المجاهِدينَ أَفضلُ من القاعِدينَ غيرِ المعذورينَ، وأمَّا القاعِدونَ أُولُو الضَّررِ - أي المعذورُونَ - فهُم على درجةِ المجاهِدينَ، قالَ ابنُ كَثير رَحِمَهُ اللهُ في «تفسيرِه»: «فقَولُه تعالَى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كانَ مُطلقًا، فلَمَّا نَزلَ بوَحيٍ سَريعٍ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ صارَ ذلكَ مخرجًا لذَوي الأَعذارِ المبيحةِ لتركِ الجهادِ - مِن العَمَى والعَرَج والمرَض - عن مُساواتِهم للمُجاهِدين في سَبيل الله بأَموالهِم وأَنفسِهم، ثمَّ أَخبرَ تعالَى بفَضيلةِ المجاهِدينَ على القاعِدينَ، قالَ ابنُ عبَّاس: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾، وكَذا يَنبَغي أن يكونَ لِما ثبَت في الصَّحيح عندَ البُخاري مِن طَريقِ زُهير ابن مُعاويَة عن حُمَيد عن أنسٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: **إنَّ بالمدينةِ أَقوامًا ما سِرْتُم مِن مَسيرٍ ولَا قطَعتُم مِن وادٍ إلَّا وهُم معَكم فيهِ**، قالُوا: وهُم بالمدينةِ يا رَسولَ الله؟ قالَ: نَعْم؛ حَبسَهم العُذرُ»، وقالَ القرطبيُّ في «الجامع لأَحكام القُرآنِ»: «فهَذا يَقتضِي أنَّ صاحبَ العُذرِ يُعطَى أجرَ الغازِي».

فوَردَ كِتابُه علَيهم وفي القَوم يَومئذٍ أبو بَيهس هَيصَم بن جابر الضُّبَعي وعبدُ الله بنُ إبَاض المرِّي مِن بَني مُرَّة بن عُبيدٍ، فأَقبلَ أبو بَيهس على ابن إبَاض فقالَ: إنَّ نافعًا غلَا فكَفَر، وإنَّك قصَّرتَ فكَفرتَ! تَزعمُ أنَّ مَن خالَفَنا ليسَ بمُشركٍ، وإنَّما هُم كفَّارُ النِّعم لتَمسُّكهم بالكتابِ وإقرارِهم بالرَّسولِ؟! وتَزعمُ أنَّ مَناكحَهم ومَواريثَهم والإقامةَ فيهم حِلٌّ طَلقٌ؟! وأنا أَقولُ: إنَّ أَعداءَنا كأَعداءِ رَسولِ الله ﷺ، تحِلُّ لنا الإقامةُ فيهم كما فَعلَ المسلِمونَ في إقامتِهم بمكَّة، وأَحكامُ المشرِكينَ تَجري فيهم، وأَزعمُ أنَّ مَناكحَهم ومَواريثَهم تَجوزُ؛ لأَنَّهم مُنافِقون يُظهِرون الإسلامَ، وأنَّ حُكمَهم عندَ الله حُكمُ المشرِكينَ»!!

فتأمَّلْ ما أَحلَى تلكَ الخُطبةَ! وما أَظلمَ الحُكمَ الَّذي أَعقبَها، وإنَّا لله! كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**قومٌ يُحسِنونَ القِيلَ ويُسيئونَ الفعلَ، يَقرأُونَ القرآنَ لَا يُجاوزُ تَراقيَهم... هُم شرُّ الخَلقِ والخليقةِ**» الحديثَ وقد مرَّ قَريبًا أنَّه رواه أبو دَاود (٤٧٦٥) وصحَّحَه الألبانيُّ في تحقيقِه له.

ومِمَّا ذكرَه عنهم أيضًا (٣/ ٢٨١) أنَّه حصَل لهم يومًا أن تفرَّقوا في الرَّأي، ففارَقَهم جَماعةٌ ذوُو بأسٍ ورَأيٍ ودَهاءٍ، مِنهم قَطَري بن فُجاءَة وصالح بن مخراق وعبيدة بن هِلال، فلم يثنِهم ذلكَ عن المضيِّ في الحربِ، حتَّى قالَ أَميرُهم وقد اشتدَّ الحِصارُ علَيهم: «لَا تَفتقِروا إلى مَن ذهَب عَنكم مِن الرِّجالِ؛ فإنَّالمُسْلم لَا يَفتقرُ مع الإسلَام إلى غيرِه، والمسلمُ إذَا صحَّ تَوحيدُه عزَّ بربِّه، وقد أَراحَكم اللهُ مِن غِلظةِ قَطَريٍّ وعجَلةِ صالِح بن مخراق ونَخوتِه واختِلاطِ عبيدة

ابن هِلال، ووكَلَكم إلى بَصائِركم، فالْقَوا عدوَّكم بصبرٍ ونيَّةٍ، وانتَقِلوا عن مَنزِلِكم هَذا؛ مَن قُتل مِنكم قُتلَ شَهيدًا، ومَن سَلِم مِن القتلِ فهوَ المحرومُ»!!

ومِن خِطابه أيضًا قولُه: «يا مَعشرَ المهاجِرينَ![1] إنَّ قطَريًّا وعبيدةَ هربَا طلبَ البَقاءِ، ولَا سَبيلَ إلَيه، فالْقَوا عدوَّكم؛ فإن غلَبوكم على الحياةِ، فلَا يَغلبُنَّكم على الموتِ، فتلَقَّوا الرِّماحَ بنُحورِكم، والسُّيوفَ بوُجوهِكم، وهَبُوا أَنفسَكم لله في الدُّنيَا يهَبْها لكُم في الآخرةِ»!!

لَا رَيْب أنَّ هَذه الأَخبارَ تذكِّرُ مَن عرفَ الخَوارجَ اليَوْم كَثيرًا مِن نقاطِ التَّشابُهِ بَيْنهم وبَيْن أُولئكَ، مع مُلَاحظةِ ما أُوتُوا - بعد تَشجيع إبليسَ لهم - مِن أساليبَ خطَابيَّةٍ مُلهبَةٍ لمشَاعرِ مَن قلَّ صَبرُه على السنَّة، وقد ذكرتُ هَذا كلَّه ليتبيَّنَ القارئُ أنَّ القَومَ كانُوا على شَجاعةٍ مُفْرطةٍ وبيانٍ مؤثِّرٍ وعِبادةٍ نادرةٍ، وما كانَ ذلكَ ليُضلَّ مَن يَعرِفهم من أهل العِلم، ولهَذا كانَ كثيرٌ من السَّلف يَحمدُ اللهَ أنَّه لم يكُن منهم، كما قالَ أبو العاليَة رَحِمَهُ اللهُ: «قرَأتُ المُحكَمَ بعدَ وَفاةِ نبيِّكم ﷺ بعَشْر سنينَ، فقد أَنعمَ اللهُ عليَّ بنِعْمتَين، لَا أَدري أيّهما أَفضَل: أن هَداني للإسلَام، ولم يجعَلْني حَروريًّا» رواه عبد الرَّزَّاق (١٠/ ١٥٣) وابنُ سَعد (٧/ ١١٤) واللالكائيُّ في «شرح أُصول الاعتِقاد» (٢٣٠) وغيرُهم وهو صحيحٌ، ومعنَى حَروري: خارجيّ.

---

(١) كانُوا يُسمُّون أنفسَهم (مُهاجِرين) لأنَّهم يرَونَ كُفرَ البلادِ الَّتي يَحكمُها بنو أميَّة، وأنَّ البلادَ الكافرةَ يجبُ أن تُهجَر، وأنَّ مَن لم يُهاجِر إلَيهم فحُكمُه حكمُ البلَادِ الَّتي هو مُقيمٌ فيها!

وقالَ مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما أَدرِي أي النِّعمتَين عليَّ أَفضلُ: أن هَداني للإسلَام أو عَافاني مِن الأَهواءِ» رواه الدَّارمي (٣٠٩) وأبو نُعَيم في «الحِلية» (٣/ ٢٩٣) والبيهَقي في «الشُّعب» (٤٥٠٨)، ولذلكَ قالَ ابنُ حجَر في «تَهذيب التَّهذيب» عند ترجمة عِمران بن حِطَّان: «وكانَ مِن المعروفِينَ في مَذهبِ الخوارِج، وكانَ قبلَ ذلكَ مَشهورًا بطَلَبِ العِلم والحديثِ ثمَّ ابتُلِيَ، وساقَ[1] بسندٍ صَحيحٍ عن ابن سِيرِين قالَ: تزوَّج عِمرانٌ امرأةً مِن الخوارِج ليردَّها عن مَذهبِها، فذَهبَت به»! ولذلكَ كانَ رَسولُ الله ﷺ يَخافُ على أمَّتِه مِن فِتنةِ اللِّسانِ السَّاحِرِ للقُلوبِ، كما روَى الطَّبراني (١٨/ ٢٣٧) وابن حبَّان (٨٠) - وصحَّحَه الألبانيُّ في «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» (٢٣٣٠) - عن عِمران بن حُصين قالَ: قالَ رَسولُ الله ﷺ: «**إنَّ أَخوَفَ ما أَخافُ عليكُم بَعدِي كلُّ مُنافقٍ عَليمِ اللِّسانِ**»، ومِن الله وَحْده العِصمةُ وله الحَمدُ والمنَّة.

٣- **وممَّا يدلُّ على فَسادِ النِّيةِ التَّعلُّق بالمُتشابهِ مِن النُّصوصِ وتركُ المُحكَماتِ الواضِحاتِ**: قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٧-٨]، وعلاقةُ هَذا بفَسادِ النِّيات واضحٌ من خلالِ هاتَين الآيتَينِ اللَّتَين نصَّتا على زَيغِ قُلوبِ أَصحابِ هَذا المسلكِ.

---

(١) أي أبو الفرج الأصبَهاني؛ فإنَّه رَواه في كِتابِه «الأغاني» (١٨/ ١٢٠).

والخوارجُ في اتِّباع المتشابهِ مِن أَشدِّ أهلِ البدَع تَلبيسًا في طَريقتِهم في الاستِدلَالِ؛ لأنَّهم يتَظاهَرون بتَعظيم النُّصوص، إلَّا أنَّهم لَّما كانُوا لَا يَجِدون تَأييدَ أَفكارِهم في مُحكَماتِها فإنَّهم يَعمدونَ إلى المُتشابِهات؛ شَأنُهم في ذَلك شَأنُ مَن يَعتقِد ثمَّ يَبحثُ عن الدَّليل ولو بتكلُّفِه لتَطويع النَّصِّ لبَناتِ فِكرِه، وقد وصَفَهم بذَلك جمعٌ من السَّلف، أذكُرُ منهم ثلاثةً من أَصحابِ رَسول الله ﷺ هُم عُمرُ بن الخطَّاب وعبدُ الله بن عبَّاس وأبو أُمَامة رضي الله عنهم، وأَذكرُ في التَّابعين قَتادةَ وسَعيدَ ابن جُبير رحمَهما اللهُ في أنَّ الخوارجَ يتَّبعونَ المتشابهَ، ومِن المُتشابِهِ الَّذي يَتبعونَه آيةُ الحُكم بغَيرِ ما أَنزَلَ الله ويُفسِّرونَها على غيرِ ما فسَّرَها بهِ السَّلفُ، كما نَسمعُ تَكرارَه اليومَ مِن ورَثةِ مَذهبِهم.

أمَّا أثرُ عُمر، فهوَ ما وقَع له مع صَبيغ بن عسَل الَّذي كانَ دَيدنُه السُّؤال عن مُتشابهِ القُرآنِ، قالَ السَّائب بن يَزيد: «أُتِيَ عمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه فقالوا: يَا أَميرَ المؤمِنينَ! إنَّا لَقِينا رجلًا يَسأَلُ عن تَأْويل القُرآنِ، فقالَ: اللَّهمَّ أَمْكِنِّي مِنه، قالَ: فبَيْنا عُمر ذاتَ يومٍ يُغدِّي النَّاس، إذ جاءَه رَجلٌ علَيه ثِيابٌ وعِمامةٌ يَتغدَّى حتَّى إذَا فرَغَ قالَ: يَا أَميرَ المُؤمِنين! ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ [الذاريات: ١ - ٢]؟ فقالَ عُمرُ: أنتَ هوَ؟ فقامَ إلَيه فحَسَر عن ذِراعَيه، فلَمْ يَزَل يَجلدُه حتَّى سقطَت عِمامتُه، فقالَ: **والَّذي نفسُ عمرَ بيدِه! لو وَجدتُك محلوقًا لضَربتُ رَأسكَ**، أَلبِسوه ثِيابَه واحمِلُوه على قتَب، ثمَّ أَخرِجوه حتَّى تَقْدَموا به بلادَه ، ثمَّ لِيَقُم خَطيبًا، ثمَّ ليَقُل: (إنَّ صَبيغًا طَلبَ العِلمَ فأَخطأَه)، فلَم يَزَل وَضيعًا في قَومِه حتَّى هَلكَ، وكانَ سيِّدَ قَومِه» أخرجَه الآجرِّي في «الشَّريعة»

(١٥٢) وابن بطَّة في «الإبانة/ الإيمان» (٣٣٠) واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (١١٣٦) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٣/ ٤١١) بسندٍ صَحيحٍ، وصحَّحَه ابن تَيمية في «الصَّارم المَسلول» (٢/ ٣٥٦) وابن حجَر في «الإصابة» (٤١٤٣)، والشَّاهدُ منه أنَّ عُمرَ رضي الله عنه اتَّهمَه برَأي الخَوارج بمُجرَّد أن سمِع أنَّه يتتبَّع المُتشابهَ، وقالَ له: «لو وَجدتُكَ محلوقًا لضرَبتُ رَأسَك»، وفي روايةٍ: «لضرَبتُ الَّذي فيهِ عَيناكَ»، يُريدُ لقَتلتُك؛ وذَلك لأنَّ عُمر رضي الله عنه قد عَلِم أنَّ النَّبيَّ ﷺ وصفَهم بحَلْق رُؤوسِهم، فأَرادَ أن يتأكَّد من وُجودِ هَذه العلَامةِ فيه ليَقضيَ فيه بحُكم رَسولِ الله ﷺ الَّذي قالَ: «**فاقْتُلُوهم؛ فإنَّ في قَتْلِهم أَجْرًا لِمَن قتَلَهم يَومَ القِيامَةِ**» فدلَّ على أنَّ اتِّباعَ المُتشابهِ علامةٌ لهم.

فائدةٌ: روَى معمر في «جامعه/ مصنف عبد الرَّزَّاق» (١١/ ٤٢٦) قالَ: «خرجَت الحَروريَّة، فقيل لصَبيغ: إنَّه قَد خرَجَ قومٌ يَقولونَ كَذا وكَذا، قالَ: هَيهاتَ قَد نفَعَني اللهُ بمَوعظةِ الرَّجل الصَّالح»! يُريدُ تَأديبَ عُمر رضي الله عنه له.

وأمَّا أثرُ ابن عبَّاس، فقَد روَاه ابنُ أبي شيبة (٨/ ٧٣٤) وابن جَرير في «تفسيره» (٥/ ٢١٤) بإسنادٍ صَحيحٍ عن طَاوس قالَ: «ذُكِر لابن عبَّاس الخَوارجُ وما يُصيبُهم عندَ قِراءةِ القرآنِ[1]، فقالَ: يُؤمِنون بمُحْكمِه، ويَضلُّون (وفي روايةٍ: يَهْلِكونَ) عندَ مُتشابهِه، وقرأَ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾» وصحَّحَه ابنُ حجَر في «الفتح» (١٢/ ٣٠٠).

---

(١) أي من الخُشوع والغشيِّ.

وأمَّا أثرُ أبي أُمامة، فهَذا نصُّ رِوايتِه أَسوقُه كاملًا لِما فيه من العظَةِ البالغةِ والحجَّةِ السَّلفيَّةِ السَّابغة في تَعامُلِه مع سَبعينَ رجلًا من الخوارج خرَجوا على بني أميَّة فقتَلوهم، فعن أبي غالبٍ قالَ: «كنتُ بالشَّام، فبعثَ المهلَّبُ سَبعينَ رأسًا من الخَوارج، فنُصِبوا على درَج دِمشق، وكنتُ على ظَهر بيتٍ لي فمرَّ أبو أُمامةَ، فنزلتُ فاتَّبعتُه، فلمَّا وقفَ علَيهم دمَعَت عَيناه وقالَ: سُبحانَ الله! ما يَصنعُ الشَّيطانُ ببَني آدمَ!! قالَها ثلاثًا، كلَابُ جهنَّم! كلَابُ جهنَّم! شرُّ قتلَى تحتَ ظلِّ السَّماء: ثلاثَ مرَّاتٍ، خيرُ قتلَى مَن قَتلوه، طُوبى لمَن قتلَهم أو قتَلوه، ثمَّ التفتَ إليَّ فقالَ: يا أبا غالب! إنَّك بأَرضٍ هُم بها كَثيرٌ، فأَعاذكَ اللهُ مِنهم، قلتُ: رأيتُك بكَيتَ حين رَأيتَهم؟ قالَ: بكيتُ رحمةً: رأيتُهم كانوا من أَهل الإسلَام، هل تَقرأُ سورةَ آل عِمران؟ قلتُ: نعَمْ! فقرَأَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ حتَّى بلغَ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وإنَّ هؤلاءِ كانَ في قُلوبهم زيغٌ فزِيغَ بهم، ثمَّ قرأَ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾[آل عمران: ١٠٥] إلى قولِه: ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[آل عمران: ١٠٧]، قلتُ: هُم هؤلَاءِ يا أبا أُمامة؟ قالَ: نعَم! قلتُ: مِن قِبَلك تَقولُ أو شيءٌ سَمعتَه مِن رَسولِ الله ﷺ؟ قالَ: إنِّي إذَن لجريءٌ!! بل سمعتُه من رَسولِ الله ﷺ لَا مرَّةً ولَا مرَّتَين حتَّى عدَّ سَبعًا، ثمَّ قالَ: إنَّ بني إسرَائيل تفرَّقوا على إحدَى وسَبعينَ فِرقة، وإنَّ هَذه الأُمَّة تَزيدُ علَيهم فِرقةً،

كلُّها في النَّار إلَّا السَّوادَ الأَعظَم، قلتُ: يا أبا أُمامة! ألَا ترَى ما يَفعلُون؟![1] قالَ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾[النور: ٥٤]»[2]، وفي طَريقٍ: فقالَ أبو أُمامةَ: «يا أبا غالب! إنَّك ببلدٍ هؤلاءِ به كثيرٌ، قال: قلتُ: نعم! قال: أعاذَكَ اللهُ منهم، قالَ: تَقرأُ القرآنَ؟ قلتُ: نعم! قالَ: ثمَّ تلَا هَذه الآيةَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾»، روَى هذهِ القصَّةَ مطوَّلةً ومُختصرةً أبو داود الطَّيالسي (ص ١٥٥) وعبد الرَّزَّاق (١٠/ ١٥٢) والحُميدي (٩٠٨) وابن أبي شيبة (١٥/ ٣٠٧) وأحمد (٢٢١٥١) و(٢٢١٨٣) و(٢٢٣١٤) والترمذي (٣٠٠٠) وابن ماجه (١٧٦) والطبراني في «الكبير» (٨٠٣٣- ٨٠٣٦، ٨٠٤٩، ٨٠٥٦) وفي «الأوسَط» (٧٦٦٠)

---

(١) يُريدُ أن يُنبِّهه إلى ما يَفعلُه الأُمراءُ من المنكَراتِ كي يَعتذرَ للخارجِين علَيهم فلم يَعتذِر لهم، بل وصفَهم بكلِّ الأَوصافِ البشَعةِ الواردةِ في السُّنة في حقِّهم، ولَا قالَ: «هؤلاءِ بَنو أميَّةَ طَواغيت يَستبدُّون بالحُكم ويَقتُلونَ ذَوي الغيرةِ على الدِّينِ» كما يَقولُه اليومَ الزَّاعِمون لأَنفسِهم الوعيَ بمخطَّطاتِ الحكَّام وأنَّهم ذوُو الانتِماءِ الصَّحيحِ للجماعةِ الإسلاميَّةِ، والأمرُ لله!

(٢) أي أَجابَه بأنَّ ذلكَ لَا يُغيِّر الفتوَى؛ لأنَّكم حُمِّلتُم عدمَ الخروجِ علَيهم ما دامُوا مُسلِمين، وهُم حُمِّلوا العدلَ فيكم، فإن قصَّروا في هَذا فلَا تُقصِّروا فيما حُمِّلتُم مِن استِمرارِ بَيعتِهم وطاعتِهم في المعروفِ...

والآجرِّي في «الشَّريعَة» (٦٢- ٦٤) والبيهقي (٨/ ١٨٨) وغيرُهم وهي صَحيحةٌ؛ فإنَّ أبا غالبٍ حسنُ الحَديثِ، ثمَّ هو تابعَه جمعٌ، منهم:

- سيَّار الأُمَوي عند أحمد في الموضِع الأوَّلِ وهو صدوقٌ.

- وصفوان بن سُليم المدني عند أحمد في الموضِع الثَّالثِ وهو ثقةٌ.

- وشدَّاد بن عبد الله عند الحاكم (٢/ ١٤٩) وهو ثقةٌ يُرسِل لكن قالَ شدَّادٌ في روايتِه: «شَهدتُ أبا أُمامةَ...»، فأُمن إرسالُه.

- وشَهْر بن حَوشب عند الطَّبراني (٨/ ٧٥٥٣) وهو متكلَّمٌ فيه.

وبهذا يصحُّ الإسنادُ، وقد صحَّحه الحاكم والذَّهبي، وكذَا الألباني في تَعليقه على «سنن التِّرمذي» و«سنن ابن ماجه».

والشَّاهدُ منه أنَّ أبا أُمامةَ ﵁ جعلَ للخوارجِ نَصيبًا ممَّن يتَّبِعون ما تَشابهَ من الكِتاب، بل رفَعَ ذلكَ إلى رَسولِ الله ﷺ، قالَ ابن حجَر في «العُجاب في بَيانِ الأسباب» (٢/ ٦٦٢): «وهَذا مِن عَلاماتِ النُّبوَّة؛ فإنَّ الخوارجَ أوَّلُ مَن تبعَ ما تَشابهَ منه وابتغَوا بذَلك الفِتنةَ فقَتلوا مِن أهلِ الإسلَام ما لَا يُحصَى كثرةً وتجنَّبوا قتلَ أهلِ الشِّركِ، وأَخبارُهم في ذلكَ شَهيرةٌ، ولذلكَ وردَ في عدَّة أَحاديث صَحيحةٍ أنَّهم شرُّ الخَلقِ والخليقةِ، وذكر الخوارج نبَّه به الحديثُ المذكورُ على مَن ضاهَاهم في اتِّباع المتشابهِ وابتِغاءِ تَأويلِه، فالآيةُ شاملةٌ لكلِّ مُبتدعٍ سلَكَ ذلكَ المسلكَ».

ولذلكَ كانُوا يَتعوَّذون بالله مِنهم، فقد روَى ابن المنذِر في «تفسيره» (٢٤٢) بسندٍ حسنٍ الأثرَ السَّابقَ، وفيه أنَّ أبا غالِب رَحِمَهُ اللهُ اتَّبعَه وهو لَا يَشعر، فلمَّا رَآها قالَ: «كلابُ النَّار! كلَابُ النَّار! كلابُ النَّار!... قالَ: فدنَوتُ منه قالَ: أبو غالِب؟ قلتُ: نعَمْ! قالَ: أمَا إنَّهم قِبَلك كثيرٌ، قُلت: أجَل! قالَ: عافَاكَ اللهُ مِنهم، أَعاذَك اللهُ مِنهم! أَعاذَني اللهُ مِنهم»، فلَم تأْخُذْه بهم رأفةٌ في دِين الله ولو كانُوا مَقتولِين! وتعوَّذ بالله مِنهم، وفي هَذه الرِّوايةِ تَصريحٌ بأنَّ أبا أُمامةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ فيهم ما قالَ وهوَ مع نَفسِه قبلَ أن يُدركَ أنَّ أبا غالبٍ يُراقبُه، فكلامُه إذَن خرجَ من صَميمِ قَلبِه، فهَذا يَقطعُ الطَّريقَ على مَن يَقولُ: إنَّه طعنَ علَيهم خوفًا من بني أميَّة، فتأمَّل.

وأمَّا من التَّابعين فقتادة رَحِمَهُ اللهُ، روَى عبد الرَّزَّاق في «تفسيره» (١/ ١١٥) ومن طَريقِه ابن جَرير في «تفسيره» (٥/ ٢٠٧) بسندٍ صَحيحٍ في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ [آل عمران: ٧]: «وكانَ قَتادةُ إذَا قرَأ هذِه الآيةَ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ قالَ: إن لم يَكونُوا الحَرُوريَّةَ والسَّبَئيَّةَ فلَا أَدري مَن هُم»؟!

وقد رتِّبَت هُنا صِفةُ اتِّباعِهم للمُتشابهِ بعدَ صفةِ فَسادِ قُلوبهم؛ لأنَّ هَذه أصلٌ لتلكَ؛ فإنَّ مَن فسدَ قلبُه ضلَّ سعيُه وساءَت مُتابعتُه، فذكَرَ ربُّنا زَيغَ القُلوبِ مع فَسادِ النِّية المُعبَّر عنه بابتِغاءِ الفِتنةِ، ولذلكَ كانَ الدُّعاءُ بعدَ هَذه الآيةِ مُباشرةً بـ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، وهَذا من رُسوخ السَّلفِ في فَهم كِتاب الله عَزَّ وَجَلَّ!

وفي هَذه الآثارِ كلِّها دلالةٌ كَبيرةٌ على ما كانَ علَيه السَّلفُ من الفَهم للكِتاب الكَريم، وما كانُوا علَيه من استِقامةٍ على السُّنَّة؛ بحيثُ لم يَغترُّوا بعِبادةِ القَوم ما دَاموا مُخالِفين للسُّنة، كما روَى الطَّبراني (٢/ ١٧٩) عن جُندب بن عبدِ الله ﷺ أنَّه مرَّ بقومٍ يَقرأُون القرآنَ، فقالَ: «لَا يَغرَّنَّك هؤلَاء؛ إنَّهم يَقرأُونَ القرآنَ اليَومَ، ويَتجالَدونَ بالسُّيوف غدًا»!!

وأمَّا أثرُ سَعيد بن جُبير رَحِمَهُ اللَّهُ ففيه تَفسيرٌ لِما أَجملَه قَتادةُ رَحِمَهُ اللَّهُ، وهوَ ما روَاه ابنُ المنذر في «كتَاب تَفسير القُرْآن» (٢٢٨) والآجرِّي في «الشَّريعَة» (٤٤) عن سَعيد بن جُبَير قالَ في قَوْله تَعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]: «أمَّا المتَشابِهاتُ فهيَ آيٌ منَ القُرآنِ يتَشابَهْن على النَّاس إذَا قرَأُوهنَّ، ومِن أَجْلِ ذلكَ يَضلُّ مَن ضَلَّ ممَّن ادَّعَى بهَذه الكَلِمة، فكلُّ فِرْقةٍ يقرأُون آيَةً من القُرآن، ويَزعُمون أنَّها لهم أَصابوا بها الهُدَى، ومَا يَتبعُ الحَروريَّةُ منَ المتَشابِه قَوْل الله ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ثمَّ يَقرَأون معَهَا: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، فإذَا رأَوا الإمامَ يَحكمُ بغَيرِ الحقِّ، قالُوا: قد كفَرَ، فمَن كفرَ عدَلَ برَبِّهِ، ومَن عدَلَ برَبِّه فقَد أشرَكَ برَبِّه، فهَذه الأَئمَّةُ مُشرِكونَ ومَن أَطاعَهم، فيَخْرجونَ فيَفعَلونَ ما رأيتَ؛ لأنَّهم يتأَوَّلونَ هَذه الآيَةَ».

٤- مِن عَلاماتِ فَسادِ النِّيةِ الأَخذُ مِن نُصوصِ الكِتابِ والسُّنةِ بالتَّشهِّي:

ومِن عَلاماتِ فَسادِ القَلبِ الأخذُ من الشَّريعةِ بحسَبِ الهوَى وإن ادَّعَى صاحبُه أنَّه لَا يَجوزُ للمؤمنِ أن يَتحاكَمَ إلَّا إلى الله؛ فإنَّ شَواهدَ الامتِحانِ العمليَّة تؤيِّد هَذا أو تُفنِّده، وقد سمَّى اللهُ هَذا الصَّنيعَ كُفرانًا مُقابلًا للإيمانِ فقالَ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، وهَذا يدلُّ على أنَّ له ارتباطًا وَثيقًا بالقلبِ وأَعمالِه بغضِّ النَّظرِ عن أيِّ الكُفرَين يُنزَّل: الأكبرِ أو الأَصغرِ كما هوَ مَعلومٌ عندَ المفسِّرينَ، لكن الشَّاهد منه هوَ في الكلامِ عن العملِ بنُصوصِ الوحيَين بالتَّشهِّي، وقد أَخبرَنا اللهُ ﷻ أنَّه يوجدُ مَن في قَلبِه مرضٌ وهوَ يدَّعِي ظاهِرًا السَّمعَ والطَّاعةَ لله ولرَسولِه ﷺ فقالَ: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [النور: ٤٧-٤٨]، وعلامةُ كذبِ دَعواه اتِّباعُه الحقَّ عندَ طمعِه في حظٍّ له فيه وتركُ ذلكَ عندَ فَقْدِه، كما قالَ ﷻ: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: ٤٩-٥٠]، فنصَّ على مرَض القلبِ.

وهيَ الصِّفةُ الَّتي أَنكرَها اللهُ بشدَّةٍ على اليَهودِ في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ

تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١]، فتأمَّلْ تكرارَ كَلمةِ «القَلب» في بَدءِ الآيةِ وفي انتِهائِها! وقد جاءَ في السُّنةِ ما يدلُّ على أنَّه ليسَ كلُّ مَن تَبع الحقَّ ظاهِرًا يكونُ صادقًا فيه، بل قد يَتْبع المرءُ الحقَّ مِن أَجْل أنَّ فيه هَواه، وذلكَ ما رَواه مسلم (٢٨٦) عن حُذيفةَ ابن اليَمان رضي الله عنهما قالَ: سَمعتُ رَسولَ الله ﷺ يقولُ: «**تُعرَضُ الفتنُ على القُلوبِ كالحصيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قلبٍ أُشرِبَها نُكِتَ فيهِ نُكتةٌ سَوداءُ، وأيُّ قلبٍ أَنكرَها نُكِتَ فيهِ نُكتةٌ بَيضاءُ، حتَّى تصيرَ على قَلبَين: على أَبيضَ مِثلِ الصَّفا فلَا تَضرُّه فِتنةٌ مَا دامَت السَّمواتُ والأرضُ، والآخَرُ أَسودُ مُربادًّا كالكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعرفُ مَعروفًا ولَا يُنكرُ مُنكرًا إلَّا مَا أُشرِبَ مِن هَواه**»، والشَّاهدُ منه هوَ الجملةُ الأَخيرةُ، قالَ الملَّا القاري في «مِرقاة المفاتِيح شرح مِشكاةِ المصابِيح» (٩/ ٢٥٣): «والمعنَى لَا يَبقَى فيهِ عِرفانُ ما هوَ مَعروفٌ ولَا إنكارُ ما هوَ مُنكرٌ إلَّا ما أُشرِب - أي القَلبُ - مِن هوَاه، أي فيَتبعُه طبعًا مِن غيرِ مُلاحظةِ كَونِه مَعروفًا أو مُنكرًا شَرعًا».

وأهلُ البدَع وإن لم يَكونوا كاليَهودِ في كُفرِهم فلَهُم نَصيبٌ من بعضِ هَذه الصِّفاتِ المذكورةِ في الآيةِ، وهَذا حالُ كَثيرٍ ممَّن يُلاحِق الحكَّامَ بإلحاحٍ في مَسائلِ الحاكميَّة وبينَهم وبينَ العملِ بالشَّريعةِ مَراحلُ، وقد بيَّن عَوارَ مدَّعِي الغيرةِ على حقِّ الله في الحاكميَّة الخَليفةُ الرَّاشدُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه، روَى مسلم (٢٤٣٣) عن عُبيدِ الله بنِ أبي رافعٍ مَولَى رَسولِ الله ﷺ «أنَّ الحَروريَّةَ لَمَّا

خَرجَت - وهوَ معَ عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه - قالُوا: لَا حُكمَ إلّا لله، قالَ عليٌّ: كَلمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطلٌ، إنَّ رَسولَ الله ﷺ وَصفَ ناسًا إنِّي لأَعرِفُ صِفتَهم في هَؤلاءِ، يَقولونَ الحقَّ بأَلسنتِهم لَا يَجوزُ هَذا مِنهم وأَشارَ إلى حَلقِه، مِن أَبغضِ خَلقِ الله إلَيه»، فهَذا الأثرُ يدلُّ دلالةً صَريحةً على أنَّ هؤلاءِ ادَّعَوا أنَّ اللهَ هوَ صاحبُ الحُكم المطلقِ لكنَّهم كانُوا غيرَ صادقِينَ فيما ادَّعَوا؛ بدَليلِ أنَّ عليًّا رضي الله عنه ناقشَهم وأَرسلَ إلَيهم كذلكَ حبرَ الأمَّة عبدَ الله بنَ عبَّاسٍ رضي الله عنهما ليُبيِّن لهم فأبَوا الإذعانَ للحقِّ، فإباؤُهم أمارةٌ على عدم صِدقِهم، لا سيما وهَذانِ صحابيَّانِ وعالِمانِ جَليلانِ..

ومِن التَّطبيقاتِ الكاشفةِ لهَذا في العَصر الأوَّل طلبُ الخَوارجِ مِن عبدِ الله ابن خبَّاب بن الأرتِّ أن يُسمعَهم حَديثًا من الأحاديثِ النَّبويَّةِ الَّتي سَمعَها أَبُوه من رَسول الله ﷺ، فلمَّا أَسمعَهم حَديثًا يُعالِج داءً فِيهم لَا يرَونَه داءً قتَلوه ولم يَنتفِعوا بما حكَمَ به رَسولُ الله ﷺ، على الرّغم من أنّهم يُدَندِنون دائمًا حولَ تَحكيم النُّصوص وأنَّ هدفَهم الأسمَى هوَ العملُ بالشَّريعةِ!! روَى عبد الرَّزَّاق (١٠/ ١١٨) وابنُ أبي شَيبة (٨/ ٧٣٢) وابنُ سعدٍ (٥/ ٢٤٥) وأحمدُ (٢١٠٦٤) والبلاذريُّ في «جمل مِن أَنساب الأَشراف» (٣/ ١٤٣) وأبو يعلَى (٧٢١٥) وابنُ جَرير في «تاريخِه» (٥/ ٨١) وأبو العَرب في «المحَن» (ص١٣٦) والطَّبرانيُّ (٤/ ٣٦٢٩- ٣٦٣١) بإسنادٍ صَحيحٍ - كما قالَ ابن حجَر في «الفتح» (١٢ / ٢٩٧) - إلى حُميد بن هلَال عَن رَجلٍ مِن عبدِ القَيسِ قالَ: «لَمَّا تفرَّقَ النَّاسُ، صَحبتُ قَومًا لَمْ أَصحَبْ قَومًا أَحَبَّ إليَّ صُحبةً مِنهُم، (وفي رِوايةٍ: قالَ: كنتُ

مع الخَوارج)، فسِرْنا على شطِّ نهَرٍ، فرُفعَ لَنا مَسجدٌ فإذَا فيهِ رَجلٌ، فلمَّا نَظرَ إلى نَواصِي الخيلِ خَرجَ فزِعًا يَجرُّ ثَوبَه، فقالَ لَه أَميرُنا: لِمَ تُرَعُ؟ فقالَ: قَد رُعتُموني، قالَ: فإذَا هوَ عبدُ الله بن خبَّابٍ، (وفي روايةٍ: فقَالُوا: أنتَ عبدُ الله بنُ خبَّاب صاحِبِ رَسولِ الله ﷺ؟ قالَ: نعَمْ)! قالَ لَه أَميرُنا: حدِّثْنا حَديثًا سَمعتَه مِن أَبيكَ يُحدِّثُه عَن رَسولِ الله ﷺ، قالَ: فحدَّثَ عَن أَبيهِ أنَّ رَسولَ الله ﷺ **ذكَرَ فِتنةً القاعِدُ فيهَا خَيرٌ مِنَ القائمِ، والقائمُ فيهَا خَيرٌ مِن الماشِي، والماشِي فيهَا خَيرٌ مِن السَّاعِي، فإنْ أَدركَتْك فكُنْ عبدَ الله المقتُولَ**، (وفي روايةٍ: فقالُوا لَه: فكُنْ أنتَ عبدَ الله المقتُولَ)! قالَ: فقَرَّبوه إلى شطِّ النَّهرِ فذَبَحوه، فرأَيتُ دمَه يَسيلُ في الماءِ مِثلَ الشِّراكِ مَا ابْذَقَرَّ[1]، قالَ: ثمَّ أَخذُوا أُمَّ وَلدِه فقَتلوها، وكَانَت حُبلَى فبَقَروا بَطنَها، فلَمْ أَصحَبْ قومًا أَبغضَ إليَّ مِنهُم حتَّى وجَدتُ خَلوَةً فانفَلَتُّ»، وفي روايةٍ عن حُميدٍ قالَ عن رَجلٍ كانَ يُجالسُنا في المَسجدِ الجامعِ قالَ: «صَحبتُ أَصحابَ النَّهر فكنتُ فيهم، ثمَّ كَرهتُ أَمرَهم خَشيتُ أن يَقتُلوني»، وللقصَّة طرقٌ عندَ الدَّارقطني (٣/ ١٣٢) ومن طَريقِه الخَطيب في «تاريخ بغداد» (١٢/ ٢٩٠) وابن الجَوزي في «المنتَظم» (٥/ ١٤٣) وانظُرْ «مجمع الزَّوائد» للهيثمي (٦/ ٢٣٠).

---

(١) قالَ أبو عُبيدٍ في «غَريب الحدِيث» (٤/ ٣٩٥): «أي سالَ ومَا امتزَج بالماءِ».

هَذه القَصَّةُ من أدلَّة عَدم صِدقِهم في التَّحاكمِ إلى الكتابِ والسُّنةِ، وقد بلغَ بهم غُرورُهم إلى عدَم انتِفاعِهم بالموعظةِ النَّبويَّةِ حتَّى إنَّ النَّاظرَ فيها ليَشعرُ كأنَّهم لَا يَرفَعون رأسًا بحَديثِ رَسولِ الله ﷺ، ومحلُّ الشَّاهدِ منه أنَّهم لو كانُوا صادقِين في أنَّهم خرَجوا حبًّا لله سُبحانَه وجِهادًا في سَبيلِه وغضبًا لشَريعتِه الَّتي يرَونَ أنَّ الأُمراءَ أَهملوها لأَذعَنوا لحَديثِ رَسولِ الله ﷺ إِذْ أَسمعَهم إيَّاه عبدُ الله بن خبَّاب؛ فإنَّ صِدقَ المتابَعةِ له ﷺ أمارةٌ قويَّةٌ على الصِّدقِ في محبَّة الله؛ كما قالَ اللهُ ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، ومَعلومٌ أنَّ بُلوغَ العبدِ محبَّتَه الحَقيقيَّةَ لربِّه هوَ قمَّةُ الإخلاص، فجمعَ اللهُ هنا بينَ الاتِّباعِ والإخلاصِ، ولذلكَ تسمَّى هَذه الآيةُ آيةَ الامتِحانِ، وقد مرَّ البحثُ في هَذا مع ذِكر شَواهدِه.



ما جاءَ في النُّصوصِ والآثارِ عن الخَوارج

أمرَ اللهُ نبيَّه ﷺ بأن يتبرَّأ من كلِّ مَن فرَّق دينَه إلى فِرقٍ وأحزابٍ، فقالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥].

ولَا يَزالُ السَّلفُ يتبرَّأُون من أَهْل البدَع، فقَد ظهرَت القدريَّةُ في عَهد عَبد الله بن عُمر رضي الله عنهما فلم يَقُل: هؤلاءِ إخوانُنا! وأنتُم مُنفِّرون وشُغلُكم الشَّاغلُ الرَّدُّ على إخوانِكم! ويَنقصُكم الأدبُ والحكمةُ، بل روَى مسلم (٨) عن يحيى بن يَعمر قالَ: «كانَ أوَّل مَن قالَ في القَدَر بالبَصرةِ مَعبَد الجُهني، فانطلقتُ أنا وحُميد بن عبد الرَّحمن الحِمْيَري حاجَّين أو مُعتمِرَين، فقُلنا: لو لقِينا أحدًا من أَصحابِ رَسولِ الله ﷺ فسأَلْناه عمَّا يقولُ هؤلاءِ في القَدَر، فوُفِّق لنا عبدُ الله بنُ عُمر بن الخطَّاب داخلًا المسجدَ، فاكتنَفتُه أنا وصاحبي: أَحدُنا عن يَمينِه والآخِر عن شِماله، فظنَنتُ أنَّ صاحبي سيَكِل الكلَامَ إليَّ، فقلتُ: أبا عَبد الرَّحمن! إنَّه قد ظهَر قِبَلنا ناسٌ يَقرأُون القرآنَ ويتقفَّرونَ العِلم، وذكَر من شَأنهم، وأنَّهم يَزعمونَ أن لَا قدَر، وأنَّ الأمرَ أُنُفٌ، قالَ: فإذَا لقِيتَ أولئكَ فأَخبِرْهم أنِّي بريءٌ مِنهم وأنَّهم بُرآءُ منِّي...»، فلم يَمنَع ابنَ عمرَ رضي الله عنهما تَلقيبُ النَّاس لهم بالقرَّاءِ ووَصفُهم بتَقفُّرِ العِلم أي - تتبُّعه - مِن التَّبرُّؤ منهم.

إنَّ كلامَنا في هَذه الرِّسالةِ عن فِرقةٍ من فرَقِ الضَّلالِ ألَا وهُم الخوارجِ؛ لأنَّهم أوَّلُ المعنيِّين ببَحثِنا؛ حيثُ لَا نَزالُ نَسمعُ كلِماتِ (التَّبريرِ!) لمذهبِهم

بالاعتِذارِ لهم حتَّى فيما يَقترِفون من إراقةِ دِماءِ الأَبرياءِ وبَلبلةِ أَوضاعِ المسلِمينَ وتَهديدِ أَمنِهم، وما يُدَّعَى لهم مِن خُلوص النِّيات وصِدقِ اللَّهجةِ، ولستُ أعنِي أنَّهم كالباطنيَّة الَّذينَ لَا يُريدونَ الإسلامَ ويَكيدونَ له، وإنَّما المرادُ بالطَّعنِ في نيَّتِهم مِن جهةِ عدَمِ تَميِيزِهم بين ما يُظهِرون من إرادةِ تَحكيم الإسلامِ وما يَنتَصِرون فيه لأَنفسِهم ويُغذُّون به أَحقادَهم من الفتنِ الَّتي يُكونونَ أوَّلَ مَن يوقِظُها.

وقد جاءَت النُّصوصُ في التَّحذيرِ مِنهم كثيرةً، بل لَا يوجدُ مثلُها ولَا مِعشارُها في حقِّ غيرِهم، وتَتابعَ السَّلفُ على ذمِّهم والطَّعنِ على نيَّاتِهم.

وممَّا جاءَ في ذمِّهم تَواتُرُ النُّصوصِ النَّبويَّةِ في الأَمر بقِتالِهم والتَّشريد بهم وفضحِهم والتَّبرُّؤ منهم:

منها قولُ النَّبيِّ ﷺ: «**هُم شرُّ الخَلقِ والخَليقةِ**».

وقَولُه ﷺ: «**مِن أَبغضِ خَلقِ الله إلَيه**».

وقَولُه ﷺ: «**لَئِن أَدركتُهُم لَأَقتلَنَّهم قتلَ عَادٍ**».

وقَولُه ﷺ: «**مَن لَقِيَهم فليَقتُلْهم؛ فإنَّ في قَتلِهم أجرًا لمَن قَتلَهم يومَ القِيامةِ**».

رَواها كلَّها البخاريُّ ومُسلمٌ، وانظُرْها فيهما على الأَرقامِ الآتيةِ: البُخاري (٣٣٤٤) و(٣٦١١)، ومسلم (٢٤١١-٢٤٣٥).

وقَولُه ﷺ: «**طُوبَى لِمَن قَتلَهُم أَو قَتلُوه**» رَواه أبو داود (٤٧٦٧) وصحَّحه الألبانيُّ.

وقَولُه ﷺ: «**الخوارِجُ كِلابُ النَّارِ**» رواه التِّرمذي (٣٠٠٠) وابن ماجَه (١٧٦) وغَيرهما وصحَّحه الألبانيُّ.

وقد كانَ أَصحابُ رسولِ الله ﷺ يَشتدُّون علَيهم جدًّا، وقد مرَّ أنَّ عُمرَ ابن الخطَّابِ رضي الله عنه هَمَّ بقَتْل صَبيغ بن عسل لشكِّه أنَّه من الخوارِج، وكشَف عن رَأسِه ليرَى هل هوَ محلوقٌ على سِمةِ الخوارج الأَوائلِ وقالَ: «**والَّذي نفسُ عمرَ بيدِه! لو وَجدتُك محلوقًا لضَربتُ رَأسكَ**» وهوَ عندَ الآجرِّي في «الشَّريعة» (١٥٢) وغيرِه بإسنادٍ صَحيحٍ، قالَ له هَذا مع أنَّه كانَ مِن طلبةِ العِلم كما جاءَ في تَمام الرِّوايةِ وقد مرَّت.

وكما جاءَ في «صَحيح البخاري» تعليقًا (١٢/ ٢٨٢- مع الفتح): «**وكانَ ابنُ عُمَر يَراهم شرارَ خَلْق الله**؛ إنَّهم انطَلَقوا إلى آيات نزلَت في الكُفَّار فجعَلوها على المؤمنينَ»، قالَ ابنُ حجَر: «وصلَه الطَّبري في مسنَد عليٍّ من (تهذيب الآثَار)... وسندُه صَحيحٌ».

وكانَ مِنهم مَن يُسمِّيهم «أعدَاء الله» ويَأمُر بقِتالهم، بل مِنهم مَن أَمر بقِتالِ غلامِه حين لحقَ بهم، كما روَى ابن سَعد (٤/ ٣٠١) وأحمد (١٩١٤٩) و(١٩٤١٤) وابن أبي عاصم في «السنَّة» (٩٠٦) واللَّالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٢٣١٢) - بإسنادٍ حسَّنه الألباني في «ظِلال الجنَّة» - عن سَعيد بن جمهان قالَ: «كنَّا نُقاتلُ الخَوارجَ وفينا عَبد الله بن أَبي أَوفى وقد لحِقَ له غلامٌ بالخَوارج، وهُم من ذلكَ الشَّطِّ ونحن مِن ذا الشَّطِّ، فنادَيناه: أبا فَيروز! أبا فَيروز! وَيحكَ

هَذا مَولاكَ عَبد الله بن أبي أَوفى! قالَ: نِعمَ الرَّجلُ هو لو هاجَرَ، قالَ: ما يَقولُ عدوُّ الله؟ قالَ: قُلنا يقولُ: نِعمَ الرَّجلُ لو هَاجرَ! قالَ: فقالَ: أَهِجرةٌ بعدَ هِجرتي مع رَسولِ الله ﷺ؟! ثمَّ قالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: **طُوبَى لمَن قتلَهم وقتَلُوه**».

وقد مضَى نَقلُ ما جاءَ عن أَميرِ المؤمنِينَ عُمر بن الخطَّاب في الخوارِج وعن عبدِ الله بن عبَّاس وعن أبي أُمامَة وستَأتي آثارٌ أُخرَى عن سَعد بن أبي وقَّاص وعبدِ الله بن عُمر وغيرِهما رضي الله عنهم، مع ما جاءَ عمَّن بَعدَهم، كما روَى ابنُ أبي شيبة (٧/ ٥٥٧) أنَّ عُمر بن عَبد العَزيز نَفسَه تبرَّأ من الخَوارج، وجمعُ آثارِ السَّلفِ في هَذا المعنَى فيه كُلفةٌ لكَثرتِها.

وبالجملةِ فشدَّةُ السَّلفِ على أَهل البدَع - لَا سيما الخوارج مِنهم - مَعلومةٌ، وما وجَدْنا أنَّهم كانُوا يَتكلَّفونَ لجَرائمِهم المَخارجَ أو الاعتِذارتِ أو يَحرِصون على مؤاخاتِهم، أو يرَونَ أنَّهم ما دامُوا يواجِهونَ العِلمانيِّين فيَنبَغي السُّكوتُ عَنهم، كما نَسمعُ اليومَ ممَّن لم ترَسَخ أَقدامُهم في السُّنة أو أكلَت الحِزبيَّةُ الحركيَّةُ مِن ولائِهم للتَّوحيدِ والسُّنة الجِذعَ وما وعَى، ويَكفي في المفارَقاتِ بين السُّنةِ النَّبويَّةِ والمناهجِ الحركيَّةِ:

- أنَّ النَّبيَّ ﷺ يَأمرُ بقَتلِهم، والحرَكيُّون يَأمُرون بالاكتِفاءِ بمُحاورتِهم!
- أنَّ النَّبيَّ ﷺ يُسمِّيهم كِلابَ النَّارِ، والحرَكيُّون يَلتَمسونَ لهم الأَعذارَ!
- أنَّ النَّبيَّ ﷺ يَراهم شِرارَ الخَلقِ، والحرَكيُّون يرَونَهم أَخلصَ النَّاس للحقِّ!

وقد كانَ علَيهم أن يُحكِّموا السُّنةَ في هذهِ الأَحكامِ الَّتي يُصدِرونها ولَا يَتحرَّجوا منها بل يُسلِّموا لها تَسليمًا؛ لأنَّ اللهَ يَقولُ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[النساء: ٦٥]، والوقَّافُ عندَ النَّصِّ يَكونُ كما قالَ الأَوزاعيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «نَدورُ مع السُّنةِ حيثُ دارَت» رَواه اللَّالكائيُّ في «شرحِ أُصولِ الاعتِقاد» (٤٧)، وإذَا ذُمَّت عندَه البدعُ لم يَنتصِر لها ولم يَتمنَّ أن يُسكتَ عنها، فقد قالَ رَجلٌ لأبي بَكر بن عيَّاش: «يا أبا بَكرٍ! مَن السُّنيُّ؟ قالَ: الَّذي إذَا ذُكرَت الأَهواءُ لم يَتعصَّب لشيءٍ منها» رَواه أيضًا اللَّالكائيُّ (٥٣) وفي بَعض الرِّواياتِ بلَفظ: «لم يَغضَب...».

حُكمُ السَّلفِ

على الحريصِينَ على الاعتِذارِ للجَماعاتِ الدَّمويَّةِ

نَسمعُ كَثيرًا جدًّا مَن يَعتذرُ للجماعاتِ المعاصِرةِ المنسوبةِ للخوارجِ مَهْما يرَى مِنها مِن سبٍّ وتَكفيرٍ بغيرِ حقٍّ وحِرصٍ على قِتالِ الأَنظمةِ كلِّها وهَدمٍ للمباني والمنشآتِ الَّتي يَعيشُ منها المسلِمونَ وضربٍ لاقتِصادِهم وتَفجيرٍ عَشوائيٍّ وإزهاقٍ للأَرواحِ المعصومةِ وصدٍّ للكفَّارِ عن اعتِناقِ الإسلام بسببِ أَعمالِهم وإدخالٍ للرُّعبِ في قُلوبِ العالَمِ كلِّه مِن كلِّ ما يُقالُ له: (إسلام) وتسبُّبٍ في تَسليطِ الكفَّارِ الحاكِمينَ في العالمِ على المسلِمينَ، كلُّ هَذا لَا يردُّ المُدافعَ عنهم عن قولِه فيهم: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾[الكهف: ١٣]!! وأَحسنُهم في انحِرافِه إِلَيهم مَن يَعتذرُ لهم بأَنَّهم لَا يَعرِفون أو أَنَّهم بطَّالونَ لَا وَظائفَ لهم أو لهم حالاتٌ نَفسيَّةٌ واجتِماعيَّةٌ وغير ذلكَ.

مع أَنَّه جاءَ في السُّنة ما يدلُّ على أَنَّه لا عذرَ لهم، فقد قالَ رَسولُ الله ﷺ: «**مَن خَلعَ يدًا مِن طاعةٍ لقِيَ اللهَ يومَ القِيامةِ لَا حجَّةَ لَه**» رواه مسلم (١٨٣١).

ذكَرتُ هَذا الحَديثَ في هَذا البابِ لأَنَّ فيهِ فائدةً عَزيزةً، وهيَ أَنَّه لَا يَجوزُ الاعتذارُ للثَّوريِّين الخارِجين كما يَفعلُ المؤيِّدون لهم اليومَ ولو لم يُمارِسوا الثَّوراتِ، قالَ النَّووي في «شَرحِه» (١٢/ ٢٤٠): «أي لَا حجَّةَ له في فعلِه، ولَا عذرَ له يَنفعُه»، وقالَ القُرطبيُّ في «المُفْهِم» (٥/ ٤٣٣): «وقَولُه: (**لَا حجَّةَ له**) أي لَا يجدُ حُجَّةً يَحتجُّ بها عندَ السُّؤالِ، فيَستحقُّ العَذابَ والنَّكالَ؛ لأَنَّ رَسولَ الله

ﷺ قد أَبلغَه ما أمَره اللهُ بإبلاغِه من وُجوبِ السَّمع والطَّاعةِ لأُولِي الأمرِ في الكِتابِ والسُّنةِ».

وقد نصَّ الحديثُ على خَصلةٍ واحدةٍ مِن خِصالِ الجاهليَّة الَّتي علَيها مَدارُ هَذه الفائدةِ لأنَّهم يَشترِكون فيها جَميعًا، ألَا وهيَ نَقضُ بَيعةِ حكَّامِهم، وهَذه الخَصلةُ لَا يَقبَلون فيها صَرفًا ولَا عَدلًا ولَا مُناقشةً، بل كلَّما قيلَ لهم: لا بدَّ لكم من الاعتِرافِ ببَيعةِ حكَّامِكم المسلمِينَ حَميَت أُنوفُهم وتَطايرَ الشَّررُ من أَعيُنِهم وارتفعَت أَعلامُ الولاءِ والبَراءِ في ساحاتِ أَذهانِهم.

هَذا صنفٌ، وصنفٌ آخرُ يَعتذر لهم بأنَّ أدلَّةَ المُخالفِين لم تتَّضح لهم، أو بأنَّهم شبابٌ لَا بدَّ أن تَخفَى علَيهم بعضُ الأُمور فيُعذَرون لطُغيانِ الحماسةِ علَيهم، أو بأنَّ الأَنظمةَ الحاكِمةَ هيَ المَسئولُ الأوَّلُ عن انحِرافِهم؛ لأنَّهم عامَلوهم بقَسوةٍ، بل لقَد بلَغ مِن انحِرافِ بَعضِهم أنَّه وَجدَ السَّبيلَ لبَحثِ الأعذارِ لَمن قامَ بالتَّفجيراتِ العَشوائيَّةِ والتَّقتيلِ الجماعيِّ باسم العمليَّاتِ الاستِشهاديَّة مِن أَجْل الوُصولِ إلى قتلِ مَن يُلقِّبونهم بالطَّواغيتِ، وبدلًا من أن يُطبِّقوا علَيهم العُقوبةَ الَّتي أنزَلَها اللهُ في كِتابِه، جعَلوا يَقترِحونَ على المَسئولِين مُحاورتَهم، كأنَّ الحجَّةَ غيرُ قائمةٍ، مع أنَّ المُحاورةَ مَعمولٌ بها كلَّ حينٍ، والعُلماءُ دائمُو النُّصح لهم والحَمدُ لله، والكِتاباتُ في هَذا مُنتشرةٌ مُشتهرةٌ، إنَّ مِثلَ هَذه الاعتِذارَات وَراءَها نَوايا سيِّئةٌ عندَ أَكثرِهم، وفي مِثلها يُقالُ: وَراءَ الأكَمة ما وَراءَها! لأنَّ أَكثرَ هؤلاءِ المُفجِّرين هُم مِن أَصحابِ أُولئكَ المُدافعِين عنهم دِفاعًا مَستورًا وبينَهم رَحمٌ

ثَورِيَّةٌ مَشهودةٌ، فعزَّ علَيهم أن يُقتَلوا تحتَ حدِّ القِصاص الشَّرعيِّ وتطلَّبوا لهم المَخارج للشَّفاعةِ في حدٍّ مِن حُدود الله كي يُؤخِّروه بل يُلغُوه، مع أنَّ هَذا الَّذي هوَّنوا من شَأنه - أَعني التَّفجيرَ - فعلٌ تُنكرُه جميعُ الفِطَر، من مُسلمِين ويَهود ونَصارَى وغيرِهم؛ وقد قالَ الله ﷻ: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾[النور: ١٥].

على كلٍّ، فإنَّ الحديثَ السَّابقَ حجَّةٌ دامغةٌ لهم لو كانُوا يُعظِّمون الرَّسولَ ﷺ حقَّ التَّعظيم، ولا يَتجاوَزونَ كلامَه إلَّا بالإذعانِ والتَّسليم؛ لأنَّه بلَّغ أمَّتَه البلاغَ المبينَ لا سيما في هَذا الباب الَّذي بلغَت أَحاديثُه حدَّ التَّواترِ، ولذَلكَ ذكَرَ الحسنُ البَصري أنَّه قد يُقبَلُ عذرُ الجَهل لبَعض الأتباعِ من اليَهودِ والنَّصارَى والمجُوس؛ لأنَّ كتبَهم الَّتي بأَيدِيهم محرَّفَةٌ، لكن لم يَرضَ رَحِمَهُ اللَّهُ بالاعتِذار للخَوارجِ؛ لأنَّ كتابَ الله وسنَّةَ رَسولِه ﷺ بينَ أظهُرِهم محفوظان، وأهل العِلْم بهما متَوافِرون في كلِّ زَمانٍ، فقد روَى الفريابي في «صفة النِّفاق» (٥١) والآجرِّي في «الشَّريعة» (٤٧) بسندٍ صَحيحٍ عن الحسَن - وذكَرَ الخَوارج - قالَ: «حَيارَى سُكارَى! لَيسُوا بيَهود ولَا نَصارَى ولَا مَجوس فيُعذَرون»، أي ليسُوا من أهلِ هَذه الدِّيانَاتِ التَّائهِين في تَحريفاتِها حتَّى يُعذَروا، لَا سيما بعدَ أن قامَت الحجَّةُ النَّبويَّةُ علَى جميعِ المسلِمين في التَّحذيرِ من مَذهَب الخَوارجِ بما لَا يُعرَف عن غيرِهم من الفِرق، وقد وُلدَت طائفتُهم في عَصرٍ فيه أَعلمُ أَهل الأَرض بعدَ نبيِّهم؛ وروَى عبد الرَّزَّاق في «تفسيره» (١/ ١١٥) ومن طَريقِه ابن جَرير في «تفسيره» (٥/ ٢٠٧) بسندٍ صَحيحٍ عن قَتادةَ رَحِمَهُ اللَّهُ في قَولِه: «ولَعَمري! لقَد كانَ في أَهل بدرٍ والحُدَيبية الَّذينَ شَهِدوا مع رَسولِ الله ﷺ بَيعةَ الرِّضْوان مِن

المهاجِرينَ والأنصارِ خبرٌ لمن استخبر، وعِبرةٌ لمن استَعبَر، لمن كانَ يَعقِل أو يُبصرُ، إنَّ الخوارجَ خرَجوا وأَصحابُ رَسولِ الله ﷺ يَومئذٍ كثيرٌ بالمدينةِ والشَّام والعِراقِ، وأَزواجُه يَومئذٍ أَحياءٌ، واللهِ! إِنْ خَرَج مِنهم ذَكرٌ ولَا أُنثَى حَروريًّا قطُّ، ولَا رضُوا الَّذي هُم علَيه، ولَا مالَأُوهم فيه[1]، بل كانوا يُحدِّثون بعَيبِ رَسولِ الله ﷺ إيَّاهم ونَعتِه الَّذي نعَتَهم به، وكانوا يُبغِضونهم بقُلوبِهم، ويُعادونَهم بأَلسنتِهم، وتَشتدُّ - واللهِ!- علَيهم أَيدِيهم إذَا لَقُوهم، ولَعَمري! لو كانَ أمرُ الخوارِجِ هُدًى لاجتَمعَ، ولكنَّه كانَ ضَلالًا فتفرَّق، وكَذلكَ الأمرُ إذَا كانَ مِن عندِ غيرِ اللهِ وَجدتَ فيه اختِلافًا كَثيرًا، فقد أَلَاصوا هَذا الأمرَ منذُ زمانٍ طَويلٍ[2]، فهَل أَفلَحوا فيه يومًا أو أَنجَحوا؟! يا سُبحانَ اللهِ! كيفَ لَا يَعتبرُ آخرُ هَؤلاءِ القَوم بأوَّلِهم؟! لو كانُوا على هدًى قد أَظهرَه اللهُ وأَفلجَه[3] ونَصرَه، ولكنَّهم كانُوا على باطلٍ أَكذبَه اللهُ وأَدحضَه، فهُم كما رَأيتَهم، كلَّما خَرج لهم قَرْنٌ أَدحضَ اللهُ حجَّتَهم وأَكذَب أُحدوثتَهم وأَهراقَ دِماءَهم، إن كَتَموا كانَ قَرْحًا في قُلوبِهم، وغمًّا علَيهم، وإن أَظهَروه أَهراقَ اللهُ دِماءَهم، ذاكُم

---

(١) أي لم يَخرُج أحدٌ من الصَّحابةِ ولَا رضُوا بذلكَ ولَا أَعانُوا علَيه، خلَافًا للَّذينَ لَا يَجدونَ اليومَ فُرصةً لمُساندةِ المُنازِعين للسُّلطانِ إلَّا استغلُّوها، فإن لم يَقدِروا إلَّا على إسكاتِ الرَّادِّ علَيهم فعَلُوا وقالُوا له: لَا تُجادِل عن الطَّواغيتِ!

(٢) أَلاصَ الأمرَ: أي أَرادَه وراودَ مِن أَجلِه كما في «النِّهاية» لابن الأثير.

(٣) أَفلجَه: حكَم له وغلَّبه على خَصمِه كما في المصدرِ السَّابقِ.

- والله! - دينُ سوءٍ فاجتَنِبوه، والله! إنَّ اليَهوديَّةَ لبِدعةٌ، وإنَّ النَّصرانيَّةَ لبِدعةٌ، وإنَّ الحَروريَّةَ لبِدعةٌ، وإنَّ السَّبائيَّةَ لبِدعةٌ، ما نَزَلَ بهنَّ كِتابٌ ولَا سنَّهنَّ نبيٌّ».

وعدَمُ الاستِفادةِ من أَهْل العِلم طَبعٌ مَعروفٌ في الخَوارج وأَذنابِهم؛ فكما زيَّنَ لهم الشَّيطانُ بالأَمس الاستِقلالَ عن الصَّحابةِ حتَّى زهَّدَهم فيهم وأَرَاهم مِن أَنفسِهم الفَضلَ علَيهم، فقَد زيَّن لهؤلَاءِ اليَومَ الاستِقلالَ عن أَهل العِلم وزهَّدَهم فيهم.

وعلى عدَم عُذرِهم جرَى عمَلُ الصَّحابةِ؛ ففي «السِّيَر» للذَّهبيِّ (٣/ ٩) عن الحسَن قالَ: «مرَّ بي أنسٌ وقد بَعثَه زِيادُ بن أَبيه إلى أَبي بَكرةَ يُعاتبُه فانطلَقتُ معَه، فدخَلْنا علَيه وهوَ مَريضٌ وذَكرَ له أنَّه استَعملَ أَولادَه، فقالَ: هَل زادَ على أنَّه أَدخلَهم النَّارَ، فقالَ أنسٌ: إنِّي لَا أَعْلمُه إلَّا مُجتهدًا، قالَ: أَهلُ حَروراء اجتَهدُوا: أفَأصابُوا أم أَخطأُوا؟! فرَجَعْنا مَخصومِين».

إذَن فليسَ كلُّ اجتِهادٍ له محلٌّ من النَّظَر، كما أنَّ الغالبَ على المُتطلِّبين لهم الأَعذارَ أن يَكونُوا على مَشاربِهم لكنَّهم يَتستَّرونَ بالتَّوسُّط والإِنصافِ تارةً، وبالرَّويَّةِ أُخرَى، وبالمُحاورَةِ ثالثةً...



ما وَردَ في الطَّعنِ في نيَّاتِ الخَوارجِ

روَى مُسلم (٤٨١٣) أنَّ رَسولُ الله ﷺ قالَ: «**يَكونُ بَعدِي أئمَّةٌ لَا يَهتَدونَ بِهُدَاي، ولَا يَسْتنُّونَ بسُنَّتي، وسيَقومُ فيهِم رِجالٌ قُلوبُهم قُلوبُ الشَّياطِين في جُثمانِ إِنس**».

هَذا واحدٌ من ألفاظِ حديث حُذيفة رضي الله عنه وهوَ واضحٌ في الطَّعن على قُلوبِ هَؤلاءِ القائمِينَ في مواجهةِ هَؤلاءِ الأئمَّة الحكَّام المخالِفينَ لهَدي سيِّدِ الأَنام، وفيه أيضًا قولُه ﷺ: «**دُعاةٌ على أَبْوابِ جَهَنَّم...**»، قال ابن حجَر في «الفتح» (١٣/ ٣٦): «الدُّعاة على أَبوابِ جهنَّم مَن قامَ في طلَب المُلْك من الخَوارج وغَيرهم»، وأشار إليه النَّووي أيضًا في شرحه الحَديث، فقالَ (١٢/ ٢٣٧): «هؤلاءِ من كانَ من الأمَراء يَدعو إلى بدعةٍ أو ضلالٍ آخَر، كالخَوارج والقَرامطة وأَصحاب المحنَة».

ومِن دَقيق فِقه البخاري رحمه الله أنَّه ذَكر في كتاب فَضائل القُرآن من «صحيحه» حَديثَين في الخوارج:

الأوَّل: هوَ عندَه برَقم (٥٠٥٧) رَواه عن عليٍّ رضي الله عنه قالَ: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقولُ: «**يَأتي في آخِرِ الزَّمانِ قومٌ حُدَثاءُ الأَسنانِ سُفهاءُ الأَحلام يَقولونَ مِن خَير قولِ البريَّة، يَمرُقونَ مِن الإسلَامِ كما يَمرقُ السَّهمُ مِن الرَّميَّةِ، لَا يُجاوزُ إيمانُهم حَناجرَهم، فأَينَما لَقِيتُموهم فاقتُلوهُم؛ فإنَّ قَتلَهم أجرٌ لِمَن قتلَهُم يومَ القِيامةِ**».

والثَّاني: هوَ عندَه برَقم (٥٠٥٨) رَواه عن أبي سَعيدٍ الخُدري رضي الله عنه قالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «يَخرجُ فيكُم قومٌ تَحقِرونَ صَلاتَكم معَ صَلاتِهم، وصِيامَكم معَ صِيامِهم، وعَملَكم معَ عَملِهم، ويَقرأُونَ القرآنَ لَا يُجاوزُ حَناجرَهم، يَمرُقونَ مِن الدِّينِ كَما يَمرقُ السَّهمُ مِن الرَّميَّةِ» الحَديثَ.

وبوَّب لهما بتَبويبٍ عَجيبٍ جدًّا، فقالَ: «بابُ إِثْم مَن راءَى بقِراءة القُرآن أو تأكَّلَ به أو فجَرَ به»، فجعلَ رحمه الله مِثلَ هذهِ الأَحاديث دَليلًا على فَسادِ قُلوبهم وتدنُّس نيَّاتِهم إذ أَدخلَها في الرِّياءِ، وقد كنتُ أظن أن هذا من استنباط الإمام البخاري رحمه الله لكنني وجدتهُ عندَ من هو أعلى طبقةً منه، بل عند الطبقةِ العُليا من هذه الأمَّة ألا وهي طبقة الصحابة رضي الله عنهم، فقد روى مسلمٌ (٧٢٢) أن رجلًا قال لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: « إنِّي لأقرأُ المفصَّل في رَكعةٍ! فقالَ عبدُ الله: هذًّا كهَذِّ الشِّعرِ؟! إنَّ أقوَامًا يقرأُون القُرآنَ لا يُجاوزُ تَراقيَهُم! ولكِن إذا وقعَ في القَلبِ فرسَخَ فيه نَفعَ »، فبيَّن له أن إتقانَ الخوارج لحفظِ القرآنَ ليس إلا قراءة حنجرةٍ، والقلب لا يفقهُ ما يحفظ.

هَذا فقهُ السَّلفِ لَا كقَولِ بَعض المتفقِّهةِ من الحركيِّين عن الشَّبابِ المولَع بالتَّكفيرِ بغيرِ حقٍّ والنَّشطِ في إصابةِ دِماءِ المسلمِينَ باسم الجِهادِ: إنَّ نيَّتَهم تَحكيمُ الشَّريعةِ، وإنَّما ورَّطَهم في الخطأ غيرتُهم على الدِّينِ مع صَفاءِ سَريرتِهم!!

قالَ النَّووي في «شرح مسلم» (٦/ ١٠٥): «مَعناه أنَّ قَومًا ليسَ حظُّهم مِن القُرآنِ إلَّا مُرورَه على اللِّسانِ فلَا يُجاوِز تَراقيَهم لِيَصلَ قُلوبَهم، وليسَ ذلكَ هوَ المطلوب، بل المطلوبُ تَعقُّلُه وتَدبُّرُه بوُقوعِه في القَلبِ».

وفي تَوجيهِه قالَ الحافظُ ابن حجَر في «الفتح» (٩/ ٩٩): «فالَّذي فهِمَه الأئمَّةُ من السِّياقِ أنَّ المُرادَ أنَّ الإيمانَ لم يَرسَخ في قُلوبِهم؛ لأنَّ ما وقفَ عندَ الحُلقوم فلم يَتجاوَزْه لَا يَصِل إلى القَلب»، وقالَ في (١٢/ ٢٩٣) وهو يتحدَّث عن الخَوارج: «أي يَنطِقون بالشَّهادتَين ولَا يَعرِفونها بقُلوبِهم»، وقال أيضًا (١٢/ ٢٨٨): «والمرادُ أنَّهم يؤمِنون بالنُّطق لَا بالقَلب»، وبوَّبَ البخاريُّ لحَديثِ الخَوارج أيضًا في البابِ ما قَبل الأَخير من «صَحيحه» بقَولِه: «بابُ قِراءةِ الفاجِر والمُنافقِ وأَصواتُهم وتِلاوتُهم لَا تُجاوِزُ حَناجرَهم»، فتأمَّلْ!

وقالَ ابنُ عبدِ البرِّ في «الاستِذكار» (٢/ ٤٩٩): «وأمَّا قولُه: (يَقرأونَ القُرآنَ لَا يُجاوزُ حَناجرَهُم) فمَعناه أنَّهم لم يَنتفِعوا بقِراءتِه إذ تَأوَّلوه على غَير سَبيل السُّنَّة المُبيِّنة له، وإنَّما حمَلَهم على جَهْل السُّنَّة ومُعاداتِها وتَكْفيرهم السَّلف ومَن سلَك سبيلَهم ورَدِّهم لشَهاداتِهم ورِواياتِهم تأوَّلُوا (لعلَّها: تأوُّل...) القرآنَ بآرائِهم، فضلُّوا وأضلُّوا فلم يَنتفِعوا به، ولَا حصَّلوا مِن تلَاوتِه إلَّا على ما يحصلُ علَيه الماضغُ الَّذي يَبلع ولَا يُجاوزُ ما في فيهِ من الطَّعام حُنجرتَه»، أي إنَّهم لَمَّا كفَّروا مَن كفَّروا من السَّلفِ حُرِموا فَهمَهم وانفرَدَ بهم الشَّيطانُ يُزيِّن لهم ما شاءَ من الفُهوم المُنحرِفةِ، وقالَ رَحِمَهُ اللَّهُ (٢/ ٥٠١): «وفي هَذا الحَديثِ نصٌّ على أنَّ القُرآن قد يَقرأُه مَن لَا دِينَ له ولَا خَيرَ فيه ولَا يُجاوزُ لِسانَه، وقد مضَى هَذا المعنَى عندَ قولِ ابن مَسعودٍ: (وسيَأتي على النَّاس زَمانٌ قَليلٌ فُقهاؤُه،

كثيرٌ قرَّاؤُه، تُحفظُ فيه حروفُ القرآنِ وتُضيَّع حُدودُه)[1]، وذكَرْنا هناكَ قولَ رَسولِ الله ﷺ: (**أَكثرُ مُنافقِي أُمَّتي قرَّاؤُها**)[2]، وحَسبُكَ بها ترَى مِن تَضييع حُدودِ القرآنِ وكَثرةِ تلَاوتِه في زَمانِنا هَذا بالأَمصارِ وغَيرِها مع فِسق أَهلِها، واللهَ أَسأَلُه العِصمةَ والتَّوفيقَ والرَّحمةَ، فذلكَ مِنه لَا شَريكَ له ﷻ.

وأُبيِّنُ هَذا بذِكر بعضِ الشَّواهِدِ التَّاريخيَّةِ الدَّالَّةِ على فَسادِ قُلوب الخَوارج، وأنَّهم أَهلُ دُنيا وإن تَظاهَروا بخلَاف ذلكَ:

الشَّاهدُ الأَوَّل: ما وقعَ لأوَّلِهم ففي صَحيح البُخاري (٣٤٠٥) وصَحيح مُسلم (١٠٣٦) عَن عبدِ الله بن مَسعودٍ قالَ: «لمَّا كانَ يومُ حُنَينٍ آثرَ رَسولُ الله ﷺ ناسًا في القِسمةِ، فأَعطَى الأَقرعَ بنَ حابسٍ مائةً مِن الإبلِ، وأعطَى عُيَينَةَ مِثلَ ذَلكَ، وأَعطَى أُناسًا مِن أَشرافِ العَربِ، وآثرَهُم يَومئذٍ في القِسمةِ، فقالَ رَجلٌ: واللهِ! إنَّ هَذهِ لَقِسمةٌ مَا عُدلَ فيها ومَا أُريدَ فيها وجهُ الله!! قالَ: فقُلتُ: واللهِ! لَأُخبِرنَّ رَسولَ الله ﷺ، قالَ: فأَتيتُه فأَخبَرتُه بمَا قالَ، قالَ: فتَغيَّر وجهُه حتَّى كانَ كالصِّرفِ[3]، ثمَّ قالَ: **فمَن يَعْدلُ إن لَم يَعدِل اللهُ ورَسولُه؟!** قالَ: ثمَّ

---

(١) رَواه مالك (١/ ١٧٣)، قالَ ابن عبد البرِّ في «الاستذكار» (٢/ ٣٦٣): «هَذا الحَديثُ قَد رُوي عن ابن مَسعودٍ مِن وُجوهٍ متَّصلةٍ حِسانٍ مُتَواترةٍ».

(٢) أخرَجَه أحمد (٦٦٣٣-٦٦٣٤) و(١٧٣٦٧) وغيرُه وصحَّحَه الألباني في «السِّلسلَة الصَّحيحَة» (٧٥٠).

(٣) أي احمرَّ وَجهُه، والصِّرف هوَ بالكَسْر شَجرٌ أَحمرُ يُدْبغ به الأَديمُ، كما في «النِّهايَة» لابن الأَثِير.

قالَ: يرحَمُ اللهُ موسَى؛ قَد أُوذيَ بأكثرَ مِن هَذا فصبرَ، قالَ: قلتُ: لَا جرَمَ لَا أَرفعُ إلَيه بَعدَها حَديثًا»، وروَى أحمد (١٩٧٨٣) وغيرُه بسندٍ صَحيحٍ في الشَّواهد عَن شَريكِ بن شِهابٍ قالَ: «كنتُ أَتمنَّى أَن أَلقَى رَجلًا مِن أَصحابِ محمَّدٍ ﷺ يُحدِّثني عَن الخَوارِجِ، فلَقيتُ أَبا بَرزةَ في يومِ عَرفةَ في نفرٍ مِن أَصحابِه، فقلتُ: حدِّثْني شيئًا سَمعتَه مِن رَسولِ الله ﷺ في الخوارِج، قالَ: أُحدِّثكم بشَيءٍ قَد سَمعَتْه أُذنايَ ورأَتْه عَينايَ: أُتيَ رَسولُ الله ﷺ بِدَنانيرَ فقَسمَها وثَمَّ رَجلٌ مَطمومُ الشَّعرِ[1] آدمُ أَو أَسودُ، بينَ عَينَيه أثرُ السُّجودِ، علَيه ثَوبانِ أبيَضانِ، فجَعلَ يَأتيه مِن قِبَل يَمينِه ويَتعرَّضُ لَه، فلَم يُعطِه شيئًا، قالَ: يَا محمَّدُ! مَا عَدلتَ اليَومَ في القِسمةِ، فغَضبَ غضبًا شَديدًا، ثمَّ قالَ: واللهِ! لَا تَجدونَ بَعدِي أحدًا أَعدلَ علَيكُم منِّي ثلاثَ مرَّاتٍ، ثمَّ قالَ: يَخرجُ مِن قِبَل المشرقِ رِجالٌ كأَنَّ هَذا مِنهم، هَديُهم هَكذا يَقرأُونَ القرآنَ لَا يُجاوزُ تَراقيَهم، يَمرقُونَ مِن الدِّين كما يَمرقُ السَّهمُ مِن الرَّميَّةِ، ثمَّ لَا يَرجِعونَ فيهِ، سِيماهُم التَّحليقُ، لَا يَزالونَ يَخرُجونَ حتَّى يَخرجَ آخرُهم معَ الدَّجَّالِ، فإِذَا لَقِيتُموهم فاقتُلوهم هُم شرُّ الخَلقِ والخَليقةِ».

قالَ ابن حجَر في «الفتح» (١٢/ ٢٩٨): «فدلَّ على أنَّ الحاملَ للقائلِ على مَا قالَ مِن الكَلام الجافي وأَقْدَمَ علَيه مِن الخِطاب السَّيِّئ كَونه لَم يُعطَ مِن تلكَ العطيَّة، وأنَّه لَو أُعطيَ لَم يَقُل شيئًا مِن ذَلك»، وقالَ أيضًا: «وتَرجمَ أبو عَوانة في صَحيحه لهذهِ الأَحاديث: بَيان أَنَّ سَببَ خُروج الخَوارِج كانَ بسبَبِ الأَثَرة في القِسمةِ، معَ كَونها كانَت صَوابًا فخَفيَ عَنهم ذَلك».

---

(١) يُقالُ: طمَّ شعرَه، إذَا جزَّه واستأصلَه.

ولَمَّا استدلَّ الخوارجُ على عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه بقَول الله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠]، لم يَتردَّد في الطَّعن على نيَّاتِهم - مع أنَّهم أفضلُ مِن هَؤلاءِ الَّذين يُصحِّح الحركيُّونَ نيَّاتِهم - وقالَ فيهم قولتَه المشهورةَ: «كَلِمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطِلٌ» رواه مُسلم (٢٤٣٤).

فقَولُه: «أُريد بها باطلٌ» طَعنٌ في الإرادةِ الَّتي هي أدلُّ شيءٍ على نيَّة المرء، قالَ ابن تَيمية كما في «مجموع الفتاوَى» (٢٨/ ١٧٦): «فإذَا كانَ العبدُ قصدُه ومُرادُه وتَوجُّهُه إلى الله، فهَذا صلاحُ إرادتِه وقَصدِه»، ويؤيِّدُه في هَذا المعنَى ما نقلَه عبدُ القَاهر البَغدادي في «الفَرْق بين الفِرَق» (ص ٨٠) قالَ: «وبرزَ حُرقوصُ ابن زُهَير إلى عليٍّ وقالَ: يا ابنَ أبي طالبٍ! لَا نُريدُ بقِتالك إلَّا وَجهَ الله والدَّارَ الآخرةَ!! وقالَ له عليٌّ: بل مثلُكُم كما قالَ اللهُ عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف: ١٠٣-١٠٤]، مِنهم أنتَ وربِّ الكَعبة! ثمَّ حمَلَ علَيه في أَصحابِه وقتلَ عبد الله بن وَهبٍ في المُبارَزة، وصُرِعَ ذُو الثَّديَّة عن فرَسِه...».

ومِن الصَّحابةِ الَّذينَ طعنُوا على ما في قُلوب الخَوارج أيضًا سعدُ بن أبي وَقَّاص رضي الله عنه ، فقَد روَى ابنُ أبي شَيبة (٣٩٠٨١- مُختصَرًا) والحاكم (٢/ ٤٠١) بإسنادٍ صَحيحٍ عن مُصعَب بن سَعدِ بن أبي وقَّاصٍ قالَ: «قلتُ لأَبي: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف: ١٠٣-١٠٤]: الحَروريَّة هُم؟ قالَ: لَا، ولكنَّهم أَصحابُ الصَّوامعِ،

والحَروريَّةُ قَومٌ زاغُوا **فأَزاغَ اللهُ قُلوبَهم**»، وهَذا الوصفُ لَا يُطلقُ إلَّا على مَن فسدَ باطنُه كما هوَ واضحٌ، ولذلكَ كانَ من صِفاتِهم الدَّالَّة على زَيغ قُلوبِهم اتِّباعُ المُتشابهِ من النُّصوص كما مرَّ.

ومِنهم عبدُ الله بنُ عُمر رضي الله عنهما، فقد روَى البخاري (٧٠٩٥) عن سعيد ابن جُبَير قالَ: «خَرجَ علَينا عبدُ الله بنُ عُمرَ، فرجَونَا أَن يُحدِّثَنا حَديثًا حسَنًا، قالَ: فبادَرَنا إلَيه رَجلٌ فقالَ: يَا أَبا عبدِ الرَّحمنِ! حدِّثْنا عن القِتالِ في الفِتنةِ واللهُ يَقولُ: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[الأنفال: ٣٩]، فقالَ: هَل تدرِي مَا الفِتنةُ ثكِلَتكَ أمُّكَ؟! إنَّما كانَ محمَّدٌ ﷺ يُقاتِل المُشركِينَ وكانَ الدُّخولُ في دينِهم فِتنةً، ولَيس كقِتالِكم على المُلكِ»، فهُم زعَموا أنَّ قِتالَهم قامَ ليَكونَ الدِّينُ لله، وابن عمرَ يرَى أنَّهم يُقاتِلون من أجلِ المُلك، وكذَلك ما رَواه ابن أبي شيبَة (٣٨٦٠٩) عن جَرير بن حازمٍ قالَ: حدَّثَني شيخٌ مِن أَهل مكَّةَ قالَ: «رأَيتُ ابنَ عمرَ في أيَّامِ ابن الزُّبير فدَخلَ المسجدَ، فإذَا السِّلاحُ! فجعلَ يَقولُ: **لقَد أَعْظَمتم الدُّنيَا! لقَدأَعْظَمتم الدُّنيَا**، حتَّى استَلمَ الحَجرَ».

بل بلغَ الأمرُ إلى أوسَعَ من ذلكَ، فقد قالَ ابنُ عمر رضي الله عنهما: «**ما أَعرفُ أحدًا خَرجَ يَبتغِي وجهَ الله والدَّارَ الآخرةَ إلَّا عمَّارًا**» رواه أبو نُعَيم (١/ ١٤٢) بإسنادٍ حسنٍ.

والشَّاهد مِن ذِكرهَذه الرِّواية أنَّ عبدَ الله بن عُمر خاطبَه رَجلٌ من الخَوارج - كما بيَّنَته روايةٌ عندَ البُخاري نفسِه (٤٦٥٠) ورجَّحَه ابن حجَر في شَرحه (٨/ ٣١٠) - بما يَتخاطبُ به الثَّوريُّون اليومَ، فلم يَمنَعه خطابُه بالقرآنِ وكونُه

يريدُ أن يُقاتِل ليُحكَم بشَريعةِ الرَّحمَن مِن أن يَطعنَ علَيه في نيَّته ونيَّة جَماعتِه بقَولِه له: «ليسَ كقِتالِكم على المُلْك»! وما قالَ له أنتَ رجلٌ حسنُ النِّية طيِّبُ القَلب صادقُ الغَيرةِ، إلَّا أنَّ الأمرَ كذَا وكذَا...

ومِنهم أبو بَرزَة الأَسلَميُّ ﵁، عن أبي المنهال قالَ: «لَمَّا كانَ ابنُ زِيادٍ ومَروانُ بالشَّامِ ووثَبَ ابنُ الزُّبيرِ بمكَّةَ ووثَبَ القرَّاءُ بالبَصرةِ، فانطَلَقتُ معَ أبي إلى أبي بَرزةَ الأَسلَميِّ حتَّى دَخَلنا علَيه في دارِه وهوَ جالسٌ في ظلِّ عُلِيَّةٍ لَه مِن قَصبٍ[1]، فجلَسْنا إلَيه، فأَنشأَ أبي يَستطعِمُه الحديثَ، فقالَ: يَا أَبا بَرزةَ! أَلَا تَرَى مَا وقَعَ فيهِ النَّاسُ؟ فأَوَّلُ شيءٍ سَمعتُه تكلَّمَ به: إنِّي احتسَبتُ عندَ الله أنِّي أَصبحتُ ساخطًا على أَحياءِ قُريشٍ، إنَّكم - يَا مَعشرَ العَربِ! - كُنتُم على الحالِ الَّذي عَلِمتُم مِن الذِّلَّةِ والقلَّةِ والضَّلالةِ، وإنَّ اللهَ أَنقذَكم بالإِسلامِ وبمحمَّدٍ ﷺ حتَّى بلَغَ بكُم مَا ترَونَ، وهَذهِ الدُّنيَا الَّتي أَفسدَت بَينكُم، **إنَّ ذاكَ الَّذي بالشَّامِ - والله! - إنْ يُقاتِل إلَّا على الدُّنيَا، وإنَّ هَؤلاءِ الَّذين بينَ أَظهرِكم - والله! - إنْ يُقاتِلونَ إلَّا على الدُّنيَا، وإنَّ ذاكَ الَّذي بمكَّةَ - والله! - إنْ يُقاتِلُ إلَّا على الدُّنيَا**» رَواه البخاري (٧١١٢).

إذَا كانَ مثلُ هؤلَاء: مَروان بالشَّام، وابن الزُّبَير بمكَّة، والقرَّاء بالبَصرَة يَصفُ أبو بَرزةَ قتالهم بأنَّه في سبيل الدُّنيا وفيهم فُضَلاء ليسَ بينَهم أيُّ نسبٍ مع الخوارجِ، فكيفَ بمَن دونَهم؟!

---

(١) العلِيَّة بضمِّ العَين وكَسرِها وكَسرِ اللَّام: هيَ الغُرفةُ كما في «الفتح» لابن حجَر (١٣/ ٧٣).

ومن سُوء حظِّ مُصحِّحي نيَّاتِ الخارِجين أنَّ السَّلف خصُّوهم ببعض الآيات الَّتي تتَّهم النيَّات، كما مرَّ معَنا قصَّةُ الصَّحابيِّ أبي أُمامةَ رضي الله عنه في تَنزيلِه آيةَ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ﴾ على الخوارج، وهيَ صَريحةٌ في الدلالةِ على فَسادِ قُلوبِهم، وثَمَّ آثارٌ أخرَى عن غَير أبي أُمامة في هَذا المعنَى وفي الاستِدلَال نفسِه، يُمكن أن تُراجَع له التَّفاسيرُ الأَثريَّة.

وهَكذا كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ مع الخَوارج ومع سائر أهل البدَع، وهكذا فَلْيَكن التَّابعُ لهم بإحسانٍ، إنَّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ لم يُعقِّدهم مَن يَنعت هَؤلاءِ الحكَّامَ بـ (الطَّواغيت) حتَّى يَسكُتوا عن ضلالِ أهل البدَع، بل جمع اللهُ لهم في قُلوبهم مجاهدةَ الفريقَين، لكن كلٌّ بحسَب الشَّرع لَا الهوَى، واللهُ وليُّ التَّوفيق.

قد مرَّ بنا أنَّ الخَوارجَ يحفَظون كِتابَ الله وهُم يجهَلون عُلومَه كما يجهَلون دِينَ الله عزَّ وجلَّ عُمومًا، كانوا يجمَعون بين الجَهل بالدِّينِ والتَّعبُّد الظَّاهريِّ، فكَثيرًا ما يُوصَفون في الأحاديثِ بإقامةِ حُروفِ القُرآنِ مع الجهلِ بحُدودِه، كما روَى ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٣١٤) والطَّبراني (٢/ ١٦٥) بإسنادٍ حسَّنَه المنذِريُّ في «التَّرغيب والتَّرهيب» (١/ ٧٧) وجوَّدَه الألباني في «الصَّحيحة» (٧/ ١١٣٣) عن أبي تَميمَة عن جُندب بن عَبد الله الأزدي صاحبِ النَّبيِّ ﷺ قالَ أبو تَميمة: «انطلقتُ أنَا وهوَ إلى البَصرة حتَّى أتَينا مَكانًا يُقالُ له بيتُ

المسكِين وهوَ مِن البَصرة مِثلُ الثَّويَّة[1] مِن الكوفَة، فقالَ: هَل كنتَ تُدارِس أحدًا القُرآنَ؟ فقلتُ: نعَمْ، قالَ: فإذَا آتَينا البَصرةَ فَأْتِني بهم، فأتيتُه بصالِح بن مسرح وبأبي بلالٍ ونَجدة ونافِع بن الأَزرق وهُم في نَفسي يَومئذٍ مِن أَفاضِل أَهل البَصرة[2]، فأَنشأَ يحدِّثني عن رَسولِ الله ﷺ، فقالَ جُندب: قالَ رَسولُ الله ﷺ: **مَثَلُ العالِمِ الَّذي يُعلِّم النَّاسَ الخيرَ ويَنسَى نَفسَه كمَثَل السِّراج يُضيءُ للنَّاس ويُحرِقُ نفسَه**، وقالَ رَسولُ الله ﷺ: **لَا يَحُولنَّ بين أَحدِكم وبينَ الجنَّةِ وهوَ يَنظرُ إلى أَبوابِها مِلءُ كفٍّ مِن دمِ مُسلمٍ أَهراقَه ظُلمًا**، قالَ: فتكلَّم القَومُ فذكَروا الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المنكرِ وهوَ ساكتٌ يَستمعُ مِنهم، ثمَّ قالَ: لم أرَ كاليَوم قطُّ قَومًا أَحقَّ بالنَّجاةِ إن كانُوا صادِقينَ»!

تأمَّلْ قولَ جُندب ﵁: «إن كانُوا صادِقينَ»؛ فإنَّه تَنبيهٌ على عدَم صِدقِهم بطَريقِ التَّعريض، مع أنَّ ظاهرَ هَؤلاءِ الخَوارجِ العِبادةُ والصَّلاحُ، لكن فضحَهم افتِتانُهم بما لم يَفهَموه مِن أَصل الأَمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكرِ لتَسويغِهم الخُروجَ على ولاةِ الأمرِ باسمِه.

وقد كانَ في الصَّحابةِ مَن يَنصِب لهم فخًّا ليَستَبين عدمَ صِدقِهم فيما يدَّعونَ من الخُشوع وكَثرةِ العِبادةِ والشَّجاعةِ في الجِهادِ، من ذلكَ ما رواه الضَّرَّابُ في

---

(١) مَوضعٌ بالكُوفةِ على مِيلٍ منها كما في «الرَّوض المعطار في خبر الأقطار» للحميري (ص ١٥١)، والمِيل أكثرُ من كيلومتر واحد ونِصف كيلو.

(٢) هؤلَاء من رُؤوس الخَوارج.

«ذمّ الرِّياء» (١٥٤) بسنَدٍ صَحيحٍ «أنَّ نَجْدة - وهوَ مِن رُؤوس الخَوارج - أَقبَلَ يُريدُ المَدينةَ، وأنَّ النَّاسَ استعَدُّوا لقِتالِه، وأنَّه أَقبَلَ حتَّى نزَلَ بنَخلٍ على المِيلَيْن من المَدينةِ، فسأَلَ: مَا صنَعَ النَّاسُ؟ فقيلَ له: قَد استعَدُّوا لقِتالكَ، قالَ: فقالَ: مَا فعَلَ ابنُ عُمَر؟ قالُوا: قَد لَبسَ السِّلَاح، فقالَ: إذَن لَا يَتخلَّف عَنه أَحدٌ، فرجَعَ مِن النَّخْل ولم يَأتِ المَدينةَ، فذكَرَ نافعٌ أنَّ ناسًا من أصحابِ نَجْدة انتَهَوا إلى سَفينة مَولَى رَسول الله ﷺ وهوَ في بِئرٍ له، فقالُوا: إنَّ منَّا مَن إذَا سمِعَ القُرآنَ صَعِقَ؟ فقالَ: أنَا أَدركتُ أَصحابَ محمَّدٍ وهم مُتَوافِرونَ، فما رأَيتُ أحدًا كَما تَذكُرونَ! فَادْعُوا بهَذا الَّذي تَذكُرونَ أنَّه إذَا سمِعَ القُرآنَ صَعِق، فأَقعِدوه على بِئري هَذِه، ثمَّ اتلُوا القُرآنَ علَيْه، فإذَا صعِقَ فهوَ كَما تَقولونَ مِن خَشيةِ الله، فقالُوا: فعَلَ اللهُ بكَ وفعَلَ! لولَا صُحبتُك لرَسول الله ﷺ لقَتَلناكَ»!!

وقد تعمَّدتُ ذِكرَ هَذه القصَّةِ مع وُجودِ أخرَى في مَعناها عن أَسماءَ وعبد الله بن الزُّبير ﭫ لأنَّها جمعَت ما أَشرتُ إلَيه أوَّلًا من دَعوَى الشَّجاعةِ والعِبادةِ للخوارج.

ففي هَذه القصَّة أنَّ نَجدةَ الخارجيَّ ترَكَ الجهادَ لَّما عَلِم أنَّ ابنَ عُمر قد استعدَّ لِقتالِه، لَا لتَقديرِه للصَّحابيِّ ولَا لتورُّعِه عن دِماء أَفاضلِ أَهلِ الأرض يَومئذٍ، ولكِن جبُنَ عن المُواجَهة لعِلمِه بأنَّ النَّاسَ سيُتابِعونَ ابنَ عُمر على القِتالِ!

وفيها أيضًا أنَّ الخَوارجَ يَتفاخَرونَ بأَحوالِهم الإيمانيَّةِ وأنَّ ذلكَ فتَنَهم إلى حدِّ احتِقارِهم غيرَهم ولو كانَ من الصَّحابةِ!

وفيها أنَّ خُشوعَهم مُصطنعٌ وليسَ نابعًا من قُلوبِهم، ولذَلك امتحَنَهم الصَّحابيُّ سَفينةُ بما جاءَ في القصَّة، وبيَّنَ أنَّ حالتَهم تلكَ حالةٌ شَيطانيَّةٌ كاذبةٌ! ولذَلكَ روَى ابن أبي الدُّنيَا في «الإخلاص والنِّية» (٢٧) عن الرَّبيع قالَ: «وَعظَ الحسنُ يومًا فانتَحبَ رجلٌ[1]، فقالَ الحسنُ: ليَسألَنَّك اللهُ يومَ القِيامةِ: ما أَردتَ بهَذا»؟!

وفيها أنَّ الخَوارجَ جهَّالٌ؛ إذ استدَلُّوا بتلكَ الأَحوالِ لتَصحيح مَذهبِهم، واعتبَروها عِوضًا عن الاحتِجاج بالكِتاب والسُّنَّة، وكذَلكَ يَفعلُ الجاهلُ!

وفيها فِطنةُ الصَّحابةِ وذَكاؤُهم وحُسنُ تَفكيرِهم ﷺ؛ فلو كانَ غيرُهم لأَمكنَ انسِياقُه وَراءَ ادِّعاءاتِ القَوم، كما يَنساقُ أَكثرُ الخَلقِ اليَومَ خلفَ الوعَّاظ والقصَّاص، قالَ ابن بطَّة في «الإبانة/ الرَّدّ على الجهميَّة» (٣/ ١٩٩): «ولقَد سُئل أنسُ بنُ مالِك عن القَوم يَستَمعونَ القُرآنَ فيَصعَقونَ؟ قالَ: أُولئكَ الخَوارجُ»، وأيُّ فِطنةٍ أَحسن مِن هَذه؟!

وفيها أنَّ القَرائنَ والأَحوالَ الظَّاهرةَ قد تَكونُ دَليلًا على البَواطن، كما في امتِحانِ سَفينةَ لقارئِهم بالقِيام على البئرِ.

وروَى البزَّار في «البحر الزَّخَّار» (٣٨٩) وابن حبَّان (٦٩١٩) وأبو نُعيم في «الإمامة والرَّدُّ على الرافضة» (١٦٤) وابن جَرير في «تاريخ الرسل والملوك» (٣/ ٣٩٠، ٤١٤) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٩/ ٢٥٧) قصَّةَ الخوارجِ الَّذينَ جاءُوا لقَتلِ عُثمان ﷺ بسندٍ صحَّحه بَعضُهم وضعَّفه آخَرونَ، وفيها:

---

(١) انتحبَ: بكَى شَديدًا.

«...فدَخلَ عليه رجلٌ، فقالَ - أي عُثمانُ -: بَيني وبينَك كتابُ الله، فخَرجَ وتَركَه، ثمَّ دَخلَ علَيه آخرُ فقالَ: بَيني وبينَك كِتابُ الله، والمصحفُ بين يدَيه، قالَ: فأَهوَى له بالسَّيفِ، فاتَّقاه بيدِه فقَطعَها، فلَا أَدري أَقَطعَها ولم يُبِنها أم أَبانَها؟ قالَ عُثمانُ: أمَا - والله!- إنَّها لأوَّلُ كفٍّ خَطَّت المُفصَّل[1]! فدَخلَ علَيه التُّجيبي فضربَه مِشقصًا[2]، فنَضحَ الدَّمُ على هَذه الآيةِ ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، قالَ: وإنَّها في المصحفِ ما حُكَّت، قالَ: وأَخذَت بنتُ الفرافِصة - زَوجةُ عُثمان رضي الله عنه - حُليَّها ووَضعَته في حِجرِها، وذلكَ قَبل أن يُقتَل، فلمَّا قُتل تَفاجَّت علَيه[3]، قالَ بَعضُهم: قاتَلَها اللهُ؛ ما أَعظَمَ عَجيزَتَها! **فعلِمتُ أنَّ أَعداءَ الله لم يُريدُوا إلَّا الدُّنيَا**»، والمعنَى أنَّهم أَرادُوا أَخذَ حليِّها فلم يَتمكَّنوا؛ لأنَّها غطَّت علَيه بجِسمِها.

الشَّاهدُ الثَّاني: ذَكرَه ابن حجر في «الإصابة» (٣/ ٤٩٨)، وهو أنَّ أحدَ الخَوارج يُقالُ له عُمَير بن ضابئ همَّ بالفَتك بعُثمان ثمَّ جبُن، فلمَّا قُتل عُثمانُ تأسَّف على أنَّه لم يُشارك في دمِه، وأنشدَ يَقولُ:

هَممتُ ولم أَفعَلْ وكِدتُ ولَيتَني ... تَركتُ على عُثمانَ تَبْكِي حَلائِلُه

(١) أي لقد قطَعتَ يدًا كانَت هيَ أوَّلَ ما كتَب المفصَّلَ من القُرآنِ في عَهدِ النُّبوَّة، واللهُ المستَعانُ.

(٢) المِشقَص هوَ نَصلُ السَّهمِ الطَّويلِ كما في «لسان العرب» لابن مَنظور.

(٣) التَّفاجُّ هوَ المبالغةُ في تَفريجِ ما بينَ الرِّجلَين، كما في «النِّهايَة» لابن الأثير.

وفيها يقولُ:

وقائِلــــةٌ لَا يُبعِـــدُ اللهُ ضَـــابِئًا ولَا يبعـــدَنَّ أَخلَاقــه وشَـــمائله

ثمَّ إنَّه عمدَ إلَيه فكسرَ ضِلعَين من أَضلاَعه وهو ميِّتٌ!! فلمَّا كانَ زمنُ الحجَّاج بن يوسف أَمسكَه، وقالَ له: «ما حمَلَك على ما فعَلتَ بعُثمانَ؟ قالَ: **حَبسَ أَبي وهو شيخٌ كَبيرٌ**»!! وقد كانَ عُثمانُ رضي الله عنه حبسَ أَباه لأَنَّه هجَا قومًا، وكانَ عُثمانُ رضي الله عنه يَحبسُ في الهِجاءِ فانتقَمَ الابنُ، فانظُرْ إلى ما حملَه على الخُروج، فهوَ في ظاهرِه قامَ على عُثمانَ انتِقامًا من الظُّلم وانتِصارًا للعَدلِ، وهوَ في باطنِه ما هيَّجه على دمِ ذي النُّورَين إلَّا الانتِقامُ لأَبِيه، واللهُ المُستعانُ.

والشَّاهدُ الثَّالثُ: روَى البلاذري في «أنساب الأشراف» (٢/ ٤٨٧) عن الشَّعبي قالَ: «حجَّ ناسٌ من الخَوَارج سَنة تِسع وثلاَثِين وقد اختلَفَ عاملُ عليٍّ وأَصحاب مُعاوية، فاصطلَحَ النَّاسُ على شَيبة بن عُثمان، فلمَّا انقضَى المَوسِم أقامَ الخَوَارج مُجاوِرين[١]، فقالُوا: كانَ هَذا البيتُ مُعظَّمًا في الجاهليَّة، جَليلَ الشَّأن في الإسلَام، وقد انتَهكَ هؤلاَءِ حُرمتَه، فلو أَنَّ قومًا شَرَوا أنفسَهم فقتَلوا هذَين الرَّجلَين اللَّذَين قد أَفسدَا في الأَرض، واستَحلَّا حُرمةَ هذا البيتِ استرَحْنا واستراحَت الأمَّةُ واختارَ النَّاسُ لأَنفسِهم إمامًا، فقالَ عَبدُ الرَّحمن بن مُلجم: أَنَا أَكفِيكم عليًّا، وقالَ الحجَّاج بنُ عبد الله الصريمي وهوَ البرك: أنا أَقتلُ مُعاويةَ، وقالَ زاذويه مَولَى بني حارِثة بن كَعب بن العَنبَر واسمُه عَمرو

---

(١) أي مُجاوِرين البيتَ الحرامَ.

ابن بَكرٍ: والله! ما عَمرو بن العَاص بدونِهما! فأنا له، فتَعاقَدوا على ذلكَ...».

ظاهرُ هَذه القصَّة أنَّ هؤلَاء خرَجوا غضبًا لله، لكنَّني سأذكرُ ما يُناقضُ ذلكَ، وأنَّ التَّعلُّقَ بالدُّنيا والانتِقامَ للنَّفْس سائقُ القَوم في باطنِ الأَمْر، وأنَّ إظهارَ غيرتِهم في صورةِ غضبٍ لحاكميَّةِ الله ما هو إلَّا سِتارٌ كاذبٌ، يُشفُّ عمَّا وَراءَه وَقائعُ التَّاريخ، كهَذا الرَّجل الَّذي قَتل أَميرَ المؤمنِين أبا السِّبطَين عليَّ بنَ أبي طالب ﵁، فإنَّه خرجَ لقَتلِه، ثمَّ انخذلَ عن ذلكَ بُرهةً من الزَّمن؛ لأنَّه رأَى امرأةً سلبَت عقلَه، ثمَّ هيَ غرَّته لقَتلهِ؛ فقَد روَى الحاكم (٣/ ١٤٣) عن إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّي قالَ: «كانَ عَبد الرَّحمن بن مُلجم المُرادي عَشقَ امرأةً من الخَوارج من تَيْم الرَّباب يُقالُ لها: قَطامِ، فنكحَها وأَصدَقها ثلَاثةَ آلَاف دِرهَم وقَتْلَ عليٍّ ﵁»، هَكذا في النُّسخة.

وكانَ هَذا شرطًا في العَقد من قَطامِ نفسِها، وكانَ سببُ حِقدِها على عليٍّ ﵁ - زيادةً على شُؤم المَذهب - أنَّ عليًّا قتلَ يومَ النَّهروان بعضَ أَقاربِها في جملةِ مَن قَتل من الخَوارج، روَى ابنُ سَعدٍ في «الطَّبقات الكُبرَى» (٣/ ٣٦) وابنُ جَرير في «تاريخه» (٢/ ١٥٥) والطبراني (١/ رقم ١٦٦) والبلاذري في «أنساب الأشراف» (٢/ ٤٨٧) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٢/ ٥٥٨) وابن الجوزي في «المنتظم» (٥/ ١٧٣) عن إسماعيلَ بن راشدٍ قالَ: «كانَ مِن حديثِ ابنِ مُلْجمٍ لَعنَه اللهُ وأَصحابِه أنَّ عبدَ الرَّحمَنِ بن مُلجمٍ والبَرْكَ بن عبدِ الله وعَمرَو بن بَكرٍ التَّميميَّ اجتمَعُوا بمكَّة فذكَروا أَمرَ النَّاس وعابُوا عملَ

وُلَاتِهِم، ثمَّ ذكَروا أهلَ النَّهْر فترَحَّموا علَيهم، فقالُوا: والله! ما نَصنعُ بالبَقاءِ بَعدَهم شيئًا، إخوانَنَا الَّذين كانُوا دُعاةَ النَّاس لعِبادةِ ربِّهم الَّذينَ كانُوا لَا يَخافونَ في الله لَومةَ لائمٍ، فَلَوْ شَرَينَا أَنفُسَنا فأَتَينَا أَئمَّةَ الضَّلالةِ فالتمَسْنا قَتلَهم فأرَحْنا مِنهُم البِلادَ وثأَرْنا بهم إخوانَنَا، قالَ ابنُ مُلجمٍ وكانَ مِن أَهلِ مِصرَ: أَنَا أَكفيكُم عليَّ بن أبي طالِبٍ، وقالَ البَرْكُ بن عبدِ الله: أَنا أَكفيكُم مُعاوِيةَ بن أبي سُفيانَ، وقالَ عمرُو بن بكرٍ التَّميميُّ: أَنا أَكفيكُم عَمرَو بن العاصِ، فتَعاهَدوا وتَواثَقوا بالله: لَا يَنكصُ رَجلٌ مِنهم عَن صاحبِه الَّذي توَجَّهَ إلَيه حتَّى يَقتلَه أَو يَموتَ دونَه، فأَخَذوا أَسيافَهم فسَمُّوها[1]، واتَّعَدُوا لسَبعَ عَشْرةَ مِن شهرِ رَمضانَ أَن يَثِبَ كلُّ رجلٍ مِنهُم على صاحبِه الَّذي توَجَّه إلَيهِ، وأَقبلَ كلُّ رجلٍ مِنهُم إلى المِصرِ الَّذي فيهِ صاحِبُه الَّذي يَطلبُ، فأمَّا ابنُ المُلجمِ المُراديُّ فأَتَى أَصحابَه بالكوفةِ وكاتَمَهم أمرَه كَراهيةَ أَن يُظهِروا شيئًا مِن أَمرِهِ، وأنَّه لَقيَ أَصحابًا لَه مِن تَيْمِ الرَّبَابِ وقَد قَتلَ عليُّ بن أبي طالبٍ ﵁ مِنهُم عدَّةً يومَ النَّهرِ، فذكَروا قَتلَاهم فترَحَّموا علَيهم، قالَ: ولَقيَ مِن يَومِه ذَلِك امرأةً مِن تَيْمِ الرَّبابِ يُقالُ لها قَطَامِ بنتُ الشَّحنةِ، وقَد قتلَ عليُّ بن أبي طالبٍ رَضيَ اللهُ تعالَى عَنه أَباها وأَخاهَا يومَ النَّهرِ، وكانَت فائقةَ الجمالِ، فلمَّا رآهَا التبَسَت بعَقلِه ونَسيَ حاجتَه الَّتي جاءَ لها، فخَطبَها، فقالَت: لَا أَتزوَّجُ حتَّى تَشتفِيَ لي، قالَ: ومَا تشائينَ؟ قالَت: ثَلاثةُ آلافٍ وعبدٌ وقَينةٌ وقتلُ عليِّ بن أبي طالبٍ، فقالَ: هوَ

---

(١) أي جعَلوا فيها السُّمَّ.

مهرٌ لكِ، فأمَّا قتلُ عليٍّ فَما أراكِ ذكَرتِيه لي وأنتِ تُريدينَه؟ قالَت: بلى! فَالتمِسْ غرَّتَه؛ فإِن أَصبتَه شفَيتَ نَفسَك ونَفسِي، ونَفعَك العَيشُ مَعي، وإِن قُتلتَ فَما عندَ الله خيرٌ مِن الدُّنيَا وزِبْرِجِ أَهلِها[1]، فقالَ: مَا جاءَ بي إلى هَذا المِصرِ إلَّا قتلُ عليٍّ!! قالَت: فإذَا أَردتَ ذلِك فأَخبِرْني حتَّى أَطلبَ لكَ مَن يَشدُّ ظهرَكَ ويُساعدُك على أَمرِك، فبَعثَت إلى رجلٍ مِن قَومِها مِن تَيمِ الرَّبابِ يقالُ له وَردانُ، فكلَّمَته فأَجابَها، وأتَى ابنُ مُلجمٍ رجلًا مِن أَشجعَ يقالُ له شَبيبُ بن نَجدة، فقالَ لَه: هَل لكَ في شَرفِ الدُّنيَا والآخرةِ؟ قالَ: ومَا ذاكَ؟ قالَ: قتلُ عليٍّ، قالَ: ثكِلَتك أمُّك! لقَد جئتَ شيئًا إدًّا! كيفَ تَقدرُ على قَتلِه؟ قالَ: أَكْمُنُ لَه في السَّحَرِ، فإذَا خَرجَ لِصلاةِ الغَداةِ شدَدْنا علَيهِ فقتَلْناه، فإِن نجَونا شفَينا أَنفسَنا وأَدركْنا ثأرَنا، وإِن قُتِلنا فما عندَ الله خيرٌ مِن الدُّنيَا وزِبرِج أهلِها، قالَ: وَيحَك! لَو كانَ غيرَ عليٍّ كانَ أَهوَنَ عليَّ، قَد عرَفتَ بَلاءَه في الإسلامِ وسابِقتَه معَ النَّبيِّ ﷺ، ومَا أَجدُني أنشَرحُ لقَتلِه، قالَ: أمَا تَعلمُ أنَّه قَتلَ أهلَ النَّهرِ العُبَّادَ المصَلِّين؟! قالَ: بلَى! قالَ: فقَتلُه بما قَتلَ مِن إخوانِنا، فأَجابَه فَجاءُوا حتَّى دَخلوا على قَطامِ وهيَ في المسجدِ الأَعظمِ مُعتكِفةٌ فيهِ، فقالُوا لها: قَد أَجمعَ رَأيُنا على قَتلِ عليٍّ، قالَت: فإذَا أَردتُم ذَلكَ فَأْتوني، فجاءَ فقالَ: هَذهِ اللَّيلةُ الَّتي واعَدتُ فيها صاحِبي أَن يَقتلَ كلُّ واحدٍ منَّا صاحبَه، فدعَتْ لهُم بالحريرِ فعصَّبَتهُم، وأَخذوا أَسيافَهم وجَلَسوا مُقابلَ السُّدَّةِ الَّتي يَخرجُ مِنها عليٌّ،

---

(١) في «النِّهايَة» لابن الأثير: «الزِّبْرِجُ: الذَّهبُ والفضَّةُ والسَّحابُ».

فخَرجَ عليٌّ ﷺ لصلاةِ الغَداةِ، فجَعلَ يُنادي: الصَّلاةَ! الصَّلاةَ! فشدَّ عليه شَبيبٌ فضَربَه بالسَّيفِ فوَقعَ السَّيفُ بعِضادةِ البابِ أَو بالطَّاق، فشدَّ عليه ابنُ مُلجمٍ فضَربَه بالسَّيفِ في قَرْنِه، وهَربَ وَردانُ حتَّى دخلَ مَنزلَه، ودخلَ عليه رَجلٌ مِن بني أمِّه وهوَ يَنزعُ الحريرَ والسَّيفَ عَن صَدرِه، فقالَ: مَا هَذا السَّيفُ والحريرُ؟ فأَخبرَه بما كانَ، فذَهبَ إلى مَنزلِه فجاءَ بسَيفِه فضَربَه حتَّى قَتلَه، وخَرجَ شَبيبٌ نحوَ أَبوابِ كِندةَ وشدَّ عليه النَّاسُ إلَّا أنَّ رجلًا مِن حَضرَموتَ يقالُ لَه عُوَيمرٌ ضَرب رِجلَه بالسَّيفِ فصَرعَه وجَثمَ عليه الحضرَميُّ، فلمَّا رأَى النَّاسَ قَد أَقبَلوا في طَلبِه، وسَيفُ شَبيبٍ في يدِه خَشيَ على نَفسِه فتَركَه، فنَجا بنَفسِه ونَجا شَبيبٌ في غِمارِ النَّاسِ، وخَرجَ ابنُ مُلجم فشدَّ عليه رجلٌ مِن أَهلِ هَمْدانَ يُكنى أَبا أَدَما، فضَربَ رِجلَه وصَرعَه، وتَأخَّرَ عليٌّ رضي الله عنه ودَفعَ في ظهرِ جَعْدَةَ بن هُبَيرةَ بن أبي وهبٍ، فصلَّى بالنَّاسِ الغداةَ، وشدَّ عليه النَّاسُ مِن كلِّ جانبٍ، وذَكَروا أنَّ محمَّدَ بن حُنَيفٍ قالَ: واللهِ! إنِّي لأُصلِّي تلكَ اللَّيلةَ الَّتي ضُربَ فيها عليٌّ في المسجدِ الأعظَمِ، قَريبًا مِن السُّدَّةِ في رجالٍ كثيرٍ مِن أَهلِ المِصرِ مَا فيهم إلَّا قِيامٌ ورُكوعٌ وسُجودٌ ومَا يَسأَمونَ مِن أوَّلِ اللَّيلِ إلى آخرِه، إذ خَرجَ عليٌّ رَضيَ اللهُ تَعالَى عَنه لِصَلاةِ الغَداةِ، فجَعلَ يُنادي: أيُّها النَّاسُ! الصَّلاةَ! الصَّلاةَ! فما أَدري: أَتكلَّمَ بهَذهِ الكَلماتِ أَو نَظرتُ إلى بَريقِ السُّيوفِ، وسَمعتُ: الحُكمُ لله لَا لكَ - يَا عليُّ!- ولَا لأَصحابِك، فرَأيتُ سيفًا، ثمَّ رأَيتُ ناسًا، وسَمعتُ عليًّا يَقولُ: لَا يَفوتُكم الرَّجلُ، وشدَّ عليه النَّاسُ مِن كلِّ جانِبٍ، فلَمْ أَبرَحْ حتَّى أُخذَ ابنُ مُلجمٍ فأُدخِلَ على عليٍّ رضي الله عنه ...

وقالَ ابنُ أبي عيَّاشٍ المُراديُّ:

ولَمْ أرَ مَهْـرًا سـاقَه ذو سَـماحةٍ … كمَهـرِ قَطـامٍ بيِّنًـا غـيرَ مُعْجَـمِ

ثَلاثـةُ آلافٍ، وعَبـدٌ، وقَينَـةٌ … وضَربُ عـليٍّ بالحُسَـامِ المُسـمَّمِ

ولَا مَهْرَ أَغلَى مِن عليٍّ وإنْ غَلَا … ولَا قَتْلَ إلَّا دونَ قَتْلِ ابـنِ مُلْجـمِ

قاتَلَ اللهُ البغيَ وأَهلَه؛ هَذا خارجيٌّ يُمهِر خارجيَّةً دمَ أبي السِّبطَين رضي الله عنه ثمَّ يُقالُ: الخوارجُ أَهلُ إِخلاصٍ وأَصحابُ غَيرةٍ دِينيَّةٍ؟!!

ولذلكَ لَمَّا خرجَ يَزيدُ بن المهلَّب وادَّعَى أنَّه يُريدُها خلافةً على سنَّة عُمر ابن عَبدِ العَزيز، بيَّنَ الحسنُ البَصري رحمه الله أنَّ نيَّتَه فاسدةٌ وإن أَظهرَ أنَّه غاضبٌ لله! فقَد ذكَرَ الذَّهبيُّ في «السِّير» (٤/ ٥٠٦) عن يَزيد قالَ: «أَدعُوكم إلى سنَّة عُمرَ بن عبدِ العَزيز! فخطبَ الحسنُ وقالَ: اللَّهمَّ اصرَعْ يَزيدَ بنَ المهلَّب صَرعةً تَجعلُه نَكالًا، يا عجبًا لفاسقٍ غير بُرهةٍ مِن دَهرِه، يَنتهكُ المحارمَ، يَأكلُ معَهم ما أَكَلوا، ويَقتلُ مَن قَتلوا، حتَّى إذَا مُنع شَيئًا قالَ: إنِّي غَضبان فاغضَبوا، فنَصبَ قصبًا علَيها خِرَقٌ[1]، فاتَّبعَه رِجرِجةٌ ورَعاعٌ[2]، يَقولُ: (أَطلبُ بسنَّة عُمر)!! إنَّ مِن سنَّة عُمرَ أن توضَع رِجلاه في القَيدِ، ثمَّ يوضَع حيثُ وَضعَه عُمرُ».

---

(١) يَعني الرَّايةَ.

(٢) قالَ ابنُ الأثير في «النِّهايَة»: «أَرادَ رُذالةَ النَّاس، ورَعاعُهم: الَّذينَ لَا عُقولَ لهم»، وفي «غَريب الحَديث» لابن قُتيبة: «الرِّجرِجة: بَقيَّةٌ تبقَى في الحَوض مِن الماءِ كَدِرة خَائرةٌ لَا يَقْدر أحَدٌ أَن يَشربَها»، شُبِّه الرُّذَّالُ مِن الأَتباعِ بالرِّجرِجةِ في أنَّهم لَا يُغْنون عن المتبوعِ كما لَا تُغنِي الرِّجرجَةُ عن الشَّاربِ.

قالَ الذَّهبيُّ: «قُتلَ عن تِسعٍ وأَربعينَ سَنةً، ولقَد قاتَل قتالًا عَظيمًا، وتَفلَّلَت جُموعُه، فما زالَ يَحملُ بنَفسِه في الأُلوفِ، **لَا لِجهادٍ، بل شَجاعةً وحميَّةً، حتَّى ذاقَ حِمامَه، نَعوذُ باللهِ من هَذه القِتلةِ الجاهليَّة**»!

تأمَّلْ؛ فهَذا هو كلَامُ العُلماءِ الَّذينَ حكَّموا الشَّريعةَ في أَنفسِهم وفي كلِّ موقفٍ تاريخيٍّ، لَا كلَام مَن حكَّموا العَواطفَ في شَريعةِ ربِّهم! وقد بيَّن الفَرقَ بينَ قِتالٍ للهِ وقِتالٍ لشَجاعةٍ وحميَّةٍ كما هوَ غالبُ حالِ اللَّاهثِين وَراءَ الثَّوراتِ.

ولذلكَ قالَ أبو حيَّان التَّوحيدي في «البصائر والذَّخائر» (١/ ١٥٦): «أتَى رَجلٌ مِن الخوارج الحسنَ البَصريَّ فقالَ له: ما تَقولُ في الخوارِج؟ قالَ: هُم أَصحابُ دُنيَا، قالَ: ومَن أينَ قلتَ وأَحدُهم يَمشي في الرُّمح حتَّى يَنكسرَ فيهِ[1] ويَخرجُ مِن أَهلِه ووَلدِه؟! قالَ الحسنُ: حدِّثْني عن السُّلطانِ: أيَمنعُك مِن إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ والحجِّ والعُمرةِ؟ قالَ: لَا، قالَ: **فأراه إنَّما منعَك الدُّنيَا فقاتَلتَه عليها!** قالَ إسحاق: فحدَّثتُ بهَذا الحديثِ الغاضريَّ - وكانَ ظَريفًا بالمدينةِ - فقالَ: صَدقَ الحسنُ، ولو أنَّ أحدَهم صامَ حتَّى يَتعقد، وسَجد حتَّى يحزَّ جَبينه، واتَّخذَ عَسقلانَ مراغَه، ما مَنعَه السُّلطانُ، **فإذَا جاءَ يَطلبُ دِينارًا أو دِرهمًا لُقي بالسُّيوفِ الحدادِ والأَدرعِ الشِّدادِ**»، وجاءَ عنه الطَّعنُ على نيَّاتهم أيضًا في «طبَقات ابن سَعدٍ» (٧/ ١٦٤) بإسنادٍ صَحيحٍ عن أبي التَّيَّاح قالَ:

---

(١) كِنايةٌ عن جِهادِه، ولعلَّ في العِبارةِ تَحريفًا فتكون: حتَّى يَتكسَّر...

«شَهدتُ الحسنَ وسَعيدَ بن أبي الحَسَن[1] حينَ أَقبلَ ابنُ الأشعَث، فكانَ الحسنُ يَنهَى عن الخروجِ على الحجَّاج ويَأمرُ بالكفِّ، وكانَ سَعيدُ بن أبي الحَسَن يُحضِّض، ثمَّ قالَ سَعيدٌ فيما يَقولُ: ما ظنُّك بأَهْلِ الشَّام إذَا لَقِيناهُم غدًا، فقُلْنا: واللهِ! ما خلَعْنا أَميرَ المؤمِنينَ ولَا نُريدُ خَلعَه، ولكنَّا نَقِمْنا علَيه استِعمالَه الحجَّاجَ، فلمَّا فرَغَ سَعيدٌ مِن كَلامِه تكلَّم الحسنُ فحَمِد اللهَ وأَثنَى علَيه، ثمَّ قالَ: يا أيُّها النَّاسُ! إنَّه - واللهِ! - ما سلَّطَ اللهُ الحجَّاجَ علَيكم إلَّا عُقوبةً، فلَا تُعارِضوا عُقوبةَ الله بالسَّيفِ، ولَكن علَيكم السَّكينَة والتَّضرُّع، وأمَّا ما ذَكرتَ مِن ظنِّي بأَهل الشَّام، **فإنَّ ظنِّي بهم أن لَو جاءُوا فألقمَهم الحجَّاجُ دُنيَاه لم يَحمِلهم على أَمرٍ إلَّا رَكِبوه! هَذا ظنِّي بهم**».

هكذَا ظهَرَ من خلَالِ هَذا الأَخبارِ العَجيبةِ أنَّ خُروجَ الخَوارج كانَ من أَجْل الدُّنيَا، قالَ ابن كَثير في تَفسير أَوائل سورةِ آل عِمران: «أَوَّلُ بدعةٍ وقعَت في الإسلَام فِتنةُ الخَوارِج، **وكانَ مَبدؤُهم بسَببِ الدُّنيا حينَ قَسم النَّبيُّ ﷺ غَنائمَ حُنين**».

ولذلكَ بيَّنَ ابنُ تَيمية أنَّ النَّاسَ يَثورونَ عادةً على سُلطانِهم عندَ استِئثارٍ هَذا بالدُّنيَا مع ذُنوبٍ له، فقالَ في «منهاج السنَّة» (٤/ ٥٣٨): «فيتَّفقُ أنَّ بعضَ الوُلاةِ يَظلمُ باستِئثارٍ فلَا تَصبرُ النُّفوسُ على ظُلمِه، ولَا يُمكنُها دفعُ ظُلمِه إلَّا بما هوَ أَعظمُ فَسادًا منه، ولكِن لأجلِ محبَّةِ الإنسانِ لأخذِ حقِّه ودَفعِ الظُّلم عَنه لَا يَنظرُ في الفَسادِ العامِّ الَّذي يتولَّد عن فِعلِه، ولهَذا قالَ النَّبيُّ ﷺ: (إنَّكم

---

(١) هوَ ابنُ جُبير.

ستَلقَون بَعدِي أثَرةً، فاصبِروا حتَّى تَلقَوني على الحَوضِ)[1]، وفي الصَّحيح مِن حَديثِ أنَس بن مالكٍ وأُسَيد بنِ حُضير رضي الله عنهما أنَّ رجلًا مِن الأنصارِ قالَ: «يَا رَسولَ الله! ألَا تَستعمِلني كَما استَعملتَ فلانًا؟ قالَ: (ستَلقَون بَعدِي أثَرةً، فاصبِروا حتَّى تَلقَوني على الحَوضِ)[2]، وفي رِوايةٍ للبُخاري عن يحيَى بن سَعيدٍ الأنصاريِّ سَمع أنَسَ بنَ مالكٍ حينَ خرَج معَه إلى الوَليدِ، قالَ: (دَعا النَّبيُّ ﷺ الأنصارَ إلى أن يَقطعَ لهم البَحرَين، فقالوا: لَا إلَّا أن تَقْطع لإخوانِنا مِن المهاجِرين مِثلَها، فقالَ: إمَّا لَا، فاصبِروا حتَّى تَلقَوني على الحوضِ؛ فإنَّه ستُصيبُكم أَثرةٌ بعدِي)[3]، وكذلكَ ثبَت عنه في الصَّحيح أنَّه قالَ: (على المرءِ المسلمِ السَّمعُ والطَّاعةُ في يُسرِه وعُسرِه ومَنشطِه ومَكرهِه وأثَرةٍ علَيه)[4]، وفي الصَّحيح عن النَّبيِّ ﷺ عن عُبادةَ قالَ: (بايَعْنا رَسولَ الله على السَّمعِ والطَّاعةِ فيعُسرِنا ويُسرِنا، ومَنشَطِنا ومَكرَهِنا، وأثَرةٍ علَينا، وأَن لَا نُنازِعَ الأَمرَ أهلَه، وأَن نَقولَ - أَو نَقومَ - بالحقِّ حَيثُما كنَّا لَا نَخافُ في الله لَومةَ لَائمٍ)[5]، فقَد أمَر النَّبيُّ ﷺ المسلِمينَ بأن يَصبِروا على الاستِئثارِ علَيهم وأن يُطيعوا ولاةَ أُمورِهم وإن استَأثَروا علَيهم، وأن لَا يُنازِعوهم الأمرَ».

---

(١) رَواه البُخاري (٣٩٧٢) ومُسلم (٤٨٠٧).

(٢) رَواه البُخاري (٣٧٩٢) ومُسلم (٤٧٤٦).

(٣) رَواه البُخاري (٢٣٧٦).

(٤) رَواه البُخاري (٢٩٥٥) ومسلم (٤٧٩١).

(٥) رَواه البُخاري (٧١٩٩) ومُسلمٌ (٤٧٩٦).

ثمَّ تأمَّلْ الكلامَ الآتي ما أَجملَه! وهوَ أَصدقُ وَصفٍ لِما نحنُ بصددِه، قالَ بعدَ ما سبقَ: «**وكَثيرٌ ممَّن خَرجَ على ولاةِ الأمورِ أو أَكثرُهم إنَّما خرجَ ليُنازعَهم مع استِئثارِهم علَيه ولم يَصبِروا على الاستِئثارِ**، ثمَّ إنَّه يَكونُ لوليِّ الأمرِ ذُنوبٌ أخرَى فيَبقَى بغضُه لاستِئثارِه يُعظِّم تلكَ السَّيِّئات، ويَبقَى المقاتِلُ له ظانًّا أنَّه يُقاتِلُه لئلَّا تَكونَ فِتنةٌ ويَكونَ الدِّينُ كلُّه لله، ومِن أَعظَم ما حرَّكَه علَيه طلبُ غرضِه: إمَّا ولايَة وإمَّا مال، كما قالَ تَعالى: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨]، وفي الصَّحيحِ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: (**ثَلاثةٌ لَا يُكلِّمهم اللهُ ولَا يَنظرُ إلَيهم يومَ القِيامةِ ولَا يُزكِّيهم ولهم عَذابٌ أَليمٌ: رَجلٌ على فَضلِ ماءٍ يَمنعُه مِن ابنِ السَّبيل، يَقولُ اللهُ له يومَ القِيامةِ: اليومَ أَمنعُك فَضلِي كما مَنعتَ فضلَ ما لم تَعمَل يَداك، ورَجلٌ بايَع إمامًا لَا يُبايعُه إلَّا لدُنيَا إن أَعْطاه مِنها رضيَ وإن مَنعَه سخِطَ، ورَجلٌ حلَفَ على سِلعةٍ بعدَ العصرِ كاذبًا: لقَد أُعطيَ بها أَكثرَ ممَّا أُعطيَ**)[1]، فإذَا اتَّفقَ مِن هَذه الجهةِ شُبهةٌ وشَهوةٌ ومِن هَذه الجهةِ شَهوةٌ وشُبهةٌ قامَت الفِتنةُ».

إنَّ مَن اطَّلعَ على هَذا التَّحرير العَجيب من شَيخ الإسلَام، وطابقَه على واقِع الجَماعاتِ الثَّائرةِ على حكَّامِها ازدادَ يَقينًا بما تضمَّنَته الشَّريعةُ من حِكَمٍ بالغةٍ في تَشريع هَذا الأَصل العَظيم الَّذي هو لُزوم طَاعةِ وليِّ الأَمر في المعروفِ وإن فجَرَ، وعَلِم رُسوخَ هَذا الإمام في العِلم بالشَّريعةِ وبما انطَوت علَيه نَفسيَّاتُ

---

(١) رَواه البُخاري (٢٣٥٨) ومُسلِم (٢١٢).

البشَر، لَا سيما ما تُخفيهِ من نَوايَا لَا يُطَّلَع علَيها إلَّا بأَماراتِ الكِتاب والسُّنَّة، وما يَعقِل هَذه الأَماراتِ إلَّا العالِمونَ، ومَعلومٌ أنَّ اللهَ يُعطِي على النِّيَّات أكثرَ ممَّا يُعطِي على غَيرِها، ولذلكَ كانَ بعضُ الولَاة الأَذكياء يُسكِتونَ الثَّائرِين علَيهم بإلقاءِ بعض الدُّنيا إلَيهم، ذكرَ ذلكَ المبرّد في «الكامل» (٣/ ١٩١) قالَ: «وبلغَ زيادًا عن رَجلٍ يُكنَى أبا الخَير - مِن أَهل البَأس والنَّجدة - أنَّه يرَى رأيَ الخَوارج، فدَعاه فوَلَّاه جنديسَابور ومَا يليها[1]، ورزقه أربعَة آلَاف دِرهَم في كلِّ شَهرٍ، وجعلَ عمالتَه في كلِّ سنةٍ مائةَ أَلف، فكانَ أبو الخَير يقولُ: **مَا رَأيت شيئًا خيرًا من لُزوم الطَّاعةِ والتَّقلُّب بين أَظهُر الجَماعةِ**»!

ومِثل هَذا كَثيرٌ في تاريخ الخَوارج؛ فإنَّ النَّاسَ لَا يَزالونَ يرَون منهم مَن يَبسطُ لسانَه في عِرض وليِّ الأمر، حتَّى إذَا أَكرمَهم سكتُوا عنه، بل ربَّما مدَحوه بما ليسَ فيه، بل رأَينا أَكثرَهم يَرتَكبونَ المحرَّماتِ الَّتي كانُوا يَنتقِدونَها علَيه، ومِنهم مَن كانَ يُكفِّره بها!! حتَّى إذَا ابتُلوا بشيءٍ مِن المسئوليَّاتِ جاءَت الفَتاوَى مِن قِبَلهم بالتَّرخُّصاتِ ورَميِ المتمسِّك فيها بالحقِّ بالتَّشدُّد.

قالَ ابنُ تَيمية في «مِنهاج السُّنة» (٥/ ١٥٢): «وبالجُملةِ العادةُ المعروفةُ أنَّ الخروجَ على وُلاةِ الأُمورِ يَكونُ لطلَبِ ما في أَيدِيهم مِن المالِ والإمارةِ، وهَذا قِتالٌ على الدُّنيَا، ولهذا قالَ أبو بَرْزة الأَسْلميُّ عن فِتنةِ ابن الزُّبير وفِتنةِ القرَّاءِ مع الحجَّاج وفِتنةِ مَروانَ بالشَّام: هَؤلاءِ وهَؤلاءِ وهَؤلاءِ إنَّما يُقاتِلون على

(١) جنديسابور: بلدةٌ بفارِس كما في «معجم البلدان» لياقوت الحمَوي (٣/ ١٦٧).

الدُّنيا، وأمَّا أهلُ البدَع كالخوارِج فهُم يُريدونَ إفسادَ دِين النَّاس فقِتالُهم قِتالٌ على الدِّين[1]، والمقصودُ بقِتالِهم أن تَكونَ كَلمةُ الله هيَ العُليَا ويَكونَ الدِّينُ كلُّه لله، فلِهذا أَمرَ النَّبيُّ ﷺ بهَذا ونهَى عن ذَلك، ولهَذا كانَ قِتالُ عليٍّ رضي الله عنه للخَوارج ثابتًا بالنُّصوصِ الصَّريحةِ وبإجماعِ الصَّحابةِ والتَّابعِين لهم بإِحسانٍ وسائر عُلماءِ المسلِمينَ، وأمَّا قِتالُ الجمَل وصِفِّين فكانَ قَتالَ فِتنةٍ كَرهَه فُضلاءُ الصَّحابةِ والتَّابعِين لهم بإِحسانٍ وسائر العُلماءِ كما دلَّت علَيه النُّصوصُ حتَّى الَّذينَ حَضروه كانوا كارِهِينَ له، فكانَ كارِهُه في الأمَّة أَكثرَ وأَفضلَ مِن حامدِه، وقد ثَبتَ في الصَّحيحَين مِن غَير وَجهٍ (أنَّه ﷺ كانَ يَقسمُ مالًا فجاءَ ذو الخُوَيصرة التَّميمي وهوَ محلوقُ الرَّأس كثُّ اللِّحيةِ ناتِئُ الجَبِين بين عَينَيه أَثرُ السُّجودِ، فقالَ: يا محمَّد! اعدِلْ؛ فإنَّك لم تَعدِلْ، فقالَ: **وَيحَك ومَن يَعدلُ إذَا لم أَعدِلْ**، ثمَّ قالَ: **أيَأمنُني مَن في السَّماءِ ولَا تَأمَنوني**، فقالَ له بَعضُ الصَّحابةِ: دَعْني أَضرب عنقَه، فقالَ: **يَخرجُ مِن ضِئْضِئ هَذا أَقوامٌ يَحقرُ أَحدُكم صَلاتَه مع صَلاتِهم وصِيامَه مع صِيامِهم**) الحديثَ، فهَذا كَلامُه في هَؤلاءِ العُبَّاد لَّما كانُوا مُبتدِعِين».

وكلامُ أبي برزَة ذاكَ رواه البخاري (٧١١٢) وقد مرَّ، ومِثلُه ما روَاه الخَلَّال في «السنَّة» (٥٤٦) بسندٍ صَحيحٍ أنَّ رجلًا أَرادَ مِن عَبدِ الله بن عُمرَ رضي الله عنهما أن يَطعنَ على أحدِ الخُلفاءِ، فقالَ له ابنُ عُمر: «ولَكن هو هَذا المالُ، فإن أَعطاكُموه رَضِيتم، وإن أَعْطاه أولى قَرابتِه سَخِطتُم».

---

(١) يُريدُ أنَّ مُقاتَلةَ أهلِ السُّنةِ لهم مُقاتَلةٌ مِن أجل الدِّين لَا الدُّنيَا.

فإن قيلَ: لِمَ وَصفَهم الرَّسولُ ﷺ بكَثرةِ العبادةِ حتَّى يَعجز الصَّالحونَ عن مُنافستِهم فيها؟ أليسَ هَذا مدحًا لهم؟

فالجَواب: أنَّه أرادَ الإخبارَ عنهم بوَصْف قد يغرُّ؛ فذمَّهم حتَّى لَا يغترَّ بهم مَن يَراهم يَتعبَّدون أو من يَطرق سمعَه كلامُ المادِحين لهم أو المدافِعين عنهم، قالَ الآجرِّي رَحِمَهُ اللهُ في «الشَّريعَة» (١/ ٣٢٥): «لم يَختلف العُلماءُ قَديمًا وحَديثًا أنَّ الخوارجَ قومُ سوء، عُصاةٌ لله تعالى ولرَسولِه ﷺ، وإن صلَّوا وصامُوا واجتهَدوا في العبادةِ، فليسَ ذلكَ بنافعٍ لهم، ويُظهِرون الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المنكر، وليس ذلكَ بنافعٍ لهمْ؛لأنَّهم يتأوَّلون القرآنَ على ما يَهوَون يُموِّهون على المسلمين، وقد حذَّر اللهُ تعالى منهم، وحذَّر النَّبيُّ ﷺ مِنهم، وحذَّرَنَاهم الخلفاءُ الرَّاشدون بعده، وحذَّرَنَاهم الصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم ومَن تبعَهم بإحسانٍ، والخوارجُ هم الشُّراةُ الأنجاسُ الأرجاسُ ومَن كان على مذهبِهم من سائر الخَوارج، يَتوارثون هذا المذهبَ قديمًا وحديثًا، ويَخرُجون على الأئمَّة والأمراءِ، ويَستحلُّون قتلَ المسلمينَ».

وقال أيضًا (١/ ٣٤٥): «فلَا ينبغِي لَمن رأَى اجتهادَ خارجيٍّ قد خرجَ على إمامٍ عَدلًا كانَ الإمامُ أو جائرًا، فخرَج وجمعَ جماعةً وسلَّ سيفَه واستحلَّ قتالَ المسلمين، فلَا يَنبغي له أن يَغترَّ بقِراءتِه للقُرآن، ولَا بطُول قِيامِه في الصَّلاة، ولَا بدَوام صومِه، ولَا بحُسن ألفاظِه في العِلم إذَا كانَ مذهبُه مذهبَ الخَوارج».

ولذلكَ قالَ العلَّامةُ محمَّد العُثَيمين رَحِمَهُ اللَّهُ كما في شَريطٍ سَمعيٍّ بعُنوان «لِقاء البابِ المفتُوح» (١١) في (١١ جمادى الأولى ١٤١٣هـ) تسجيلَات الاستِقامة بمَدينة عُنَيزة، قالَ: «ولهذا أَمرَ النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام بقِتالهم؛ لأنَّهم - وإن تشدَّدوا في الدِّين - فهُم مارِقونَ منه، لو فتَّشتَ عن قُلوبهم لوَجدتَها سوداءَ صمَّاء لَا يَصِل إلَيها الخيرُ والنُّورُ، والعياذُ بالله».

هَذا بَعضُ ما يسَّر اللهُ عَزَّ وَجَلَّ جَمعَه مِن الأدلَّة والآثارِ وأَقوالِ أَهلِ العِلم في بَيانِ فَسادِ نيَّاتِ الخَوارجِ ومَن تَشبَّه بهم في كلِّ عَصرٍ، واللهُ مِن وَراءِ القَصدِ وهوَ يَهدِي السَّبيلَ.

ثلاثةُ نَماذج للإخلاصِ الحَقيقيِّ

إنَّ المؤمنَ المصلحَ يَحرِصُ أشدَّ الحِرص على اجتِماعِ كَلمةِ المسلِمينَ على الحقِّ وتجنُّبِ فُرقتِهم ولو على حِسابِ حُقوقِه المادِّيَّة؛ لأنَّ حِراسةَ المصلحةِ العامَّةِ هنا أَسبقُ، والمحافظةَ على استِقرارِ الأَوضاعِ أحقُّ، وتَسليمُ أمرِ الولايةِ لِمَن سبقَ إلَيها مِن المسلِمينَ وتركُ مُزاحمتِه علَيها كما دلَّ علَيه أَحاديثُ الرَّسولِ ﷺ السَّابقةُ لِمن الأدلَّة على صَفاءِ القلبِ من الغشِّ للإسلامِ وأهلِه، قالَ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ وهوَ يَشرحُ قولَ النَّبيِّ ﷺ: «**ثَلاثٌ لا يَغِلُّ علَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِم: إِخْلَاصُ العَمَلِ لله، ومُناصحَةُ أَئِمَّةِ المُسْلِمِين، ولُزُومُ جَماعَتِهِم؛ فإِنَّ الدَّعوةَ تُحِيطُ مِن وَرائِهِم**» رواه التِّرمذي (٢٦٥٨) وغيرُه وهو صَحيحٌ، قالَ في «مفتاح دار السَّعادة» (ص ٧٩):

«أي لَا يَحمِلُ الغِلَّ ولَا يَبقَى فيهِ معَ هَذه الثَّلاث؛ فإنَّها تَنفي الغِلَّ والغشَّ ومُفسداتِ القَلب وسَخائمَه، فالمُخْلصُ لله إخلاصُه يَمنعُ غلَّ قلبِه ويُخرِجُه ويُزيلُه جملةً؛ لأنَّه قد انصرفَت دَواعي قلبِه وإرادتِه إلى مَرضاةِ ربِّه...

وقولُه: (ولُزومُ جَماعَتِهم): هَذا أيضًا ممَّا يطهِّر القلبَ من الغلِّ والغشِّ؛ فإنَّ صاحبَه للُزومِه جماعةَ المسلِمين يحبُّ ما يحبُّ لنفسِه ويكرهُ لهم ما يكرهُ لها، ويَسوؤُه ما يَسوؤُهم ويَسرُّه ما يسرُّهم، وهذا بخلافِ مَن انحازَ عَنهم واشتغلَ بالطَّعن عليهم والعَيب والذَّمِّ لهم، كفِعل الرَّافضةِ والخَوارج والمعتَزلةِ وغيرهم[1]؛ فإنَّ قُلوبَهم ممتلئةٌ غلًّا وغشًّا، ولهذا تجد الرَّافضةَ أبعدَ النَّاس من الإخلَاص

(١) ذكَر هذه الفرقَ الثَّلاثة؛ لأنَّها أَوضحُها في الخُروج على الأئمَّة.

وأغشَّهم للأئمَّة والأمَّة، وأشدَّهم بُعدًا عن جماعةِ المسلمِين».

فبيَّن أنَّ قلوبَ الخَوارج مَغشوشةٌ، وبيَّن سرَّ مُجانبتِهم للإخلاص، وكذلكَ يقولُ الرَّاسخونَ، فأينَ صلَاحُ قُلوبِ الخارجِينَ المدَّعَى لهم مِن قِبَل الحركيِّين ومَن تأثَّر ببَهرجِهم؟!

النَّموذجُ الأوَّلُ الحسَنُ بنُ عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنهما:

روَى أبو نُعيم في «الحِلية» (٢/ ٣٧) بإسنادٍ صَحيحٍ عن جُبير بن نُفير قالَ: قلتُ للحَسن - أي ابن عليٍّ رضي الله عنهما -: «إنَّ النَّاسَ يَقولونَ إنَّك تُريدُ الخلافَةَ؟ فقالَ: قد كانَت جَماجمُ العَرَب في يَدي يُحاربون مَن حاربتُ، ويُسالِمون مَن سالَمتُ، **فتَركتُها ابتِغاءَ وجهِ الله وحَقن دِماءِ أمَّة محمَّدٍ ﷺ**».

قالَ الآجُرِّي رحمه الله في «الشَّريعة» عقبَ الأثرِ رقم (١٦٦١): «انظُروا - رَحمكُم الله - وميِّزوا فِعلَ الحسَنِ الكَريمِ ابنِ الكَريم، أخ كَريمٍ بنِ الكَريم، ابن فاطمَة الزَّهْراء مُهجة رَسُول الله ﷺ، الَّذي قَد حَوَى جميعَ الشَّرف، لمَّا نَظرَ إلى أنَّه لَا يَتمُّ مُلْكٌ من مُلك الدُّنيا إلَّا بتَلَف الأنفُس وذَهاب الدِّين وفِتنةٍ مُتواترةٍ وأُمورٍ تُتَخوَّف عواقِبُها على المسلمين، صان دينَه وعِرضَه، وصانَ أُمَّة محمَّدٍ ﷺ، ولَم يحبَّ بلوغَ ما لَهُ فيه حظٌّ مِن أُمورِ الدُّنيَا، وقد كانَ لذلكَ أهلًا، **فتركَ ذلكَ بعدَ القُدرةِ منه على ذلكَ؛ تَنْزيهًا منه لدِينه ولصَلاح أمَّة محمَّدٍ ﷺ ولشَرَفه**، وكيفَ لَا يكون ذلك، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: **(إنَّ ابني هذا سيِّدٌ، وإنَّ اللهَ عز وجل يُصلِحُ به بين فئتَين عَظيمَتَين مِن المسلِمينَ)**؟! فكانَ كما قالَ النَّبيُّ ﷺ، رَضيَ اللهُ عن الحسَنِ والحُسينِ وعن أَبيهما وعن أمِّهما، ونَفعَنا بِحُبِّهم».

وقالَ ابنُ حجر في «الفتح» (١٣/ ٦٦): «**وفي هذه القصَّة من الفَوائدِ عَلَمٌ مِن أعلام النُّبوَّة ومَنقبةٌ للحسَن بن عليٍّ؛ فإنَّه ترَكَ المُلكَ لَا لقلَّةٍ ولَا لذلَّةٍ ولَا لعِلَّةٍ، بل لرَغبتِه فيما عندَ الله لِما رَآه مِن حَقْن دِماءِ المسلِمين، فراعَى أمرَ الدِّين**

ومَصلحةَ **الأمَّة**»، وقالَ ابن تَيمية في «منهاج السنَّة» (٤/ ٤٢) مُبيِّنًا قوَّةَ الحسنِ على القِتالِ لو أَرادَه: «فإنَّ الحسنَ تخلَّى عن الأَمر وسلَّمَه إلى مُعاوية **ومعَه جُيوشُ العِراق**، وما كانَ يَختارُ قِتالَ المُسلمينَ قطُّ، وهَذا مُتواترٌ من سيرتِه»، ويدلُّ له ما روَاه ابنُ أبي شَيبة (٣٧٣٥٧) والخطيبُ في «تاريخ بَغداد» (١٠/ ٣٠٥) وغيرُهما بسندٍ صَحيحٍ عن أبي الغَريف قالَ: «كنَّا مُقدِّمةَ الحسَن بنِ عليٍّ اثنَي عشَر ألفًا بمَسكن مُستمِيتين تَقطرُ سُيوفُنا مِن الجدِّ على قِتالِ أَهل الشَّام وعلَينا أبو العَمرَّطة، قالَ: فلمّا أَتانا صُلحُ الحسَن بن عليٍّ ومُعاويةَ كأنَّما كُسرَت ظُهورُنا مِن الحُزن والغَيظِ، قالَ: فلمَّا قَدِم الحسنُ بن عليٍّ الكوفةَ قامَ إلَيه رَجلٌ منَّا يُكنَى أبا عامِر فقالَ: السَّلامُ علَيكَ يا مُذلَّ المؤمِنينَ! فقالَ: لَا تَقُل ذاكَ يَا أبا عامِر، ولكنِّي كَرهتُ أن أَقتلَهم طلبَ المُلكِ أو على المُلكِ».

النَّموذجُ الثَّاني عبدُ الله بنُ عُمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنهما:

مِن الآثارِ العَجيبةِ في هَذا المعنَى والثَّابتةِ أَسانيدُها ما رَواه ابنُ سَعد (٤/ ١٦٩) وابن أبي الدُّنيَا في «الإشراف في مَنازِل الأشراف» (٧) وعبدُ الغنيِّ المقدِسيِّ في «تحريم القَتل وتَعظيمه» (ص١٨٧) أنَّ الخَليفةَ الأمويَّ مَروانَ بنَ الحكَم قالَ لعبدِ الله بن عُمر بن الخطَّاب رضي الله عنهما: «هَلُمَّ أُبايِعك؛ لأنَّك سيِّدُ العربِ وابنُ سيِّدها، فقالَ له ابنُ عمر: كيفَ أَصنَع بأَهل المشرقِ[1]، والله! ما أُحبُّ أنَّها دانَت لِيَ سَبعينَ سنةً وأنَّه قُتل في سَببِي رجلٌ واحدٌ! فخَرجَ مَروانُ وهوَ يَقولُ:

إنِّي أرى فتنـــةً تغـــلي مراجِلُهـــا   والمُلك بعـدَ أبي لَـيلى لِمَـن غلَبـا».

هَذه بادرةٌ نادِرةٌ من مَروانَ؛ إذ أَقدَم على التَّنازلِ عن مُلكِه لابن عُمر رضي الله عنهما الَّذي قالَ قولتَه هَذه الَّتي تدلُّ على كِبَر شأنِه وعلوِّ مُستَواه وعلى إخلاصِه وشفقتِه على الأمَّة، فلم يَرضَ أن يَكونَ له الحُكمُ سَبعينَ سنةً كلُّه وِئامٌ ورَحمةٌ بين الرَّاعي والرَّعيَّةِ إن كانَ لَا يُنالُ إلَّا بإراقةِ دمٍ واحدٍ مَعصومٍ!

---

(١) يُريدُ أنَّ الشَّوكةَ لهم وهُم لَا يَرضَون ببني أميَّة بَديلًا.

النَّمَوذجُ الثَّالثُ أَحمدُ بنُ حَنبلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

امتُحنَ الإمامُ أَحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ مِن أَجْل أن يَقولَ كَلمةَ: «القُرآن مَخلوقٌ» وهيَ كَلمةُ كُفرٍ أكبرَ بإجماع السَّلفِ، وكانَ يأبَى ذلكَ حتَّى عُذِّب وسُجِن وأُهينَ إهانةً عَظيمةً مِن قِبَل سُلطانِ زَمانِه، مع ذلكَ فقَد كانَ يُحرِّم الخروجَ علَيه، بل لَمَّا أَرادَت جماعةٌ أن تَخرجَ علَيه أمرَ النَّاسَ بقِتالِ الخارجِين، روَى حَنبل بن إسحاق في «مِحنةِ الإمام أحمَد» (ص٧٠) والخلَّال في«السُّنة» (٩٠) بسندٍ صَحيحٍ قصَّةَ الجَماعةِ الَّذينَ جاءُوا يُحرِّضونه على الخروج على الخليفةِ، وجعَلوا يصِفونَ له ما وقعَ فيه مِن الدَّعوةِ إلى كلِمة الكُفرِ: (القُرآن مَخلوق)!! فقالَ لهم: «فما تُريدون؟ قالوا: أَنْ نُشاوِرَك في أنَّا لَسْنا نَرضَى بإمْرَتِه ولَا سُلطانِه، فناظَرهم أبو عَبدِ الله ساعةً، وقالَ لهم: علَيكم بالنُّكرةِ بقُلوبِكم ولَا تَخلَعوا يدًا مِن طاعةٍ، ولَا تَشُقُّوا عصَا المسلِمينَ ولَا تَسفِكوا دِماءَكم ودِماءَ المسلِمينَ معَكم، انظُروا في عاقبةِ أَمرِكم، **واصبِرُوا حتَّى يَستريحَ بَرٌّ أو يُستراحَ مِن فاجرٍ**...»، قالَ حَنبل: «ودَخلتُ أنَا وأبِي على أبِي عبدِ الله بعدَ ما مضَوا، فقالَ أبِي لأبِي عبدِ الله: نَسألُ اللهَ السَّلامةَ لنا ولأمَّةِ محمَّدٍ، وما أُحبُّ لأَحدٍ أن يَفعَل هَذا، وقالَ أبِي: يَا أبَا عبدِ الله! هَذا عندَك صَوابٌ؟ يَعني الخروجَ، قالَ: لَا! هَذا خِلافُ الآثارِ الَّتي أُمِرنا فيها بالصَّبرِ، ثمَّ ذكَرَ أبو عَبدِ الله قالَ: قالَ النَّبيُّ ﷺ: (**إنْ ضَربَك فاصبِرْ.. وإنْ.. وإنْ.. فاصبِرْ**)، فأَمرَ بالصَّبرِ...».

تأمَّل هَذا النَّفَس النُّورانيَّ، وهَذهِ المتابَعةَ المحضَةَ لأَحاديثِ رَسولِ الله ﷺ، ونِسيانَ حظِّ النَّفْس في الانتِقام لها، مع أنَّه رَحِمَهُ اللهُ دُعيَ للكُفرِ الأَكبرِ، بل سُجنَ وضُربَ بسَببِ إبائِه الطَّعنَ على صِفةٍ من صِفاتِ الله عَزَّ وَجَلَّ!! وهَذا دأبُ السَّلفِ، وقد ذكرَ ابن الجَوزي في «صِفة الصَّفوَة» (٤/ ١٢٢) عن عبدِ الله بن المُباركِ قالَ: قيلَ لحَمْدون بن أحمَد: «ما بالُ كَلامِ السَّلفِ أَنفعُ مِن كلامِنا؟ قالَ: لأنَّهم تَكلَّموا لعزِّ الإسلَام ونَجاةِ النُّفوسِ ورضَا الرَّحمنِ، ونحنُ نَتكلَّمُ لعزِّ النُّفوسِ وطَلبِ الدُّنيَا ورِضا الخَلقِ».

فأينَ هَذا الإخلاصُ عندَ هَؤلاءِ الأَوباشِ مِن (الحرَكيِّين) الَّذينَ يَتشدَّقونَ بتَحكيم الشَّريعةِ ثمَّ هُم يَتحرَّكون بغيرِ نُصوصِ الشَّريعةِ، ويَنتصِرون لأَنفسِهم لأَدنَى مُضايقةٍ ويَتظاهَرون بالغَيرةِ على الدِّين؟! وإنَّما تَصدقُ الغَيرةُ على الدِّينِ بالتِزامِ نُصوصِه، والوُقوفِ عندَ أَحكامِه وحُدودِه، وسيرةُ الإمَام أحمَد رَحِمَهُ اللهُ في هَذا مِثالٌ حيٌّ لمَن كانَ له قلبٌ حيٌّ.

والعَجبُ العُجابُ أنَّ الإمامَ أَحمدَ رَحِمَهُ اللهُ في الوَقتِ الَّذي كانَ يَنهَى فيه عن الخروجِ على الأئمَّة كانَ يُحرِّض على قِتالِ الخارِجينَ علَيهم، فقَد روَى الخَلَّالُ في «السُّنة» (١١٥-١١٩) بأَسانيدَ يُصحِّحُ بَعضُها بَعضًا، مِنها رِوايةُ حُسين الصَّائغ قالَ: «لمَّا كانَ أَمرُ بابكٍ[1] جعَل أبو عَبدِ الله يُحرِّض على الخروجِ إلَيه، وكَتبَ معِي كتابًا إلى أبي الوَليدِ والِي البَصرة يُحرِّضهم على الخروجِ إلى بابك».

---

(١) أي الخُرَّمي الَّذي خَرجَ على بني العبَّاس.

وأَعجبُ العُجابِ أنَّ بَابك الخُرَّمي هَذا خَرجَ على المأمونِ والمعتَصم، وهُما اللَّذانِ امتَحَنا الإمامَ أَحمدَ امتِحانًا شَديدًا وعذَّباه عَذابًا نُكرًا، فلَم يَمنَعه انتِصارُه لنَفسِه مِن الانقِيادِ للحقِّ؛ لأنَّه لَا مَهربَ لِمُنشد الحقِّ من التَّحاكمِ إلى الكِتابِ والسُّنة.

فتَدبَّر نَهيَه عن الخروجِ عمَّن دَعاه إلى الكُفرِ الأَكبر وسخَّر سُلطانَه للدِّفاع عَنه وعذَّبَه فيهِ، ولمَّا ظَهر مَن يَخرجُ علَيهم لَم يَستنكِف أن يَكونَ واحدًا من الرَّعيَّة، بل مُحرِّضًا على قِتالِ الخارِج على الَّذينَ عذَّبوه مِن ذَوي السُّلطانِ!!

فتدبَّر هذا لتُدركَ عِزَّة الإخلاص، والأمر لله!

إنَّ أَطْرَ النَّفس على ما سبقَ يَتطلَّب قوَّةً في الإخلَاص لله، وإلَّا فإنَّ النَّاسَ يَنشطونَ عادةً لمحارَبةِ السُّلطانِ بُغيةَ مُزاحمتِه على مَكانتِه، وكلَّما تذكَّروا ضَياعَ حُقوقِهم عندَه تعلَّقوا بكلِّ مُحاربٍ له.

تَأصيلُ المسألةِ

مَسألَتُنا هَذه ذاتُ شِقَّين:

الأَوَّلُ: تَزكيةُ الجماعاتِ الدَّمويَّةِ بأنَّها مُخلِصةٌ على الرغم مِن ثَورتِها على المجتَمعاتِ المسلِمةِ بالغلوِّ في التَّكفيرِ والتَّقتيلِ.

الثَّاني: عدمُ التَّعرُّضِ لها ما دامَت تُواجِه الطَّواغيتَ كما يُعبِّرون، بل السَّعي للتَّعاونِ معَها حتَّى نَغيظَ العلمانيِّين ونَجمعَ الصُّفوفَ ضدَّهم.

بهذَين التَّعليلَين يَحتجُّ الحركيُّونَ بُغيةَ غضِّ الطَّرْف عنها وعن أَخطائِها، وبِهما تتشجَّعُ تلكَ الجماعاتُ على المضيِّ فيما هيَ علَيه حتَّى أَثخنَت البلادَ الإسلاميَّةَ بالجِراح، وطالَ عمرُها وراجَت شُبهاتُها وعَظمَت الفُرقةُ بسبَبِها واشتدَّت وَطأةُ الكفَّارِ على المسلِمينَ.

وأَقولُ جَوابًا على الشِّقِّ الأَوَّل:

هَبْ أنَّهم مُخلِصونَ، فهَل أَعمالُ النَّاس تُقبَلُ بمجرَّد الإخلاصِ؟ ألم يَشترِط أهلُ العِلم - مع الإخلاصِ - إصابةَ السُّنةِ؟! وأنَّه لَا يَكفي لوَزنِ أَعمالِ أيِّ جَماعةٍ ثُبوتُ إخلاصِها، بل لَا بدَّ مِن النَّظرِ فيها موافقةً لهديِ الرَّسولِ ﷺ ومُخالَفةً؟! فليسَ كلُّ مَن ادَّعى صلاحَ النيَّة في عملِه الإصلاحيِّ وأنَّ دافِعَه إلَيه هو الغَيرةُ على الإسلام سُلِّم له فيهِ، وتأصيلُ هَذا مَأخوذٌ ممَّا روَاه ابنُ أبي الدُّنيا في «الإخلاص والنِّية» (٣) بإسنادٍ صَحيحٍ عن إبرَاهيمَ بن الأَشعثِ في قولِه تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] قالَ: «أَخلَصُه وأَصوَبُه، قالَ: إنَّ العمَلَ

إذَا كانَ خالصًا ولم يَكُن صَوابًا لم يُقبَل، وإذَا كانَ صَوابًا ولم يَكُن خالصًا لم يُقبَل، حتَّى يَكونَ خالصًا صَوابًا، والخالصُ إذَا كانَ لله، والصَّوابُ إذَا كانَ على السُّنة»، ويَبدو أنَّ إبرَاهيمَ هَذا أخذَه من شَيخِه الفُضيل بن عِياض رَحِمَهُ اللَّهُ ؛ فإنَّ الأثرَ في «الحِليَة» لأبي نُعيم (٨/ ٩٥) عنه قالَ: «سَمعتُه يَقولُ...» وذكَره عنه.

وبهَذا استدلَّ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ وبقولِه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وبقولِه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، وقالَ: «فإسلامُ الوجهِ إخلاصُ القَصدِ والعَملِ لله، والإحسانُ فيهِ مُتابعةُ رَسولِه وسنَّتِه، وقالَ تَعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وهيَ الأَعمالُ الَّتي كانَت على غَيرِ السُّنةِ أو أُريدَ بها غَيرُ وجهِ الله».

وقد كنتُ دائمًا أَذكرُ هُنا أثرًا عَظيمًا لَصيقًا بالموضوعِ، ألَا وهوَ مَوضوعُ الخَوارجِ وعلاقتِهم بالجِهادِ؛ وهَذا الأثرُ هوَ قولُ حُذَيفةَ لأبي مُوسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَرأيتَ لو أنَّ رَجلًا خرَجَ بسَيفِه يَبتغِي وَجهَ الله فضَرَبَ فقُتِل: كانَ يَدخلُ الجنَّةَ؟ فقالَ له أبو مُوسى: نعَمْ! فقالَ حُذَيفة: لَا! ولَكن إذَا خرَجَ بسَيفِه يَبتغِي به وَجهَ الله، ثمَّ أَصابَ أَمرَ الله فقُتِل دخَلَ الجنَّة» أَخرجَه سَعيد بن مَنصور (٢٥٤٦) بسندٍ صَحيحٍ.

ومعنَى قولِه: «**ثمَّ أَصابَ أَمرَ الله**» أصابَ السُّنَّةَ، أي كان جهادُه بحقٍّ، ويوَضِّحه قَولُ ابن مَسعودٍ رضي الله عنه كما في «البدَع والنَّهي عنها» لابن وضَّاح (٨١): «**على سُنَّةٍ ضرَبَ أم على بِدعةٍ؟!** قالَ الحسنُ: فإذَا بالقَوم قد ضرَبُوا بِأَسيافِهم على البِدَع»!! وفي رِوايةِ عبد الرَّزَّاق (٥/ ٢٦٧) عن أبي عُبيدةَ بن حُذَيفة قالَ: «جاءَ رَجلٌ إلى أبي موسَى الأَشعَري وحُذيفةُ عندَه، فقالَ: أَرأيتَ رَجلًا أَخذَ سيفَه فقاتَلَ به حتَّى قُتِل: أَلَهُ الجنَّة؟ قالَ الأَشعَريُّ: نعَمْ! قالَ: فقالَ حُذيفةُ: استَفْهِم الرَّجلَ وأَفهِمْه! قالَ: كيفَ قُلتَ؟ فأَعادَ علَيه مِثلَ قَولِه الأوَّلِ، فقالَ له أَبُو موسَى مِثلَ قَولِه الأوَّلِ، قالَ: فقالَ حُذيفةُ أيضًا: استَفهِم الرَّجلَ وأَفهِمْه! قالَ: كيفَ قُلتَ؟ فأَعادَ علَيه مِثلَ قَولِه، فقالَ: مَا عِندِي إلَّا هَذا، فقالَ حُذيفةُ: ليَدخُلَنَّ النَّارَ مَن يَفعلُ هَذا كَذا وكَذا، ولَكن **مَن ضرَبَ بسَيفِه في سَبيل الله يُصيبُ الحقَّ فلَهُ الجنَّة**، فقالَ أبو موسَى: صدَقَ».

تَأَمَّلْ هَذا الأَثَرَ العَظيمَ ومَا تحتَه من فقهٍ! فإنَّه يُبيِّن لكَ المِيزانَ الشَّرعيَّ الَّذي يَزنُ بهِ المُسلمُ الفَقيهُ الصَّادقُ أَعمالَ العِباد، ألَا وهوَ النَّظرُ في كلِّ عمَلٍ بعَينِ الإخلاَص لله، وعَين المُتابعةِ لرَسولِه ﷺ؛ لأنَّهما شَرطَا قَبولِ العمَلِ، ولذَلكَ جاءَ في رِوايةِ ابن وضَّاح زِيادةٌ نافعةٌ فيها أنَّ حُذيفةَ رضي الله عنه قالَ فيمَن قِتالُه على غَير السُّنَّة: «والَّذي نَفسي بيدِه! ليَدخلنَّ النَّارَ في مِثل الَّذي سألتَ عنه أَكثرُ من كذَا وكذَا»!!

والخُلاصةُ أَنّنا لو سلَّمْنا بسلامةِ قُلوبِ الجماعاتِ الإسلاميَّةِ الدَّمَويَّة لبقيَ الذَّمُّ لاصقًا بهم؛ لأنَّهم خالَفوا طَريقةَ الرَّسولِ ﷺ في التَّغييرِ، فكيفَ إذَا علِمْنا أنَّ السَّلفَ الصَّالحَ كانُوا يذمُّونَ القومَ حتَّى في نيَّاتِهم فضلًا عن طَريقتِهم كما مرَّ؟!

هَذا هوَ التَّأصيلُ الشَّرعيُّ للمَسألةِ ولكلِّ مَسألةٍ تَرِد، ولَا يَجوزُ أن يَنساقَ المرءُ معَ التَّفسيرِ العاطفيِّ أو الاستِنباطِ العَقليِّ التَّخييليِّ.

وأَقولُ جَوابًا على الشِّقِّ الثَّاني:

١- مِن جهةِ الشَّرعِ فأهلُ البدَعِ ليسُوا أهلًا لنَصرِ الله؛ لأنَّهم خذَلوا سنَّةَ الرَّسولِ ﷺ، وقد أَخبرَ اللهُ أنَّه إنَّما يَنصرُ مَن يَنصرُه فقالَ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: ٤٠]، وقالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[محمد: ٧]، كما أَخبرَ الرَّسولُ ﷺ أنَّ الذِّلَّةَ والصَّغارَ مَضروبانِ على المُخالِفينَ له فقالَ: «**جُعِلَ الذِّلَّةُ والصَّغارُ على مَن خالَفَ أَمري**» رواه أحمدُ (٥١١٤) وابنُ أبي شَيبة (٥/ ٣٢٢) وهوَ حسنٌ.

فإذَا كانَ أهلُ البدعِ غيرَ مَنصورِين فإنَّ الأَصلَ النَّفرةُ مِنهم وتركُ الاستِنصارِ بمَن يَكونونَ سببًا في الهزيمةِ، مَثلُهم في ذلكَ مَثلُ استِنصارِ المسلِمينَ بالكفَّارِ على المعتدِينَ علَيهم، وإنَّما جوَّزَ أهلُ العِلم الاستِعانةَ بهَؤلاءِ في حالاتٍ مَخصوصةٍ أو ضَروراتٍ مَدروسةٍ يُقدِّرُها المؤهَّلونَ لها، وقد تُخطئُ تَقديراتُهم؛ لأنَّ المسألةَ تَحتاجُ إلى نظرٍ دَقيقٍ وإعمالِ فكرٍ في النُّصوصِ وفي واقعِ الحالاتِ المعروضةِ.

قالَ ابنُ تَيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في «مِنهاج السُّنة» (٨/ ٤٨٧): «كلُّ مَن كانَ متَّبعًا للرَّسولِ كانَ اللهُ معَه بحسَب هَذا الاتِّباعِ؛ قالَ اللهُ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]»، وقالَ ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في «مَدارِج السَّالكينَ» (٣/ ١٤٤): «وبالجملةِ فالطَّريقُ مَسدودةٌ إلَّا على مَن اقتفَى آثارَ الرَّسولِ واقتدَى به في ظاهرِه وباطنِه، فلَا يَتعنَّى السَّالكُ على غيرِ هَذا الطَّريقِ؛ فليسَ حظُّه مِن سُلوكِه إلَّا التَّعب، وأَعمالُه ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]».

ب- غَدرُ الخوارجِ بأَهلِ السُّنة:

مِن جهةِ الواقِع فالجماعاتُ الدَّمويَّةُ الَّتي يَتزَّلف إلَيها الحرَكيُّون ومَن دَخل تحتَ شُبهتِهم لَا تَرضَى بأن يَعملَ معَها مَن يُخالِفها إلَّا وهيَ تُضمِر حربَه عندَ التَّمكُّن؛ فهيَ تتَمسكَن إلى أن تَتمكَّن، ولَأَضربنَّ مثلًا من تاريخِ هَذه الأمَّةِ لبَعض الاجتِهاداتِ الَّتي كانَت من بعض العُلماءِ في التَّعاونِ مع الخوارجِ على قِتالِ بعض الزَّنادقةِ الكفَّارِ، فكانَت النَّتيجةُ أن خَدعَهم الخوارجُ أَنفسُهم؛ لأنَّ حَقيقةَ هَؤلاءِ أنَّهم لَا يَجِدون في مُخالِفيهم من أهل الإسلامِ إلًّا ولَا ذمَّةً ويُحارِبونَهم بلَا هَوادةٍ؛ إذ يرَونَهم كفَّارًا، فقَولُ الحركيِّين: لَا تَنبَغي مُواجهتُهم لأنَّهم يُجاهِدون طَواغيتَ الأَرض أو لأنَّهم رِدءٌ لنا ضدَّ العِلمانيِّين واللِّيبراليِّين غيرُ صَحيحٍ؛ لأنَّهم يَعتبِرون أهلَ السُّنةِ المخالِفينَ لهم طَواغيتَ بل مُجادِلينَ عن الطَّواغيتِ، بل هُم

غالبًا يُقاتِلون هَؤلاءِ قبلَ أولئكَ؛ يَتأوَّلونَ قولَ الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقد رأى النَّاسُ في هَذا الزَّمنِ ما فعَلوا بالمسلِمينَ عُمومًا وبأهلِ السُّنةِ خُصوصًا في الجَزائرِ والعِراقِ والشَّام واليمَن ما فيه بلاغٌ لقومٍ صادقِين، وصدقَ فيهم قَولُ رَسولِ الله ﷺ: «**يَقتُلونَ أَهلَ الإِسلَامِ ويَدَعون أَهلَ الأَوثانِ**» رَواه البُخاري (٣٣٤٤) ومُسلم (٢٤١٥)، فكيفَ يُمكنُ التَّعاونُ مع مَن هَذا وصفُه؟!

أَقصدُ بالمثَل هُنا شاهدًا تاريخيًّا حصَل لأهلِ المغربِ العربيِّ وفي تونس تَحديدًا، وهوَ أنَّه خرَجَ على الشِّيعةِ العُبيديِّين خَوارجُ سنةَ (٣٣٣ هـ)، وكانَ على رَأسِهم أبو يَزيد مَخلد بن كَيداد، ثمَّ انضمَّ إلَيهم جُموعٌ غَفيرةٌ مِن المنتَسبِين لأَهلِ السُّنة مع بَعضِ عُلمائِهم من القَيرَوان بالنَّظرِ إلى أنَّ العُبيديِّين عدوٌّ مُشتركٌ قد أَظهَروا سبَّ الأَنبياءِ وإحراقَ المساجدِ والمصاحفِ ولَعنَ الصَّحابةِ ﵃، قالَ القاضِي عِياض ﵀ في «ترتيب المدارِك» (٥/ ٣٠٣): «كانَ أهلُ السُّنة بالقَيرَوان أيَّامَ بني عُبيدٍ في حالةٍ شَديدةٍ مِن الاهتِضامِ والتَّستُّر كأنَّهم ذمَّةٌ تَجري علَيهم في كثرةِ الأيَّام محنٌ شَديدةٌ، ولَمَّا أَظهرَ بنو عُبيدٍ أمرَهم ونصَّبوا حُسينًا الأَعمَى السَّبَّابَ لعَنه اللهُ تَعالى في الأَسواقِ للسَّبِّ بأَسجاعٍ لُقِّنها، يوصِلُ منها إلى سبِّ النَّبيِّ ﷺ في أَلفاظٍ حفظَها، كقَولِه لعَنَه اللهُ: الْعَنوا الغارَوما وعَى، والكِساءَ وما حوَى!! وغير ذلكَ، وعلِّقَت رُؤوسُ الأَكباشِ والحُمُر على أَبوابِ الحوانيتِ علَيها قَراطيسُ معلَّقةٌ مَكتوبٌ فيها أَسماءُ الصَّحابةِ.

اشتدَّ الأمرُ على أَهلِ السُّنةِ، فمَن تكلَّمَ أو تحرَّكَ قُتِل ومُثِّل به، وذلكَ في أَيَّام الثَّالثِ مِن بني عُبيدٍ وهوَإسماعِيلُ الملقَّبُ بالمنصورِ لَعنَه اللهُ تَعالى سنةَ إحدَى وثَلاثِين وثَلاثمائةٍ.

وكانَ في قَبائل زناتَة رَجلٌ مِنهم يُكنَى بأبي يَزيدَ ويُعرَف بالأَعرجِ صاحبِ الحمارِ، واسمُه مخلَد بن كَيداد مِن بني يَفرن، وكانَ يَتحلَّى بنُسكٍ عَظيمٍ، ويَلبسُ جبَّةَ صُوفٍ قَصيرةَ الكُمَّين، ويَركبُ حِمارًا، وقَومُه له على طاعةٍ عَظيمةٍ، وكانَ يُبطِن رأيَ الصُّفْريَّة ويَتمذهبُ بمَذهبِ الخوارجِ، فقامَ على بني عُبيدٍ، والنَّاسُ يَتمنَّون قائمًا عليَهم، فتحرَّك النَّاسُ لقِيامِه واستَجابُوا له، وفَتح البلادَ ودخَل القَيرَوان، وفرَّ إسماعيلُ الى مَدينةِ المَهديَّة، فنفَر النَّاسُ مع أبي يَزيدَ إلى حَربِه، وخرَج بهم فُقهاءُ القَيرَوان وصُلحاؤُهم، ورأَوا أنَّ الخروجَ معَه مُتعيِّنٌ لكُفرِهم، إذ هوَ مِن أهلِ القِبلةِ...».

ثمَّ سمَّى جَماعةً من أهلِ العِلم الَّذينَ خَرجوا معَهم وقالَ: «فاستَنهَضوا النَّاسَ للجِهادِ ورغَّبوهم فيه، فلمَّا كانَ يومُ الجمُعةِ رَكبوا بالسِّلاح التَّامِّ والبُنودِ والطُّبولِ، وأتَوا حتَّى ركَزوا بُنودَهم قبالةَ الجامعِ، وكانَت سَبعةَ بُنودٍ:

بُندٌ أَحمرُ للمُمسي[1] فيه مَكتوبٌ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ، محمَّدٌ رَسولُ الله، لَا حُكمَ إلَّا لله وهوَ خيرُ الحاكِمينَ.

---

(١) الممسِي اسم أحدِ العُلماءِ الَّذينَ شارَكوا ضدَّ بَني عُبيدٍ، وكَذا مَن سمِّي بعدَه: رَبيع وأبو العرَب وأبو نَصرٍ والسَّبائي والعَشَّاء.

وبُندانِ أَحمرانِ لِربيعٍ، في أَحدِهما: بسم الله الرَّحمنِ الرَّحيم، لَا إلهَ إلَّا اللهُ، محمَّدٌ رَسولُ الله.

وفي أحدهما[1]: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ على يدِ الشَّيخ أبي يَزيدَ، اللَّهمَّ انصُرْ وَليَّك على مَن سبَّ نَبيَّك وأَصحابَ نَبيِّك.

وبُندٌ أَصفرُ لأبي العَربِ مَكتوبٌ فيه: بسم الله الرَّحمنِ الرَّحيم ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ الآية.

وبُندٌ أَخضرُ لأبي نَصرٍ الزَّاهدِ، فيه: لَا إلهَ إلَّا اللهُ، ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾.

وبُندٌ أَبيضُ للسَّبائيِّ، فيه: بِسم الله الرَّحمنِ الرَّحيم، محمَّدٌ رَسولُ الله، وأبو بكرٍ الصِّدِّيق، وعُمرُ الفاروقُ.

وبُندٌ أَبيضُ للعَشَّاء وهوَ أَكبرُهم، فيه مَكتوبٌ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ الآية.

وحَضرَت صلاةُ الجمُعةِ فخَطبَ خَطيبُهم أحمدُ بن أبي الوَليدِ خُطبةً بَليغةً، وحرَّض النَّاسَ على الجهادِ، وسبَّ بني عُبيدٍ ولَعنَهم وأَغرَى بهم، وتَلَا: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥] الآيةَ، وأَعلَمَ النَّاسَ بالخروجِ مِن غَدِهم يومَ السَّبتِ، فخَرجَ النَّاسُ مع أبي يَزيدَ لجِهادِهم، فرُزِقوا الظَّفرَ بهم وحصَروهم في مَدينةِ المهديَّة، فلمَّا رأَى أبو يزيدَ ذلكَ، ولم يَشكَّ في غَلبتِه أَظهرَ ما أَكنَّه مِن

(١) هَكذا في الأَصل، ولعلَّها: وفي الآخَر...

الخارجيَّةِ فقالَ لأَصحابِه: إذَا لَقِيتم القومَ فانكَشِفوا عن عُلماءِ القَيرَوان حتَّى يَتمكَّن أَعداؤُهم مِنهم!! فقَتَلوا مِنهم مَن أَرادَ اللهُ سَعادتَه، ورَزقَه الشَّهادةَ».

وسببُ حِرصِه على أن يَكونَ بَنو عُبيدٍ هُم الَّذينَ يَتولَّون قتلَ أهلِ السُّنة ما قالَه ابن عذاري في «البَيان المغرب في أَخبارِ الأَندلُس والمَغرِب» (١/ ٢١٨) قالَ: «ولمَّا رأَى أبو يَزيدَ أنَّه استَولَى على الأمرِ أو كادَ، وأنَّ الشِّيعيَّ قد كادَ يَبيدُ أو بادَ، قالَ لجنودِه: (إذَا التَقَيتُم مع القَوم فانكَشِفوا عن أَهْل القَيروان حتَّى يتمكَّن أَعداؤُهم مِن قَتلِهم فيَكونُوا هُم الَّذينَ قَتلوهم لَا نحنُ فيُستَراح مِنهم)! أرادَ أن يَتبرَّأ مِن مَعرَّة قَتلِهم عندَ النَّاس، وأَرادَ الرَّاحةَ مِنهم؛ لأنَّه ظنَّ أنَّه إذَا قُتِل شُيوخُ القَيرَوان وأئمَّةُ الدِّين تمكَّن مِن أَتباعِهم فيَدْعوهم إلى ما شاءَ فيَتبعونَه، فقُتلَ مِن صُلحاءِ القَيروان وفُقهائِهم مَن أَرادَ اللهُ به سَعادتَه وشَهادتَه، وسُقطَ في أيدِي النَّاس وقالُوا: (قُتلَ أَولياءُ الله شُهداءَ)، ففارَقوه واشتدَّ بُغضُهم له أَعني: لأبي يَزيدَ».

هَكذا فَعلَ أبو يَزيدَ مَخلدُ بنُ كَيداد الخارجيُّ بأَهلِ السُّنةِ الَّذينَ جاهَدوا معَه عدوَّه، قالَ الذَّهبيُّ في «تاريخ الإسلَام» (٢٥/ ٣١): «فلمَّا الْتَقَوا وأَيقنَ مخلدٌ بالنَّصرِ غلَبَ عليه ما عندَه مِن الخارجيَّةِ، فقالَ لأَصحابِه: انكَشِفوا عن أَهْل القَيرَوان حتَّى يَنالَ مِنهم عدوُّهم، ففَعلُوا ذلكَ، فاستُشهِد خمسةٌ وثَمانونَ رجلًا مِن العُلماءِ والزُّهَّادِ، مِنهم رَبيعٌ القطَّان والتِّنِّيسي والعَشَّاءُ».

وقد كانَ ذلكَ، ولم يَستفِد أَهلُ السُّنة بقاعِدةِ غيرِ أَهل السُّنة القائلةِ: (نَتعاوَن فيما اتَّفَقنا علَيه، ويَعذرُ بَعضُنا بَعضًا فيما اختلَفْنا فيه)؛ فقد تَعاونَ هَؤلاءِ مع أُولئكَ المبتدِعةِ مِن الخوارج على قِتالِ العُبيديِّين الكفَّارِ وكانَت النَّتيجةُ أن غدَرَ بهم المبتَدعةُ بعدَ أن استَغلُّوهم ثمَّ أَبادوهم؛ لأنَّ مخلدًا الخارجيَّ تَخلَّص مِن العُبيديِّين بالاستِعانةِ بأَهل السُّنة ثمَّ تَخلَّص مِن أهلِ السُّنة بإسلَامِهم إلى سَيفِ العُبيديِّين المتبقِّين فقُتلَ عددٌ كَبيرٌ من العُلماءِ مرَّةً واحدةً تحتَ حَقيقةِ التَّهاونِ المصوغةِ بصيغةِ التَّعاونِ، فقَولُ بَعضِهم اليومَ: يَنبَغي طَرحُ الخِلافاتِ مع أهلِ البدَع للتَّفرُّغ للعِلمانيِّين والاجتِماعِ ضدَّهم كلامٌ مَعسولٌ لكنَّ ذَوقَه مرٌّ عَلقم، وهَذه القصَّةُ مِثالٌ لذلكَ، ونحنُ نَعلمُ في هَذا العَصرِ أُناسًا كانُوا يَتعاونُون مع الجماعاتِ الدَّمويَّةِ وهُم يُخالِفونها في عَقيدتِها، قد قُتِلوا بسَيفِها وهم يُصلُّون معَها في صُفوفِها!!

وأنا أُشبِّه هَؤلاءِ بالأفغان وأَنصارِهم مع الدَّولةِ السُّعوديَّةِ الَّتي أَعانَتهم إعانةً مُنقطِعةَ النَّظيرِ في حَربِهم ضدَّ الرُّوس الشُّيوعيِّين، ثمَّ ما كانَ مِنهم في الأَخيرِ إلَّا أن كافَأُوها بتكفيرِها وتَحويلِ أَبنائِها علَيها، وعمِلُوا جاهِدينَ على أن يَنقُلوا تلكَ الحربَ إلى أَرض الحرَمَين، مع أنَّ دَولةَ التَّوحيدِ تحمَّلَت مَسئوليَّةً خَطيرةً بالنِّسبةِ للسِّياسةِ العالميَّةِ الَّتي كانَت ساخِطةً علَيها وحاولَت أن تُلصِق بها كلَّ جَريمةٍ تُسمِّيها إرهابيَّةً ولكنَّ اللهَ سلَّم!

ويَبدُو أنَّ العُلماءَ عرَفوا من الخَوارجِ الشَّرَّ العَظيمَ منذُ زمنٍ مبكِّرٍ؛ فقد كانَ وَهبُ بنُ منبِّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحذِّر منهم وهوَ مُتوفَّى في بِداياتِ القرنِ الثَّاني، ورأى رَجلًا يُريدُ أن يَتعاطفَ مع الخَوارجِ، فنصَحَه نَصيحةً بَليغةً جدًّا، فكانَ ممَّا قالَه له: «إنِّي قد أَدركتُ صدرَ الإسلَام، فوَالله! ما كانَت للخَوارجِ جماعةٌ قطُّ إلَّا فرَّقَها اللهُ على شرِّ حالَاتِهم! وما أَظهرَ أحدٌ مِنهم قَولَه إلَّا ضَربَ اللهُ عُنقَه! وما اجتَمعَت الأمَّةُ على رَجلٍ قطُّ مِن الخَوارجِ!

ولو أَمكنَ اللهُ الخوارجَ مِن رَأيِهم لفَسدَت الأَرضُ وقُطعَت السُّبلُ وقُطعَ الحجُّ عن بيتِ الله الحَرام! وإذَن لعادَ أمرُ الإسلَام جاهليَّةً حتَّى يَعودَ النَّاسُ يَستَعينون برُؤوس الجبالِ كما كانُوا في الجاهليَّةِ، وإذَن لقامَ أَكثرُ مِن عَشرةٍ أو عِشرينَ رَجلًا ليسَ مِنهم رجلٌ إلَّا وهوَ يَدعُو إلى نَفسِه بالخلافةِ! ومع كلِّ رَجلٍ مِنهم أَكثرُ مِن عَشرةِ آلافِ يُقاتِل بَعضُهم بعضًا، ويَشهدُ بَعضُهم على بعضٍ بالكُفر! حتَّى يُصبحَ الرَّجلُ المؤمنُخائفًا على نَفسِه ودِينِه ودمِه وأَهلِه ومالِه، لَا يَدري أينَ يَسلكُ أو مع مَن يَكونُ؟

غيرَ أنَّ اللهَ بحكمِه وعِلمِه ورَحمتِه نظرَ لهذهِ الأمَّة فأَحسنَ النَّظرَ لهم، فجمَعَهم وألَّف بين قُلوبِهم على رَجلٍ واحدٍ ليسَ مِن الخَوارجِ، فحَقنَ اللهُ به دِماءَهم، وسترَ به عَوراتِهم وعَوراتِ ذَرارِيهم، وجمعَ به فُرْقتَهم، وأمَّن به سُبلَهم، وقاتَل به عن بَيضةِ المسلِمينَ عَدوَّهم، وأَقامَ به حُدودَهم، وأَنصفَ به مَظلومَهم، وجاهَد به ظالمَهم؛ رحمةً مِن الله رَحمَهم بها، قالَ اللهُ تعالى في كِتابِه:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ إلى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ حتَّى بلَغ: ﴿تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقالَ اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلى ﴿ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، فأينَ هُم مِن هَذه الآيةِ؟! فلَو كانُوا مُؤمنِين لنُصِروا! وقالَ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، فلَو كانُوا جندَ الله غَلَبوا ولَو مرَّةً واحدةً في الإسلَام، وقالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ حتَّى بلَغ: ﴿نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، فلَو كانُوا مُؤمِنين نُصِروا، وقالَ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ حتَّى بلَغَ: ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥]، فأينَ هُم مِن هَذا...»؟! رَواه ابنُ عَساكر في «تاريخ دمَشق» (٦٣/ ٣٨٣).

قالَ ابنُ تَيمية رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع الفتاوَى» (٢٨/ ٤٧٩): «وقَد اتَّفقَ أهلُ العِلمِ بالأَحوالِ أنَّ أَعظمَ السُّيوفِ الَّتي سُلَّت على أهلِ القِبلةِ ممَّن يَنتسبُ إليها، وأَعظمَ الفَسادِ الَّذي جرَى على المسلِمينَ ممَّن يَنتسبُ إلى أهلِ القِبلةِ إنَّما هوَ مِن الطَّوائفِ المنتَسبةِ إلَيهم، فهُمْ أشدُّ ضررًا على الدِّينِ وأَهلِه»، واللهُ المستَعانُ.

وعلى هَذا، فالَّذينَ يَمنَعون مِن مُصاولتِهم بزَعم الاشتِغالِ بمصاولةِ العِلمانيِّين يَعيشونَ في الخَيالاتِ، بل قد ضاقَت بهم أرضُ الجِهادِ عن مُجاهدةِ المبتدِعةِ والكفَّارِ في آنٍ واحدٍ، وقاعدتُهم الحركيَّةُ في هَذا تَقولُ: «ما دمتَ تُواجهُ الكفَّارَ فاترُكْ مواجهةَ أهلِ البدَع»!! ولو عَمِلنا بها لعاشَ جَميعُ أهلِ

البدَع فِي أَمانٍ تامٍّ ولانتشرَت بدعُهم في كلِّ البلادِ الإسلاميَّةِ ولَمَا بقيَ للسُّنةِ مَعلمٌ تُعرَف به؛ لأنَّ الصِّراعَ مع الكفَّارِ لم يتوقَّف ولَا يتوقَّف إلى قِيامِ السَّاعةِ، فتكونُ نَتيجةُ تَقعيدِهم هَذا: ترك مجاهدةِ أهلِ البدَع إلى قِيام السَّاعةِ، فكيفَ يَظهرُ مجتمعُ أهلِ السُّنة حِينئذٍ من البدَع الَّتي هيَ بَريدُ الكُفرِ كما أُثِرَ عن بَعض السَّلفِ؟! وتكونُ النَّتيجةُ أيضًا أنَّ السَّلفَ كانُوا يُضيِّعونَ أَوقاتَهم في مُواجهةِ أهلِ البدعِ تلكَ المواجهَةَ العَظيمةَ الَّتي حفِل بها تاريخُهم المجيدُ، مع أنَّ نظرةً خاطفةً لتاريخِ السَّلفِ يُنبيكَ عن مُجاهدتِهم للمبتدِعةِ بلَا هَوادةٍ وفُتوحاتُهم في البلادِ الكافرةِ حيَّةٌ تَشتغلُ على قدَمٍ وساقٍ، وقد نبَّه الرَّسولُ ﷺ على أنَّ الجِهادَين مَطلوبَان ومدحَ أهلَهما، ولم يُعكِّر أَحدُ الجِهادَين على الآخَر، فعن أبي سَعيدٍ الخُدري يقولُ: «كنَّا جُلوسًا نَنتظرُ رَسولَ الله ﷺ، فخَرج علَينا مِن بَعض بُيوتِ نِسائِه، قالَ: فقُمْنا معَه، فانقطعَت نَعلُه، فتَخلَّف علَيها عليٌّ يَخصفُها، فمضَى رَسولُ الله ﷺ ومضَينا معَه، ثمَّ قامَ يَنتظرُه وقُمْنا معَه، فقالَ: **إنَّ مِنكُم مَن يُقاتِل على تَأويل هَذا القُرآنِ كما قاتلْتُ على تَنزيلِه**، فاستَشرَفْنا وفينَا أبو بكرٍ وعمرُ، فقالَ: **لَا، ولكنَّه خاصِفُ النَّعل**، يَعني عليًّا ﷺ، قالَ: فجِئنا نُبشِّره، قالَ: وكأنَّه قد سَمِعه»، ولفظُ الحاكِم وغيرِه: «فلَم يَرفَع رأسَه كأنَّه قد كانَ سَمعَه مِن رَسولِ الله ﷺ» ذكرَه الألبانيُّ في «الصَّحيحَة» (٢٣٨٧) وقالَ: «أَخرجَه النَّسائيُّ في خَصائص عليٍّ (ص ٢٩) وابن حبَّان (٢٢٠٧) والحاكم (٣/ ١٢٢-١٢٣) وأحمد (٣/ ٣٣ و٨٢) وأبو يَعلَى (١/ ٣٠٣-٣٠٤)» ثمَّ صحَّحه على شرطِ مُسلمٍ، والقِتالُ على تَأويلِ القُرآنِ هوَ قِتالُ مَن تأوَّلَه على

غيرِ مُرادِ الله ﷻ كما يَفعلُ أهلُ البدَع، وللخوارجِ نَصيبٌ وافرٌ مِنه، وقد كانَ قِتالُهم على ذلكَ من حظِّ عليٍّ ﵁، قالَ الطَّحاوي في «شرح مُشكل الآثار» (١٠/ ٢٤١) بعدَ أن ذكَر الحَروريَّةَ: «وهُم الَّذينَ قاتلَهم عليٌّ على تَأويلِ القُرآنِ»، والشَّاهدُ من سردِ الحديثِ وشرحِه أنَّ النَّبيَّ ﷺ ذكرَ الجهادَين جَميعًا: جِهادَ الكفَّارِ وجِهادَ المبتَدعةِ، وأهلُ السُّنةِ يُجاهِدونَ أهلَ البدَع كما يُجاهِدونَ الكفَّارَ الجِهادَ الشَّرعيَّ: إمَّا باليدِ أو بالقلَم أو باللِّسانِ بحسَب ما يَقتضِيه فقهُ الجِهادِ قوَّةً وضَعفًا، والحركيُّونَ لَا يَكادونَ يَعرِفون جِهادَ المبتَدعةِ إلَّا أن يُجاهِدوا أهلَ السُّنةِ أهلَ الحديثِ والأثرِ، وإنَّا لله!

وقد جنَى المسلِمونَ اليومَ من هَذا الصِّنفِ الَّذي جاهدَه عليٌّ ﵁ مرَّ الثِّمارِ؛ لأنَّ جلَّ الحركاتِ الإسلاميَّة ساكتٌ عنه وعن أهلِ البدَع عُمومًا، بل منهم مَن يُقرِّبهم ويَحنُو عليهم ويَسترُ أَخطاءَهم، فاشتدَّت وَطأةُ المبتدِعةِ على المسلِمينَ، وبرَّز مِن هَذا الثَّغرِ - الَّذي تَعمَّدوا اغتِيالَ المرابِطِ فيه - حِزبانِ من شرِّ أهلِ البدَع على وجهِ الأَرضِ، هما:

- الحِزبُ الحاقدُ على أَصحابِ رَسولِ الله ﷺ باسم نُصرةِ آلِ البَيت!

- والحِزبُ الحاقدُ على المسلِمين تكفيرًا وتَفجيرًا باسم الجِهادِ!

وما قوَّى هذَين الحِزبَين ما قوَّاهما ذاكَ التَّقعيدُ الحرَكيُّ؛ فلقَد كانَ أهلُ السُّنة أَفطنَ المسلِمينَ لخطَر الحزبِ الأوَّلِ من أوَّل ظُهورِ دَولتِه في هَذا العَصر، وكانَ الحركيُّون مِنهم يَضحَكون، وإذَا مرُّوا بهم يَتغامَزون، وقالُوا: ليسُوا على

وعيٍ؛ لأنَّ القوَى العالميَّةَ تَنحرُ المسلِمين وهُم مَشغولونَ بإخوانِهم الَّذين لَا ذنبَ لهم سوَى أنَّهم أنصارُ آل البَيت!! كذا زَعموا، وكذلكَ فَعلوا مع مَن كانَ مُتصدِّيًا لجماعاتِ التَّكفيرِ والتَّفجيرِ بغيرِ حقٍّ؛ حيثُ قالُوا في هَؤلاءِ: إنَّ (المجاهِدينَ!) يُواجِهون الحكَّامَ الطَّواغيتَ، وأُولئكَ فرَّغوا أَنفسَهم ليَردُّوا علَيهم، والطَّواغيتُ يَستغلُّونهم ويَستعمِلونهم لِتَثبيتِ عُروشِهم!!

وما طالَ الزَّمنُ حتَّى تغيَّرَت الموازينُ عندَهم بعدَ أن رأَوا ما لم يرَوه من قَبلُ، فما أحدثَه هَذانِ في العِراقِ والشَّام واليمَن لم يَعُد خافيًا على أحدٍ، فالحاقِدونَ على الصَّحابةِ يَتكاتَفون لرميِ أهل السُّنة عن قوسٍ واحدةٍ والقوَى العالميَّةُ ظهرٌ لهم، والتَّكفيريُّون مُجتهِدون في تَفريقِ أهلِ السُّنة وتَفتيتِ قُواهم بل وإراقةِ دِمائِهم في كلِّ فرصةٍ تَسنحُ لهم، والقوَى العالميَّةُ تُندِّد بصَنائعِهم ظاهرًا وتَستعملُهم لذلكَ باطنًا.

ولقد تبدَّت مِحنةُ أهلِ الشَّام اليومَ (١٤٣٢ هـ - ١٤٣٥ هـ) عن نَتائجَ طالَمَا غالَط فيها الحركيُّون، وأبانَت عن أنَّ دَعوةَ هَؤلاءِ ليسَت بشيءٍ، ولم يَعُد هَذا محلَّ خِلافٍ بينَهم وبين أهلِ السُّنة؛ لأنَّ مَن كانَ بالأمسِ يُكابرُ في قَبولِ أدلَّة السَّلفِ لم يَقدِر اليومَ على مُكابرةِ الواقعِ المرِّ الفاضِح، ولكن لِماذَا لَا يَقتنعُ هَؤلاءِ بدَليلِ الكتابِ والسُّنة ولَا بسيرةِ سلفِ الأمَّة في مُعاملةِ أهلِ البدَع؟! بل كأنَّه لَا يُقنعُهم إلَّا الواقعُ، فلمَّا رأَوا ما حصَل بسَببِهم للمسلِمين في البلادِ الَّتي سمَّينا انطلَقوا وهم يَتخافَتون، وقَليلٌ مِنهم الَّذينَ يَتشجَّعون فيُصرِّحون:

لقد كانَ أَتباعُ السَّلفِ أَنضجَ منَّا؛ لأنَّهم فطِنوا لهؤلاءِ قَبلَنا وعرَفوا فَسادَ مَذهبِهم في الوقتِ الَّذي كنَّا نزكِّيهم فيه، فأينَ السِّياسةُ الواعيةُ الَّتي يَفتخِرون بانفِرادِهم بها؟! وأينَ التَّيقظُ لمُخطَّطاتِ الأَعداءِ وأينَ فقهُ الواقع الَّذي يَتمدَّحون به دائمًا ويَطعَنون به على كِبارِ العُلماءِ؟! لقد كانَ يَنبَغي أن يَموتَ شَعبٌ كاملٌ بالشَّام لكي يَفطنَ الحركيُّونَ أَخيرًا لخطرِ الحاقِدينَ على الصَّحابةِ!! على أن يَثبُتوا على هَذه الفِطنةِ ولَا يَرتدُّوا على أَدبارِهم كما عُرِف عَنهم؛ لأنَّهم قومٌ لَا يُؤسِّسونَ قَناعاتِهم على الكِتابِ والسُّنةِ، ولكنَّ قَناعاتِهم تَلعبُ بها حَوادثُ الزَّمانِ، ومَن كانَ بهَذه المثابةِ مِن التَّذبذبِ لَا يُؤمَن له جانبٌ، فكيفَ يَنتصِبون للدَّعوةِ ويُجعَلونَ للمتَّقينَ إمامًا ومِن شرطِ الإمامةِ اليَقينُ لَا التَّذبذبُ، قالَ اللهُ ﷻ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]؟!

واللهُ مِن وَراءِ القَصدِ وهوَ يَهدِي السَّبيلَ.

المحتويات

الصف والإخراج دار الإمام مسلم


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



الإعذار

إلى المعتذرين لأهل البدع والصغار